الخليج والوطن العربـــي(*)

د . حسن الابراهيم

استاذ العلوم السياسية في جامعة الكويت ورئيس تحريـــر مجلة « الطفولة العربية » ـ الكويـــت .

إن أفضل طريقة يمكن ان نصف من خلالها العلاقة بين أقطار الخليج والوطن العربي ، تكمن في اللجوء الى استعمال مصطلح واسع الانتشار في الفيزياء والهندسة وهو : « علاقة الاقتران » . فكلاهما مرتبطان بعضهما ببعض الى حد الاعتماد المتبادل ، وما يحدث لاي منهما كفيل بأن يترك أثره الفوري على الآخر .

وتتميز « علاقة الاقتران » هذه بالابعاد التالية : **اولاً** : الأبعاد القومية والحضارية واللغوية والدينية والتاريخية : **ثانياً** : البعد الاقتصادي : **ثالثاً** : البعد الأمني : **رابعاً** : بعد القوى البشرية .

وسنتطرق الى كل بعد من هذه الأبعاد الاربعة بالتفصيـل .

أولاً : الابعاد القومية والحضارية واللغوية والدينية والتاريخية

لم تضمحل القومية العربية على الرغم من الانتكاسات المتعددة التي لحقت بها ، ولا ريب في انها تجتاز اليوم احدى اضعف مراحلها ، ولكنها تبقى قوة يحسب لها حسـاب . ان كلا من التنـاقض والالتباس والافتقار الى الوضوح بالنسبة الى قضية الوحدة ، يشكل بحد ذاته دلالة على ان فكرة وطن عربي متحد يمتد من الخليج العربي الى المغرب ، لا تزال تراود العرب نظرا الى احاسيسهم المشتركة عن ماضيهم المجيد والاحلام التي تراودهم عن مستقبل يرتكـز على القـوة الداخليـة والانعتاق من الضغوط والتهديدات الخارجية .

ان التناقض الحاصل اليوم بين تطلع العرب الى الوحدة فيما بينهم وبين البنى القطرية القائمة في الوطن العربي ، يمثل معضلة بالنسبة الى جميع الانظمة العربية . وتفسر لنا هذه المعضلة التبدل المستمر في ما يطلق عليه « توازن القوة العربي » ، ويمثل هذا المصطلح بالنسبة الى « آلان تايلور » :

(*) ورقة قدّمت الى : معهد اكسفورد لدراسة الطاقة ، ندوة « الخليج : الاقتصـاد ـ السياسـة ـ والأمن » ، اكسفورد (انكلترا)، ٥ ـ ٦ نيسان / ابريل ١٩٨٤ .

نمط التوازن والاضطراب واعادة التكيف ، كما يظهر في سياق الاعتماد المتبادل بين الاقطار العربية بعد تأسيس الجامعة العربية . ان مصطلح « النظام العربي » يجب أن يفهم على انه علاقة تفاعلية تظهر فيها الاقطار الاعضاء ملتزمة بعضها ببعض في صيغة تحالف او تنافس او تطلع الى أهداف مشتركة . وبما أن هذا النظام على درجة عالية من التنوع ، فان تطور سياسة عربية متداخلة كان لا بد من ان يلازمه ، مسبقا ، توازن المصالح الخاصة ومما تجدر الاشارة اليه ان العناصر الاربعة الاساسية في توازن القوى العربي هي : مصر ، سوريا ، العراق والسعودية .

اما بالنسبة الى توازن القوة العربي فان أفضل سياسة يمكن ان تتبعها اقطار الخليج ، أعضاء مجلس التعاون الخليجي ، هي تلك التي تتحاشى اتخاذ اي دور فعال في لعبة توازن القوة العربي ، مفضلة عليها سياسة عدم مناصرة جانب على آخر في الصراعات العربية المتبادلة وفي داخل هذه الصراعات بالتحديد ، والاكتفاء بالقيام بدور الوسيط الصادق غير المتحيز . ولقد نجحت الكويت في اتباع هذه السياسة منذ استقلالها في العام ١٩٦١ ، ولا يزال يطرح السؤال فيما اذا كانت السعودية ـ وهي عنصر تقليدي في توازن القوة العربي ـ ستجر معها بقية اعضاء مجلس التعاون في لعبة توازن القوة .

وعلى الصعيد الثقافي ، كان الخليج ـ ولا يزال ـ يتلقى المؤثرات الثقافية من بقية أقطار الوطن العربي ولا سيما مصر . ان الافلام والمسرحيات المصرية بالاضافة الى المثقفين والصحافيين المصريين ، هي التي تسود الحياة الثقافية في الخليج . كما ان نظام التعليم العالي في الخليج يطابق مثيله في مصر ، بما فيه مرض استيراد الشهادات ، ويشغل الوظائف في الانظمة التعليمية في الخليج بصورة رئيسية مدرسون واكاديميون عرب .

ولا شك في ان اللغة العربية هي العامل الاهم في توحيد الوطن العربي ، وبالرغم من اللهجات المختلفة التي تسود المشرق والمغرب العربيين ، فان اللغة العربية الكلاسيكية تبقى اللغة التي تستعملها وسائط الاعلام والمفهومة في ارجاء الوطن العربي كله .

ان الاسلام هو الدين الغالب في الوطن العربي ، وتحتل الجزيرة العربية موقع القلب من الاسلام ، فهي المكان الذي ازدهرت فيه الثقافة العربية الاسلامية ، واليها يعود العرب بأصولهم . وتعتبر مدينتا مكة والمدينة في السعودية مركزين روحيين لاكثر من ثمانمئةمليون مسلم في العالم أجمع ، ويزور في كل عام ما يقارب من مليوني مسلم مكة لتأدية فريضة الحج ، احد أهم مرتكزات الايمان في الاسلام . وتمثل مدينتا كربلاء والنجف في العراق ثاني اقدس الامكنة التي يرتادها المسلمون الشيعة . وتقع اهم الامكنة المقدسة في السعودية ، الامر الذي لا يزيد من أهمية هذه المنطقة فحسب ، بل يزيد من أهمية الرابط بين الخليج والجزيرة من جهة وبين بقية الوطن العربي من جهة اخرى .

ثانياً : البعد الاقتصادي

ان قوة الخليج الاقتصادية تزيد من أهمية العلاقة القومية بينه وبين اقطار الوطن العربي ، وان الزيادة التي طرأت على أسعار النفط بعد الحرب العربية ـ الاسرائيلية في العام ١٩٧٣ ، قد زادت بدورها من القوة الاقتصادية لاقطار الخليج المنتجة للنفط . ولقد بلغت الفوائض الخارجية المتراكمة ، في أول كانون الثاني / يناير ١٩٨٤ ، لكل من السعودية والكويت والامارات العربية المتحدة ٢٤٥ مليار دولار ، وهذه الودائع هي أقل بعشرين مليار دولار عما كانت عليه في الربع الثالث من العام ١٩٨٣ ،

بسبب السحب منها لتغطية العجز الناتج من انخفاض عائدات النفط .

وفي النصف الاول من العام ١٩٨٣ ، خفضت السعودية ، وحدها ، من ودائعها الخارجية ما قيمته ١٠،٢ مليار دولار لتسد العجز الناتج من انخفاض العائدات النفطية ، ولكن وبالرغم من ذلك تستمر هذه الودائع لتشكل قوة اقتصادية اساسية . وتستثمر هذه الودائع ـ بالدولار ـ في مصارف في الولايات المتحدة الامريكية وفي فروع لها في أمكنة اخرى ، وقد قدرت قيمة هذه الاستثمارات بما يتراوح بين ١٥٠ و٢٥٠ مليار دولار لكل من السعودية والكويت والامارات العربية المتحدة وقطر في العام ١٩٨١ .

ويقدر مكتب الميزانية في الكونغرس الامريكي ان انقطاع النفط السعودي لسنة واحدة عن الولايات المتحدة الامريكية سيكلفها ٢٧٢ مليار دولار ، بالاضافة الى انه يزيد من معدل البطالة الامريكية بنسبة ٢ بالمائة، ويساهم في ارتفاع معدل التضخم بنسبة ٢٠ بالمائة . اما خسائر حلفاء الولايات المتحدة الامريكية فستكون ـ بطبيعة الحال ـ اكبر . وحسب تقدير آخر ، فان اقتطاع تسعة ملايين برميل يومياً من النفط السعودي لمدة سنة من شأنه ان يخفض الناتج القومي الامريكي بنسبة ٥ بالمائة والناتج القومي الاوروبي بنسبة ٧ بالمائة والناتج القومي الياباني بنسبة ٨ بالمائة . اما انقطاع نفط الخليج بأكمله فمن شأنه ان يخفض الناتج القومي الامريكي بنسبة ١٣ بالمائة والاوروبي بنسبة ٢٢ بالمائة والياباني بنسبة ٢٥ بالمائة[١] .

وتعتبر قوة الخليج العربي الاقتصادية بمثابة عامل آخر يساهم في تطور العلاقات بين الخليج والوطن العربي . فبامكان الخليج ان يمارس ضغطا قويا على الولايات المتحدة وأوروبا كما فعل في العام ١٩٧٣ عندما فرض حظرا على تصدير النفط بالنيابة عن الوطن العربي . وتعتبر قوة الخليج الاقتصادية والنفطية ذراعا سياسية واقتصادية في الصراع العربي ـ الاسرائيلي . كما انها تعتبر ، في الوقت نفسه عاملا يساهم في النهضة الاقتصادية للاقطار العربية الاقل ثروة . وفي الواقع ، فان الاقطار الصغيرة في الخليج العربي تعزز من استقلالها عن طريق المساعدات التي تقدمها الى الاقطار العربية الاكبر والاقل ثروة ، وهو دور مهم تؤديه هذه الاقطار بمهارة فائقة .

وكم نتمنى لو يتغير نمط المساعدات التي تقدمها اقطار الخليج العربية ولا سيما بعد قيام مجلس التعاون الخليجي الذي يجب ان يبادر بدوره الى ان يضع حدودا على المساعدات التي كانت تقدم سابقا من أقطار خليجية وعلى صعيد ثنائي ، لمساعدة حكومات عربية مقابل دعم تقدمه لها هذه الاخيرة . وفي المستقبل يتوجب على هذه الاقطار ان تخطط لهذه المساعدات بشكل أفضل ، على ان توجه ـ هذه المساعدات ـ الى مشاريع انمائية اكثر ملاءمة وفاعلية في التنمية لما يخصص لها من اموال . اما في الماضي ، فان مثل هذه المساعدات غالبا ما كانت تستقر في جيوب الصفوة الحاكمة .

ان قوة اقطار الخليج الاقتصادية قد ساهمت ـ بفعالية ـ في شد اللحمة بينها وبين بقية أقطار الوطن العربي . ومهما يكن من أمر ، فان مجلس التعاون الخليجي يتحمل مسؤولية تضييق الفجوة بين الغني والفقير في الوطن العربي ، ويمكن لهذا الامر أن يتحقق من خلال تبني خطة شبيهة بخطة مارشال الامريكية التي أنعشت الاقتصاد الاوروبي المهدم بعد الحرب العالمية الثانية . والحقيقة التي لا يمكن

---

(١) انظر في هذا الصدد تقديرات كلّ من :

Congressional Budget Office 1980; Rowen 1980, and Department of Energy 1980.

ان يتغاضى عنها ، هي ان أية تنمية اقتصادية واستقرار سياسي لا يمكن لهما ان يتحققا في الخليج ما لم يتحقق مثيل لهما في بقية أقطار الوطن العربي ، ويعتبر هذا الامر دلالة قاطعة على أهمية وجود « علاقة الاقتران » بين الخليج والوطن العربي .

ثالثاً : البعد الامنـــي

يعتبر الامن في الخليج احد أهم العوامل التي أدت الى قيام مجلس التعاون الخليجي في العام ١٩٨١ . وكانت الكويت اول أقطار الخليج ادراكا للفراغ الذي أحدثه الانسحاب البريطاني من الخليج ، وكان هذا الخوف هو احد الاسباب التي دفعت بها الى ان تمارس مجهودا مكثفا لتسهيل وتحقيق الاتحاد والتكامل في المنطقة . وقد حظي اول اتحاد في تاريخ العرب الحديث ، دولة الامارات العربية المتحدة بمساندة كبيرة من الكويت في ايام تكوينها الاولى . وفي مطلع العام ١٩٨١ قدم وزير خارجية الكويت الى حكومات اقطار الخليج ورقة عمل يقترح فيها تأسيس مجلس التعاون الخليجي . ومع ان اتفاقية الرياض التي وقعت في ٤ شباط / فبراير ١٩٨١ لم تشر ـ بشكل خاص ـ الى قضية الامن كأحدى القضايا المتضمنة في نطاق الاهتمام ، ولكن اتضح فيما بعد أن قضية الامن هذه هي واحدة من أبرز القضايا التي شغل بها المجلس في السنتين الاخيرتين .

ومرة اخرى ، نلاحظ ان أمن الخليج هو جزء من أمن الاقطار العربية الاخرى ، والدليل على ذلك ان التهديدات الاسرائيلية الموجهة ضد أقطار عربية اخرى تعتبر ، في الوقت نفسه ، موجهة بشكل مباشر ضد أقطار الخليج العربية . وفي الحقيقة ، يصعب علينا ـ من منظور أشمل ـ ان نفرق بين أمن الخليج وبين امن اقطار عربية اخرى في الوقت الذي تجمع فيه هذه الاقطار جميعها ومنذ خمسة وثلاثين عاما ، على استعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . ان اصرار الحكومة الامريكية على هذه التفرقة قد أوجد مأزقا عند زعماء اقطار الخليج العربية الذين يؤيدون الغرب ، في الوقت الذي يدرك فيه هؤلاء الزعماء في قرارة انفسهم ان تقاربا امريكيا ـ خليجيا يعتبر امرا حتميا من اجل سلامة وتطور اقطارهم ، فانهم لا يستطيعون التفوه بهذه الحقيقة علنا بسبب العداء الامريكي المستمر للقضية العربية ، بشكل عام . ان الفشل الامريكي في الظفر بالتزام علني بالوجود الامريكي في الخليج يعتبر دلالة واضحة على الخوف المسيطر على حكومات المنطقة .

ان الخليج كغيره من اقطار الوطن العربي يعتبر ان التهديدات الخطيرة الموجهة الى امنه ليس مبعثها الاتحاد السوفياتي ، بل سياسة التوسع الاسرائيلية المدعومة علنا من الولايات المتحدة الامريكية التي يجمعها مع اسرائيل ما يسمى بالاجماع الاستراتيجي .

وفي الحقيقة فان الخطر المباشر الموجه ضد امن اقطار الخليج كان نتيجة معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية ، التي بعثرت الامن الذي كان يوفره سابقا النظام الاقليمي العربي ، بالاضافة الى انها تركت الوطن العربي مجزأ ، كل قطر فيه او منطقة تصارع من اجل بقائها الذاتي ، كما انها عبدت الطريق للاجتياح الاسرائيلي للبنان في العام ١٩٨٢ . ان اتفاقية التعاون الاستراتيجية الامريكية الاسرائيلية التي نوقشت في ايلول / سبتمبر ١٩٨١ قد زادت من حدة الاستقطاب في الوطن العربي .

وبعد فترة وجيزة من نجاح رئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيغن في الحصول على تلك الاتفاقية مع الرئيس ريغن ، سارعت اربعة اقطار عربية هي ليبيا ، سوريا ، الجزائر ، واليمن الجنوبية

بالاضافة الى منظمة التحرير الفلسطينية الى الاعلان عن نيتها في تطوير استراتيجية من العلاقات العربية ـ السوفياتية لتواجه بها الاتفاقية الامريكية ـ الاسرائيلية . وهكذا ، وبالرغم من التقهقر الذي منوا به في الوطن العربي ، فان الروس اليوم يمتلكون فرصة ذهبية يستطيعون من خلالها العودة مجددا الى المنطقة. ان هذه الاتفاقية العربية ـ ومهما كانت محدودة ـ تعكس استقطابا متزايدا في الوطن العربي بين حلفاء الاتحاد السوفياتي واولئك الذين يرغبون في التعامل مع سياسات الولايات المتحدة في الشرق الاوسط . اما الاوروبيون فقد تصرفوا في هذه الاثناء ، بسلبية في ضوء تدهور الوضع ، فقد كان عليهم ان يتعاونوا مع اليابانيين من اجل ايجاد سياسة مشتركة تهدف الى اقناع الولايات المتحدة بأن استمرارها في اتباع سياستها هذه في الشرق الاوسط ، بشكل عام ، ومنطقة الخليج ، بشكل خاص ، سيكون له ، في المدى البعيد ، تأثير سلبي على أمن ورفاهية اوروبا الغربية واليابان .

إن سلامة الخليج لا يمكن ان تعزز بواسطة توزيع غير عادل للثروة في الوطن العربي . وعلى المستوى الاقتصادي ، فان الاقطار العربية الضعيفة اقتصادياً وذات الكثافة السكانية العالية تشكل اخطارا حقيقية لمجلس التعاون الخليجي ، كما ان نجاح هذا الاخير يعتمد ـ بشكل اساسي ـ على قدرته على ايجاد نظام اقتصادي جديد يرتكز على المساواة والعدالة . ويبدو ان الانفاق المتزايد على الدفاع في اقطار الخليج العربية يعكس عدم تبني استراتيجية مشتركة لتوجيه الاموال في سبيل تنمية عربية شاملة ، واذا نظرنا الى قطر واحد عضو في مجلس التعاون الخليجي وهو السعودية ، وجدنا ان انفاقه على الدفاع ارتفع من ١٧١ مليون دولار عام ١٩٦٨ الى ١٣١٧٠ مليون دولار في العام ١٩٧٨ وبنسبة تفوق ٧٦٠٠ بالمائة في عقد واحد . وقد بلغ الانفاق السعودي في هذا المجال ـ الدفاع ـ للشخص الواحد ١٧٠٤ دولارات مقارنة مع الجزائر ٢٥ دولارا ، مصر ١١٢ دولارا ، العراق ١٤١ دولارا ، ايران ٢٢٤ دولارا واسرائيل ٨٨٧ دولارا . ان هذا الانفاق لا يمثل بالنسبة الى اقطار الخليج هدراً لموارد ثمينة فحسب ، ولكنه يدل في الوقت نفسه على الاعتماد الكثيف على القوى الخارجية وعلى اعادة تدوير غير عادل للبترودولار ، مجددا ، الى الغرب الصناعي .

وتشكو الاقطار الستة الاعضاء في مجلس التعاون الخليجي من النقص في القوة العاملة المحلية والماهرة ، وهكذا فان هذه الاقطار لا تستطيع توفير العدد الكافي في الاطقم البشرية لسلاحها المتطور أو لصيانته ، بالاضافة الى ان انواعا من الاسلحة التي يتم شراؤها من الغرب لا تعتبر، جوهرية ، بالنسبة الى حاجات الدفاع في هذه الاقطار ، ولكنها تستملك في الاغلب من اجل تعزيز الهيبة الوطنية .

ويمكن ـ في هذا المجال ـ الاستفادة من درس ايران ، عندما كدس الشاه الاسلحة المتطورة التي لم تستعمل باداء عال ، ومثال على ذلك هو البحرية الايرانية التي كانت دائما تفتقر الى القوة البشرية الماهرة ، بالاضافة الى ان درجة استعدادها لم تكن حسب المستوى المطلوب . واذا كان هذا هو حال ايران ، فما بالك بوضع الاقطار الخليجية الصغيرة التي تشكو من قلة السكان المواطنين .

وهكذا يمكننا ان نخلص الى نتيجة هي ان التركيز الشديد على التسليح والتفرقة بين أمن الخليج وبين الامن العربي بمفهومه الاوسع ، ستكون لهما في المدى البعيد عاقبة وخيمة تثير مشاكل اقتصادية وسياسية خطيرة من دون ان تساهم في تعزيز امن الحكومات الخليجية الحقيقي . ان هذا الاستيراد غير المبرر للسلاح لا يزعزع الاستقرار في المنطقة فحسب ، بل يفسح في المجال لتدخل مباشر من الغرب والشرق في شؤون المنطقة .

رابعاً : بعد القوى البشريـــة

يمكننا اعتبار هذا البعد العامل الاهم الكامن في « علاقة الاقتران » بين الاقطار الخليجية وبقية اقطار الوطن العربي ، واذا عرفنا ان المحددات الديمغرافية لمجلس التعاون الخليجي مذهلة وان عدد السكان لا يتجاوز ١٣ مليونا ودخلهم القومي يبلغ١١٣٠٥مليار دولار امريكي ، ندرك على التو الضعف الحاد ان كل قطر من اعضاء المجلس يواجه بمفرده قيودا وضعفا متمثلا في الخضم الهـائل من العناصر البشرية الاجنبية التي تتماوج وسط عدد صغير من السكان المواطنين . ان اليـد العاملـة الاجنبية هي التي تسيطر على معظم المرافق الحكومية ـ ان لم يكن كلها ـ في اقطار الخليج ، وبامكاننا القول في الوقت نفسه ان هناك اعتمادا جوهرياً على المرتزقة في القوات المسلحة . ان الوعي الذي برز مؤخرا للمخاطر الموجهة ضد نسيج المجتمعات في الاقطار الخليجية ـ والتي مصدرها القوة العاملة غير العربية ـ قد أحدث تبدلا في سياسة الاعتماد على هذه القوة العاملة غير العربية . ولا شك في ان مصر ـ التي تبلغ نسبة سكانها ٣٥ بالمائة من سكان الوطن العربي ـ ستستمر في توفير حجم كبير من القوة العاملة المطلوبة للعمل في اقطار الخليج . وبالمقابل ، فان اقطار الخليـج العربيـة يجب ان تبادر الى مراجعة واعادة بناء نظام التعليم المصري العالي المعتمد الذي تردت حالته كثيرا في الآونة الأخيرة . وسيبقى الخليج يعتمد على القوى العاملة العربية حتى نهاية هذا القرن ، الامر الذي سيساهم في تمتين العلاقات بين الخليج وبقية أقطار الوطن العربي .

وأخيرا ، لا مفر من القول بأن الوطن العربي يشكل كيانا واحدا . وحتى تتكلل خطوة التكامل بين اقطار الخليج بالنجاح ، يجب ان ينظر اليها على انها تمثل الخطوة الاولى في سبيل اقامة وحدة شاملة بين جميع اقطار الوطن العربي . كما ان الاحداث المؤلمة التي خبرها وعايشها الوطن العربي بأكمله ، يجب ان تكون بمنزلة عامل قوي يدفع العرب الى العمل بجد من اجل اقامة الوحدة القادرة على الوقوف بوجه التحدي الماثل امامها ، هذا التحدي الذي يحمل في طياته مخاطر حقيقية تهدد وجود العـرب كأمة .

واذا أريد لمجلس التعاون الخليجي العربي ان يكون البذرة الاولى التي ستثمر وحدة عربيـة شاملة فيما بعد ، فان من اولى مهماته ان يعلن سياسة واضحة ، تعتمد على الحياد الايجابي ، وتعارض وجود جميع القواعد العسكرية الاجنبية في الخليج . كما يجب على اقطار الخليج ان تفهم الغرب ان امن الامدادات النفطية يعتمد ـ بشكل اساسي ـ على التوصل الى تحقيق حل سلمي للصراع العـربي ـ الاسرائيلي الذي لن يتحقق بدوره من دون ايجاد حل عادل للقضية الفلسطينية □

لبنان : اية سياسة خارجية ؟

د . غسان سلامة

استاذ محاضر في كلية الحقوق والعلوم السياسية في جامعة القديس يوسف في بيروت .

- ١ -

اننا اليوم بصدد التساؤل عن أمر غامض، متقلّب، متعدّد الوجوه، وربما منعدم الوجود، الا وهو سياسة لبنان الخارجية . للطوائف والأحزاب في هذا البلد سياسات خارجية ، تسعى من خلالها للاستقواء بالخارج ، متناسية وفق الظروف والمصالح ، انها بذلك تقوّض أسس الاستقلال وتدك مداميك الوحدة الداخلية ، جاعلة من نفسها مطيّة لكل طمّاح ، ولكل غاصب . ان السياسة الخارجية لبلد ما ، ما هي الا انعكاسٌ لطبيعة السلطة القائمة فيه . وغموض السياسة الخارجية اللبنانية انعكاس لتفكك السلطة في لبنان ، وتناقضات سياستنا الخارجية مرآة للتحولات الجذرية التي لم تنفك تنهك بنية السلطة . ان تحديد وتنفيذ سياسة خارجية لبنانية مرتبط طبعاً بقيام سلطة مستقرّة وقادرة ، ولو لفترة معقولة من الزمن ، وهذا بالتحديد ما حرم منه لبنان ، خلال العقد المنصرم . فغابت اطلالته على الخارج ، مع تكرار الانهيار الداخلي .

غير انّه ينبغي علينا الّا نتوقف امام هذا المعطى ، على الرغم من مركزيته . فمن الضروري ايضاً استشراف معالم سياستنا الخارجية وفق معطيات داخلية مختلفة عن التي عرفناها في السنوات العشر المنصرمة . وذلك لعدد من الأسباب ، اولها ان لبنان يعيش منذ انتفاضة ٦ شباط / فبراير ١٩٨٤ ومحادثات لوزان ودمشق وتأليف الحكومة الحالية ، مرحلة من المراجعات الصعبة في كل المجالات ، لا بل في مجال علاقاته الاقليمية والدولية اساساً . وثانيها ان البيان الوزاري الأخير ، بمقولاته الديبلوماسية ، وضع حداً واضحاً لسنة ونصف من الخيارات والممارسات الديبلوماسية المحددة . وثالثها الارتباط الوثيق بين اللعبة الداخلية والتوازنات الاقليمية والدولية ، ففي لبنان ، ليست معادلة الداخلي والخارجي بسيطة ، اذ ان التفاعل بين هذين المجالين السياسيين يكاد يكون متساوياً في الاتجاهين(*) واخيراً لا آخراً ، استمرار هم التحرير ، والوحدة ، والاستقلال في قض مضاجعنا ، واستمرار المدافع في تقزيم دنيانا ، وتقصير حياتنا .

(*) بل اقول اكثر : ان لبنان لم يعد له داخل ، اذ استوطنه الخارج وملأ مسامه وجرى في شرايينه حتى اصبح مشروع بناء داخل لبناني من اكثر المشاريع صعوبة وتعقيداً .

عن سؤال : اية سياسة خارجية للبنان ١٩٨٤ سوف اجيب اساساً بعرض جدليات ثلاث يجد لبنان نفسه أسيراً لها فتمنعه عن الحركة والسعي . مرة أخرى ، ان حسم هذه الجدليات ، ينبغي أن يكون داخلياً قدر الامكان نابعاً من الارادة الذاتية قدر المستطاع ، ان شئنا لهذا البلد استمراراً ، وللبنان بقية من وحدة واستقلال .

- ٢ -

والجدلية الأولى هي تحديداً جدلية الاستقلال والوحدة ،كلتاهما في المطلق ، مرغوب بهما . نحن ، كلبنانيين ، نريد الاستقلال سياسياً واقتصادياً ونبغي وحدة الأرض والشعب والمؤسسات على الأقل في المبدأ . ولكن هذا ما هو إلا كلام إيديولوجيّ ، استُفرغ على الارجح معناه . فالوحدة لها معنى واضح : انها العمل ، بأي ثمن كان ، على تأكيد القرار اللبناني الموّحد ، بحيث تنحسر علاقات الأطراف اللبنانية بالخارج ، وتعود السلطة الى امتلاك شبه حصري للعمل الديبلوماسي . والوحدة تعني ايضاً تحرير الجنوب من الاحتلال الاسرائيلي ووضع حد لوجود القوى المسلحة غير اللبنانية ،بمن فيها السورية ، على ارض لبنان . بينما يعني الاستقلال تملّك الخيارات الديبلوماسية كاملة ، بحيث لا تشعر السلطة اللبنانية الا بالضغط المعقول والعادي الذي تمارسه كل دولة على أخرى ، خصوصاً حينما تكون الثانية أصغر واضعف .

المسألة ليست أبداً في اختيار ايّ من هذين الهدفين على حساب الآخر . فبلوغ الواحد منهما يسهّل بالضرورة الاقتراب من الثاني . المسألة هي في وضع الاولويات الزمنية . واختيار الاستقلال كأولوية الآن ، يطرح في نظرنا عدداً من القضايا يصعب حلّها . فالتشديد على الاستقلال قد يدفع الى علاقة تناحرية مع سوريا ، في وقت نحن بحاجة واضحة للتفاهم معها . والتشديد المطلق على الاستقلال يهدد الوحدة الداخلية ، فهو عنى عملياً خلال السنتين الأخيرتين دفع المعارضة الى الاستقواء بالخارج لمحاربة استقلالية كانت تخفي ، بنظر المعارضة ، على الأقل ، استناد الحكم المنظم على الدعم الخارجي لعزل المعارضة او ربما لضربها تماماً . والاستقلالية كخيار اول زمنياً تتجاهل معطى مهماً ، وهو أن أياً من الطوائف لم تعد قادرة على لعب دور بروسيا لبنان ، فتستقل عن الخارج ، ثم توحّد الداخل وفق هواها . فالاستقلال ، عندما لا يكون مشروع الطوائف كلها ، ما هو الا صورة عن حلم بهيمنة في الداخل .

لذا اننا نرى اولوية الوحدة على الاستقلال، بمعنى اولوية بناء القرار الداخلي الموحّد على هدف التعبير عنه خارجياً . فلا استقلال مع تشرذم ، ولا استقلال مع شعور البعض بهيمنة البعض الآخر . لقد لجأت كل الأطراف اللبنانية المتحاربة ، دون استثناء واحد ، للاستقواء بالخارج ، دون تردد ودون وضع حدود حمر لهذا المسلك . وهذا الأمر سوف يستمر طالما لم تجد هذه الأطراف الداخلية مصلحة ذاتية بالدفاع عن الاستقلال ، وعن النظام ، عن الكيان وعن الحدود . وهذه المصلحة هي بالضرورة مرتبطة بانخراط هذه الفئات ، بشكلٍ عادل إن لم يكن متساوياً، في صلب النظام ، كشرط لكي ترى في ذاتها الاستعداد للدفاع عنه .

وبقدر ما نقدّم ـ زمنياً مرة أخرى ـ الوحدة على الاستقلال بقدر ما نقدّمها ايضاً على مطلب المساواة ، ولو اننا من دعاتها المتحمسّين . غير ان طلب المساواة المطلقة هو اليوم بخطر البحث عن الاستقلال المطلق ، فكلاهما يهددان ، في اطلاقهما ، بلوغ الوحدة ، التي بدونها لا امكانية لاستقلال .

تقابلها مساواة في الارتهان والاحتلال . ان المطلوب اليوم حل عادل لمسألة المشاركة في السلطة من جانب ، وتبن متقابل لضرورة الاستقلال ، واجماع على ان الوحدة الداخلية يجب ان تكون عنوان الأشهر المقبلة .

لهذا الخيار نتيجة واضحة لن نخفيها : ان أقصى ما تتهم به اسرائيل ازاء لبنان هو تفكيك المجتمع اللبناني بصورة لا يمكن بعدها اعادة تركيبه . واقصى ما تتهم به سوريا في لبنان هو الهيمنة على الخيار اللبناني المستقل ، وتطويعه بصورة يتناسب فيها مع طموحات دمشق الاقليمية . ان تغليب هدف الوحدة على هدف الاستقلال ، في المرحلة الراهنة على الأقل ، يحمل في تضاعيفه ، اولوية مواجهة الاحتلال الاسرائيلي على الجهود ـ ولو المشروعة ـ للتمايز عن دمشق .

- ٣ -

الجدلية الثانية التي ينبغي حسمها تتناول مسألة عروبة لبنان ، فهي الجدلية بين الانتماء والمصلحة ، بين عروبة القناعة وعروبة الأمر الواقع . في صورتها اللبنانية ، حملت عروبة القناعة أخطاراً جسيمة على الاستقلال والوحدة والسلم الأهلي . فباسمها انبرى اطراف لبنانيون يدافعون عن الوجود الفلسطيني المسلّح ، لا بوجه اسرائيل فحسب ، بل ايضاً كطرف في اللعبة الداخلية . فلبنان في هذه النظرة جزء لا يتجزأ من أمة عربية واحدة ، عليه بالتالي مقاسمة العرب افراحهم والاتراح ، انتصاراتهم والهزائم . من هنا ايضاً مبدأ تغليب المصلحة القومية العليا على أية اعتبارات قطرية هي بالضرورة ضيقة . من هنا النظر بتسامح شبه كلي لأي تدخل عربي في الشؤون اللبنانية ، والنظر لأي تدخل غير عربي ، كشر مطلق ، حتى لو لم يكن اسرائيلياً . إن لهذه النظرة اللبنانية أسس داخلية واضحة تقضي بحرمان الطرف الذي يمكن وصفه بالمسيحي، تبسيطاً ،من الدعم الخارجي، وبمحاولة حصر الدعم العربي ـ باعتباره شرعياً وفقاً للمقاييس القومية ـ بطرف داخلي واحد ، هو إن امكن التبسيط ، الطرف الاسلامي . فمن النظرة الشعورية القومية العميقة التي لا شك انها تملأ جوارح عدد لا يستهان به من اللبنانيين ـ عدد المسيحيين بينهم ليس قليلاً ـ تنحدر عروبة القناعة الى لعبة انتفاعية، الهدف منها كسر المعادلة الطائفية الداخلية ، على حساب الطرف المسيحي .

اما عروبة الأمر الواقع ، فهي ترفض مبدأ الانتماء السياسي والحضاري اساساً . فبُعد لبنان العربي يفرضه الواقع الجغرافي لا الانتماء ولا الايديولوجيا . من هنا قول دعاة هذه النظرة ان على لبنان ان يوازن بين جوار لم يختره طوعاً وعلاقات أخرى ، اقليمية ودولية ، تجعل تأثير هذا الجوار العربي نسبياً، اي واحداً من مؤثرات شتى . هذه العلاقات كانت متجهة حتى الأمس القريب صوب فرنسا ، ثم نحو الولايات المتحدة او الأطراف العربية المحافظة . وقد لعب هذا التوازن دوراً فعالاً سنة ١٩٤٣ في صياغة الميثاق الوطني اللبناني وسنة ١٩٥٨ في الصفقة الاميركية المحدودة مع عبدالناصر . واهم تطورات هذه النظرة على الإطلاق اعتمادها ، خلال فترة من الزمن ، على موازنة اسرائيلية للتأثير العربي ، وذلك من خلال احلال اسرائيل مكان الغرب ككل ، وعرب الغرب معه ، في موقع الموازن . حتى جاء العهد الحالي ، في سنته الأولى ليعود الى مزيج من الارتكاز التقليدي على الغرب ومن محاولة الاستفادة غير المباشرة من المعطى الاسرائيلي الجديد .

كيف يمكن حسم هذه الجدلية التي تناولتها محادثات سويسرا المثنّاة ـ وعلى الرغم من مركزيتها ـ بصورة عقيمة ؟

يصبح هذا الحسم ممكناً وواقعياً ان اخذنا بعين الاعتبار العناصر الآتية :

ـ **على الصعيد الداخلي أولاً** : ضرورة اخراج الميثاق الوطني من الاطار الوردي الميثولوجي الذي وضعته فيه كتبنا المدرسية ، ومن ثم الاقرار بسقوطه . العملية الاولى تتطلب مراجعة تاريخية نقدية والثانية لحظ الراهن من واقعنا . فالميثاق ، ان كان توافقاً بين اللبنانيين او بين بعضهم ، فإنه كان ايضاً استفادة محليه جانبية من عملية أكبر . فالثلاثينات كانت اساساً مرحلة مواجهة سورية ـ فرنسية اتت الحرب العالمية الثانية لتضرب الطرف الأقوى فيها ، اي فرنسا . والميثاق لم يكن ممكناً على الارجح لولا تخلّي القيادات السورية عن حلفائها اللبنانيين بهدف الحصول على الدعم الدولي ـ المشروط بقبول سوريا لقواعد سايكس ـ بيكو ـ، ولولا هزيمة فرنسا في الحرب العالمية. لقد سبق تخلّي الخارج عن الداخل ،استغناء الداخل عن الخارج ، ولو ان العمليتين متلازمتان . والأكيد في ذهني اننا نرى اليوم ، وربما للمرة الاولى منذ اندلاع حربنا المميتة ، بداية ، بل تطور تخلٍ خارجي عن الأطراف الداخلية ، تجب الاستفادة السريعة منه بهدف صياغة ميثاق وطني جديد .

فالميثاق القديم قد انتهى ، على يد الأطراف الخارجية التي كانت كثيفة التدخل ، وعلى يد الأطراف الداخلية ايضاً . واود في هذا المجال الاشارة بالتحديد الى انكسار ثنائية الميثاق بدون رجعة ، فطائفتا الميثاق تبدوان غير قادرتين على حصر تمثيل الطوائف المتعددة بنفسها ، من خلال ميثاق ثنائي . وهنا تكمن بعض أهمية البيان الوزاري الذي القي في اليوم الأخير من شهر ايار الماضي . فهو في المبادىء التي يطرحها للاصلاح الداخلي ، يأخذ علماً بأمرين متلازمين : استحالة الدفاع عن الكيان من خلال الطائفة التي كان لها الحظ الأوفر من ايجابياته ، وثانياً استحالة احلال طائفة أخرى مكان تلك الطائفة . ان البيان ، باعطائه الصلاحيات الواسعة لمجلس الوزراء ، يجنح نحو شبه سلطة جماعية مؤسسية في قمة السلطة التنفيذية ، قد تكون احد مفاتيح الحل الحقيقي لأزمة الميثاق .

ثانياً : على الصعيد العربي . هنا يقتضي لحظ خصوصية المرحلة الراهنة . لقد شهد النظام الاقليمي العربي منذ هزيمة ١٩٦٧ ، واحداث سنة ١٩٧٠ المهمة والمتعددة ، اتجاهاً واضحاً وعميقاً نحو التشرذم . من العراق للمغرب ، كان الاستقطاب يتم ، في المرحلة السابقة على اسس ايديولوجية ، تنافس فيها التيار الاستقلالي مع التيار الهاشمي ـ البريطاني اولاً ثم التيار القومي مع التيارات المؤيدة للغرب ومع التيارات اليسارية المفرطة في راديكاليتها . هذا الاستقطاب الايديولوجي كان ـ جزئياً على الأقل ـ سبباً من اسباب احداث ١٩٥٨ . ولكنه كان ايضاً وسيلة ممتازة لانهاء تلك الاحداث . اذ انه بمجرد الاتفاق مع عبدالناصر ، وكان آنئذٍ قائد التيار القومي غير المنازع ، وعقد الصفقة الناصرية ـ الامريكية ، اصبح حل الأزمة الداخلية سهلاً ولو غير اوتوماتيكي .

اما اليوم فالنظام العربي تحكمه استقطابات ، تلعب فيها الايديولوجيا دوراً ثانوياً يكاد يكون هامشياً . ولن افصّل . وقد يكون المعيار الأساسي للاستقطاب جغرافياً ـ استراتيجياً بمعنى ان النظام الاقليمي برمته قد تشرذم الى عدد من الانظمة الفرعية المحلية ـ اي الى مجموعات صغيرة من الدول ـ يحكمها تنافس طرفين محليين كما هي الحال في المغرب العربي حيث التنازع المغربي ـ الجزائري على موريتانيا وتونس والصحراء او في افريقيا الشمالية ـ الشرقية حيث التناحر المصري ـ الليبي يطال السودان والصومال وغيرهما . اما في آسيا العربية ، وخصوصاً بعد دخول العراق في حرب انهكت طموحاته العربية حتى اصبح وجوده بالذات مهدداً ، فإن الاستقطاب يتم حول قوى اقليمية قادرة كمثل السعودية في اطار مجلس التعاون الخليجي وسوريا في الشرق الادنى العربي . وهنا ، لبنانياً على الأقل ، بيت القصيد .

فالأطراف العربية منهمكة في جوارها المحلي المباشر ، يكاد الهم اللبناني لا يلامس ذهنها . وان هي اهتمت بلبنان ، فهي تكاد لا تستطيع العبور اليه الا بعد الحصول على تأشيرة من دمشق . انني لا اؤيد هذا الواقع ولا اتأفف منه ، بل اكتفي الآن بلحظه . وان اردت تبيان اسبابه ، شددت على ثلاثة منها: اولاً تشرذم النظام الاقليمي الى وحدات فرعية ، يصعب العبور فيه من واحدة الى أخرى،وثانياً كون الصراع العربي ـ الاسرائيلي قد انحسر ، في الواقع ، وفي الراهن من زمننا ، والى حد كبير ، الى مواجهة سورية ـ اسرائيلية . فالاردن لم يزل يعيش ، باقرار العاهل الاردني نفسه ، في جو هزيمة ١٩٦٧ ، معتبراً حرب ١٩٧٣ وما تبعها حادثاً عابراً لا يذكر ، رافضاً منطق السبعينات من هذا القرن ، رفضاً مطلقا ، وعازلاً بالتالي نفسه عن الصراع . ومصر اختارت مسلك المبادرة ومعاهدة الصلح ولا تستطيع تملصاً منهما في القريب المنظور . والعراق انهمك في حرب ضروس ، يعلم الله وحده بأية صورة سيخرج منها . اما منظمة التحرير الفلسطينية ، فلا أحد منا يجهل او يمكن له ان يتجاهل صيفها البيروتي سنة ١٩٨٢ او خريفها الطرابلسي سنة ١٩٨٣. اما السبب الثالث وربما الأهم ، فهو فقدان المنطقة برمتها ، والمشروع العربي بالتحديد لنزعته الاستقلالية عن النظام الدولي برمته ، وعن الطرف الأكثر تأثيراً منه في المنطقة ، اي الولايات المتحدة .

لهذه الأسباب بالذات يصبح الخلاف بين عروبة القناعة وعروبة الأمر الواقع خلافاً مفتعلاً غير ذي جدوى. فأية قناعة ممكنةبغياب مشروع عربي حقيقي كبير، في غياب الحد الادنى من التضامن العربي ، بشلل مؤسسات الجامعة شبه الكامل ، بغزو التيار الديني الكاسح لمعاقل العروبة في شكليها الناصري والبعثي ، بتدهور العلاقات العربية كلها او بالكاد ، باستئثار بعض العرب بكامل الثروة ، باستقواء الاطراف العربية جميعاً بقوى غير عربية اقليمية ودولية ؟ وكيف التعامل مع العروبة كأمر واقع فحسب او كمعطى ثانوي والصراع ضد اسرائيل يحرّك الآن شعب الجنوب اللبناني والتململ من التفوق الاسرائيلي ومن التخاذل العربي ، من النفوذ الامريكي ومن التواطؤ العربي ، يهدد الانظمة بأسرها من المحيط الى الخليج ؟ ان الخلاف اللبناني حول العروبة ، خلاف تجاوزته المنطقة منذ زمن ولكنه ما زال يغذّي اللعبة الداخلية بشعارات جوفاء .

والواقع مختلف . الواقع ان للبنان انتماء ومصلحة في الانتماء الى مشروع عربي حقيقي إن وجد . والمشروع الناصري مثلاً حمى عملياً البلدان العربية الصغيرة فأعاد الاستقرار الى لبنان ولو انه ساهم قبل ذلك في زعزعته ، ودافع عن استقلال الكويت بوجه العراق ولو باسم الوحدة العربية . ان ميثاق الجامعة العربية ضمن استقلال وطننا ، وعبد الناصر ساهم في عودة الاستقرار إليه . فتصوير المشروع العربي خطراً اكيداً على لبنان ، ليس بالأمر الصائب فعلاً . وقد يكون عكس ذلك اقرب الى الحقيقة .

ولكن عروبة الانتماء هذه ، لكي تصبح عروبة قناعة ، يجب ان ترتكز على مشروع عربي حق . بمعنى انه مشروع يستحيل الاستئثار به من قبل طرف طائفي لمحاربة طرف آخر . وهو مشروع يشغله هم الوحدة الداخلية في كل بلد عربي بقدر ـ ان لم يكن اكثر ـ مما تشغله وحدة العرب بأسرهم . وهو مشروع حضاري قومي يتعدّى السلفية المجدبة بكل الوانها : دينية كانت ام قوميّة . وهو مشروع يحمل في طيّاته فكرة المواطنية والمساواة والحداثة . فانعدام المساواة في لبنان ما هو الا انعكاسٌ ، بل هو انعكاس مخفّف طري ، لأشكال اللامساواة الصارخة من المحيط الى الخليج والتي تحرم المسيحي هنا ، والزنجي هناك، الشيعي هنا والكردي هناك والمرأة العربية في كل مكان من حقوق المواطنية الصحيحة

ان للبنان مصلحة حقيقية في هذا المشروع العربي ، ومأساة لبنان اليوم صورة ونتيجة لانعدامه . فلنكفّ عن التصادم حول هوية لبنان : اننا جميعاً من العروبة الحقة لمحرومون .

- ٤ -

الجدلية الثالثة التي سأتوقف عندها ، تتعلق بمكان لبنان في النظام العالمي الراهن . في البيان الوزاري الأخير اكدت « ضرورة التمسك بعدم الانحياز في سياستنا الخارجية دون ان يعني ذلك تخلياً عن صداقاتنا خصوصاً مع العالم الحر » . يطرح البيان هذه الجدلية الثالثة بمفردات معمّمة : عدم الانحياز من جانب وصداقتنا مع العالم الحر من جانب آخر . هناك اذن اعتراف بالجدلية ، وهذا مفيد ولكن صوغها غير مقنع . فعدم الانحياز حركة تضم معاً كوبا والمملكة العربية السعودية ، تونس والجزائر ، اليمن الشمالي وشطره الجنوبي ، الصومال واثيوبيا ، العراق وايران . عدم الانحياز إذن تعبير واسع لدرجة يكاد معها معناه ينتفي . اما تعبير « العالم الحر » فلست ادري من اين أتى صائغو البيان به . اذ نعلم جميعاً انه مفهوم يعود لأيام الحرب الباردة ، انتهى استعماله منذ سنوات طويلة ولا نكاد نجد له اثراً في الادبيات الدولية المعاصرة . ما اراد البيان قوله على الارجح هو ان سياسة لبنان الخارجية هي في نقطة وسط لا تقع بين الشرق والغرب فعلاً ، بل الى يمين ذلك ان صح التعبير ، في موقع وسط بين حركة عدم الانحياز التي يسيطر عليها عملياً أصدقاء الاتحاد السوفياتي، لا حلفاؤه، من جهة، والغرب من جهة أخرى . إن كان هذا هو القصد ، فالبيان يكون قد عبّر فعلاً عمّا يمكن تسميته بنقطة التوافق الداخلية من النظام الدولي . فالصراع الداخلي في لبنان لا يعكس البتة صراعاً بين الشرق والغرب ، ولو ان نتفاً من هذا الصراع حكمت مسار أزمتنا ، خصوصاً في السنة المنصرمة . لذا فالتوافق على الخارج ، وسطي - يميني، ان صح التعبير ، بمعنى تبنّ عملي للنظام الرأسمالي والتجارة الحرة ، والعلاقات الاقتصادية والسياسية والديبلوماسية والعسكرية الواسعة مع الغرب مع سقف واحد هو المصلحة العربية التي تعيد ادخال العنصر السوفياتي الى الحسابات اللبنانية . هذا هو كنه السياسة الخارجية الشهابية : ميل الى الغرب في النظام الدولي ولكن مع احترام الحد الذي رسمته مصر الناصرية لهذا الميل الى جانب واحد . واذا كان هذا التفسير للبيان صحيحاً ، فأهمية البيان كبيرة اذ هو يعيد لبنان السنة الاولى من العهد، من واقع الانحياز شبه الكامل للغرب بل لمركزه ونقطة الثقل فيه اي الولايات المتحدة الامريكية الى حيث كان امثال فيليب تقلا ورشيد كرامي وفؤاد شهاب قد وضعوه : اي في موقع وسطي ، لا في الغرب وبين الشرق والغرب بل بين الغرب وعدم الانحياز . وترجمة هذا الموقع عملياً كانت : الانحياز لعبدالناصر اقليمياً والانحياز للغرب دولياً : « خير هذا وشر ذاك واذا الله قد عفا » .

واقول ان السياسة الخارجية الشهابية - ان صح التعبير - لها حسنتان ليستا لغيرها : فهي نمثّل افضل من غيرها نقطة التقاطع الداخلية ، وهي السياسة الخارجية الأكثر ضماناً للاستقرار الداخلي . فالتاجر اللبناني متوجّه في اكثره غرباً . والعسكري يتدرب ويتسلّح وينظر وهو في الغرب العقيدي . من هنا مسؤولية الديبلوماسي في تصحيح هذا الجنوح الغربي المزدوج ، بتحديد سياسة خارجية أبعد وأعمق من مجرد تعبير آخر عن تغرّب العسكري والتاجر اللبنانيين .

ولكن العناصر المكوّنة لهذه السياسة الخارجية ، داخلياً واقليمياً ودولياً بعيدة عن أن تكون متوفرة بالصورة التي كانت عليها في مطلع الستينات . ونحن لسنا ممن يعتقد بتكرار التجارب التاريخية المستمر . كيف يمكن لنا ، في ظروفنا الراهنة ، ان نعيد صياغة سياسة مماثلة ان لم تكن مطابقة للتي ذكرنا ؟ ربما يتم لنا ذلك بالعناصر التالية :

اولاً : اعادة صياغة موقف من الولايات المتحدة الامريكية قوامه : (١) تأكيد موقع لبنان غير المنحاز للمعسكر الاشتراكي : (٢) تأكيد اصرار لبنان على الاّ تكون اراضيه مسرحاً لأي نشـاط ارهابي دولي ، (٣) تأكيد تبني لبنان لاقتصاديات السوق الحرة : (٤) بالمقابل : رفض لبنان اي وجود عسكري امريكي على اراضيه او أية مشاركة لابنائه في عمليات عسكرية امريكية في المنطقة ، (٥) التأكيد على ان الخيار الامريكي الذي تبناه الحكم حتى ٦ شباط / فبراير ١٩٨٤ وبالصورة التي تم فيها كان مضراً للوحدة الوطنية الداخلية ، وغير واقعي اقليمياً ، (٦) مطالبة واشنطن بموقف واضح وصريح من احتلال اسرائيل للجنوب ومحاولة اشراكها كوسيط في مفاوضات للانسحاب لا بد منها ، وانتقاد موقفها غير العادل من الشعب الفلسطيني .

ثانياً :اعادة التركيز على ان الولايات المتحدة لا تختصر الغرب برمته . وللبنان علاقات تاريخية وثيقة مع عدد من الدول الاوروبية ، ابرزها فرنسا . لقد شعر الفرنسيون أنفسهم غرباء فجأة في بلد كانوا يعتقدون انهم فيه أقرب الغرباء الى أهل الدار . وهذه من خطايا الحكم الحالي المهمة فباريس ولندن ليستا محطتين على طريق واشنطن . انهما عاصمتان مستقلتان الى حد كبير ويجب التعامل معهما على هذا الأساس . ويبدي الفرنسيون استعداداً يمكن تلمسه بسهولـة للعب دور ايجابي في المنظمـات الدولية ، وحتى على الصعيد العسكري ، على الرغم من تجربة القوة المتعددة الجنسيات المرة .

ثالثاً :مع موسكو ، التقصير واضح وأكيد . ليس لنا سفير هناك منذ ستة أشهر وقبلها كانت السفارة هناك متواضعة النشاط. ان ادارة الظهر المتعمدة للاتحاد السوفياتي سياسة قصيرة النظر ، تابعة بدون جدوى للطرف الدولي الآخر . فنحن مع الاتحاد السوفياتي في موقفه من الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وينبغي ان نكون معه في دعوته الواقعية لمؤتمر دولي حول الشرق الأوسط ، تشارك فيه موسكو. فعدم انحيازنا للسوفيات، لا ينبغي على الاطلاق ان يحملنا على الانخراط في السياسة الاميركية الآيلة لطرد النفوذ السوفياتي من المنطقة . نحن لنا مصلحة ، كلبنانيين أو كعرب أن تستعيد المنطقة بعضاً من استقلاليتها ازاء الولايات المتحدة ، وبعض النفوذ السوفياتي في هذا السياق ليس ضاراً .

رابعاً : اضاع لبنان سنة ونصف من الخيار الامريكي المحتقر للمنظمات الدولية . من السهل انتقاد دور الامم المتحدة وفعاليتها المحدودة . كما انه من السهل لحظ شلل الجامعة العربية بكامل مؤسساتها . ولكن الدول الصغيرة هي اولاد هذه المنظمات المدلّلة ، بقدر ما هذه المنظمات قادرة نفسها على اظهار الدلال. وكنا قدمّنا في خريف السنة المنصرمة ، مع عدد من السياسيين واساتذة الجامعات مشروع قرار في مجلس الأمن لاقى ترحيباً في عدد من الدول وفي بعض القطاعات اللبنانية قوامه توسيع رقعة انتشار قوة الامم المتحدة في الجنوب الى كامل الاراضي اللبنانية بحيث تشرف على نزع سلاح الميليشيات جميعاً وعلى عودة المهجرين منذ سنة ١٩٧٥ الى منازلهم وخصوصاً على انسحاب القوى العسكرية غير اللبنانية. وقد تبنت فرنسا جزئياً هذا المشروع لكنه سقط ضحية نبذ الحكومة اللبنانية له، وكانت ما زالت متعلقة بالرهان الاميركي الأعمى ، وضحية تمسّك جورج شولتز باتفاق ١٧ أيار ، وعدم التنسيق مع الاتحاد السوفياتي . ولكننـا ما زلنـا نعتقد حتى اليـوم بفائـدته ، ولا يـزال ، حسب معلوماتنا ، عند الفرنسيين الاستعداد لاعادة طرحه في مجلس الامن . وسابقة ١٩٧٨ يجب ان تدفعنا فعلاً الى تقويم أقل استهتاراً بالمنظمات الدولية .

ـ ٥ ـ

بيان حكومة رشيد كرامي شكلّ ولا شك حداً فاصلاً في تاريخ السياسة الخارجية اللبنانية اذ

تضمن ، على الأقل العناصر الآتية :

ـ الانتقال من مقولة خروج القوات الاجنبية الى مقولة « تحرير لبنان من الاحتلال الاسرائيلي » .

ـ التشديد على ان الخلافات بين اللبنانيين موجودة ، بل انها سهلّت تحوّل لبنان الى مسرح لحروب اقليمية ودولية بالوكالة.

ـ التركيز على التمسك بسياسة عدم الانحياز .

ـ التأكيد على ان الجنوب هو القضية .

ـ الترحيب بالغاء اتفاق ١٧ أيار .

ـ الدعوة لزيادة عدد قوات الطوارىء الدولية وتعزيز فعاليتها .

ـ التأكيد على ان لبنان عربي الانتماء والهوية .

ويهمني ان اشير الى تحوّل مهم في عملية صنع السياسة الخارجية ، يبدو ان البيان الوزاري جاء به اذ اكدّ على دور مجلس الوزراء في كل المجالات بما فيها ما جاء في المادة ٥٢ من الدستور الحالي الذي يشير الى دور منفرد لرئيس الجمهورية ـ ولو ضمن اطار لا مسؤوليته البرلمانية ـ في مجال عقد المعاهدات الدولية وابرامها بينما جاء في البيان انه في مجلس الوزراء تتقرر السياسة العامة للدولة بما فيهااقرار الاتفاقات والمعاهدات الدولية . ومن المعلوم ان لا ذكر لمجلس الوزراء على الاطلاق في الدستور الحالي .

هذه التعديلات هي ،وسوف تبقى ،موضوع بحث . ونحن اذ نرحّب بمعظمها لا يسعنا ، من جانب آخر ، الاّ ملاحظة الفارق بين وضوح بعض العبارات وبين الممارسة الغامضة في الاسابيع الماضية . إن قطع العلاقات مع كوستاريكا مؤشر واضح ولا شك خصوصاً عندما نتذكر ان لبنان كان قد تفرد عن غيره من العرب في عدد من حالات التصويت في الامم المتحدة . ولكن ماذا عن الأمور الأهم : هل طُلب من اسرائيل ، بأية طريقة ، وكيف ، وضمن اية مهلة اقفال مكتب ضبية ؟ على اية دولة أم على اية منظمة الاتكال للقيام بدور الوسيط في محادثات غير مباشرة مع اسرائيل ؟ هل رفض مبدأ المفاوضات المباشرة بصورة نهائية مع العلم اننا لم نسمع لا في لبنان ولا في البلدان العربية اصواتاً تنتقد لبنان لقيامه بمفاوضات مباشرة مع اسرائيل بين كانون الاول / ديسمبر ١٩٨٢ وأيار / مايو ١٩٨٣ : لماذا التلكؤ في المجال العربي الواسع ؟ ما هي السياسة الجديدة تجاه الولايات المتحدة .. الخ .

لا بد لي من التشديد على أهمية خروج السياسة الخارجية من أقبية الديبلوماسية المدعوة سرية بينما كل جواسيس العالم هم على علم بها ومن دهاليز التصريحات المبهمة التي يحترفها عدد من السياسيين ،. فلا في شطارة مستشاري الامن القومي النشيطين في الظل ولا في الابهام المتعمد في البوح ضمانة نجاح فعلي . ولكن في أعمال الظل التي عودنا الحكم عليها حتى ايام قليلة ،والابهام الذي يبدو ان وزارة الخارجية قد عادت اليه ، مسّ حقيقي باللعبة الديمقراطية . إننا كمواطنين نريد ،ومن حقنا، أن نعرف بصورة اوضح، الى اين قادة هذا البلد به سائرون . وأملي الأدنى انهم أنفسهم يعرفون □

دور المشروعـــات المشتركـــة فـــي التكامـــل الاقتصـــادي العربـــي

د . اليـاس غنطوس

الامين العام المساعد لغرف التجارة
والصناعة والزراعة للبلاد العربية

مقدمـــة

لقد بات واضحا ان المشروعات المشتركة فيما بين البلدان العربية تشكل اسلوبا واقعيا وعمليا لبلوغ الأهداف التكاملية القومية التي تسعى اليها هذه البلدان ، والتي تقوم على ترشيد استخدام الموارد المتاحة لديهـا والاستفادة من مـزايا السـوق الواسعـة لخفض اكلاف الانتـاج واستخدام التكنولوجيا المتطورة .

وثمة عاملان رئيسيان ساهما بشكل فعّال خلال العقد الأخير في دفع فكرة المشروعات العربية المشتركة . أولهما ، التجارب التي تمخضت عنها السوق العربية المشتركة (١٩٦٤) ، ومن قبلهـا اتفاقية تسهيل التبادل التجاري وتنظيم تجارة الترانزيت بين الاقطار العربية (١٩٥٣) ؛ اذ تبين من خلال هذه التجارب أن تحرير المبادلات التجارية من القيود الجمركية وغير الجمركية ليس فعّالا او كافيا لزيادة المبادلات والاستفادة من التخصص الانتاجي ، باعتبار ان الهياكل الانتاجية في البلاد العربية على قدر كبير من التشابه ، بخاصة في المجال الصناعي حيث انتهجت هذه البلدان سياسات حمائية لتشجيع قيام العديد من الصناعات الاستهلاكية والوسيطة . وهكذا يلاحظ بأن التجارة العربية البينية لم تختبر زيادة ملموسة خلال العقدين الأخيرين ، في حـين ان التجارة العـربية مـع العالم الخارجي ازدادت اضعافا ، خاصة بعد نشوء الوفرة المالية التي تميزت بها السبعينات .

اما العامل الرئيسي الآخر الذي دفع فكرة المشروعات العـربية المشتـركة ، فهـو وفرة رؤوس الأموال التي تميزت بها بعض البلدان العربية منذ ١٩٧٣ ، مع وجود حاجة ماسة الى رأس المال في البلدان العربية الأخرى . ومما يلاحظ ان هذا الوضع ادى الى قيام تناسق في السياسات الاقتصادية وفي الرغبة في اقامة مشروعات مشتركة على المستوى العربي . فمن ناحية ، قامت البلدان التي لديها وفرة مالية بتخصيص جانب مهم من ارصدتها لأغراض التنمية في البلدان العربيـة الأخرى وذلـك بانشاء الصناديق الانمائية . كما بادرت بالمساهمة في انشاء مؤسسات قومية تعمل في المجال نفسه ،

نخص بالذكر الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي ، والمؤسسة العربية لضمان الاستثمار . ومن ناحية اخرى ، قامت البلدان العربية التي هي بحاجة الى رأس المال ، بانتهاج سياسات انفتاحية لتشجيع انسياب الأموال اليها ، وقام بعضها بتعديل قوانين الاستثمار لديها لاعطاء معاملة تفضيلية للاستثمارات العربية .

وتجدر الاشارة الى ان المشروعات العربية المشتركة لا تزال في بداية عهدها نسبيا ، ولم تتراكم تجاربها بعد . إلا انه يلاحظ على وجه العموم ان هناك رغبة مشتركة في دفع هذه المشروعات وان لم تضع البلدان العربية حتى الآن اطاراً مناسباً لعملها . فالواقع ان المشروعات العربية المشتركة تعمل في ظل تشريعات اقتصادية قطرية تجنح في كثير من الأحوال نحو الانغلاق . ومن هذا المنطلق ، هناك حاجة اكيدة لوضع اطار على المستوى القومي لقيام ونجاح المشروعات المشتركة وتأمين استمرار اعمالها والدور المناط بها في عملية التكامل الاقتصادي العربي . وفي محاولة لرسم اطار من هذا النوع ، سنتعرض ولو بايجاز كلي الى مفهوم المشروع المشترك وكيفية تطبيقه على المستوى القومي ، ومن ثم القاء نظرة مشارفة على المشروعات العربية المشتركة مع محاولة تصنيفها ، واستعراض المشاكل الرئيسية التي تواجهها .

أولاً : مفهوم المشروع المشترك

ليس هناك تعريف عام ومعتمد للمشروع المشترك ، وإنما هذه التسمية تطلق عادة على أيّ نشاط استثماري مشترك ، يقوم به أطراف من دول مختلفة ، وذلك على اساس صيغة تعاقدية مستمرة زمنيا . ومن هنا فإن فكرة المشروع المشترك بحد ذاتها هي فكرة ايجابية ، من حيث انها تجمع عناصر انتاج من اكثر من بلد واحد وتسعى الى الاستفادة المثلى من الموارد المتاحة ، وبالتالي زيادة الانتاج والعمل في نطاق سوق واسعة .

ان هذه الأمور تجعل من المشروع المشترك صيغة او محوراً للتعاون بين عدد من البلدان التي ترغب في الاستفادة من مواردها واسواقها بصورة مشتركة . وهذا بطبيعة الحال يستوجب تأمين توزيع عادل ومقبول للمنافع والأعباء الناجمة عن المشروع بين البلدان المشاركة فيه . على انه يؤخذ من تجارب البلدان النامية عموما انه في كثير من الأحيان لا يتحقق مثل هذا التوزيع ، مما يؤدي الى عرقلة عمل المشروعات المشتركة وحتى توقفها عن العمل ، ومن ثم انحلالها . ويمكن ارجاع ذلك الى عدة امور رئيسية تتصل بموقع المشروع المشترك ، والنظرة القطرية ازاء المنافع والأعباء الناجمة عن المشروع واختلاف هذه النظرة من بلد الى آخر ، كما تتصل باحتمالات التطور الاقتصادي في البلدان المعنية واثر ذلك على المشروع المشترك لجهة استمرار المساهمة فيه وتوفير الدعم له .

ومن المعروف ان البلدان العربية تتميز بقدر كبير من التكامل في الموارد والأسواق . وهذا مما يجعل المشروعات المشتركة فيما بينها امرا منطقيا ومرغوبا فيه . والواقع ان معظم المشروعات العربية المشتركة تقوم على استغلال ثروات طبيعية متوافرة في بلد واحد او اكثر ، ويوجد طلب كبير على منتجاتها في جميع البلدان العربية . الا ان ثمة ملاحظة اساسية بشأن هذه المشروعات ، وهي انها تقوم اساسا بين مؤسسات تابعة للقطاع العام ، في حين ان القطاع الخاص لم يسجل حتى الآن بروزا كافيا في مجال اقامة مثل هذه المشروعات . ولعل ذلك عائد الى ان المناخ الاستثماري في البلدان العربية ، قبل بروز الوفرة المالية خلال العقد الأخير ، لم يكن مؤاتيا للتعاون على مستوى هذا القطاع . الا ان هناك الآن

رغبة اكيدة في توجيه المزيد من الاستثمارات الخاصة لإقامة المشروعات المشتركة ، مما يزيد من آفاق التعاون والتكامل الاقتصادي العربي . وقد تحققت بالفعل انجازات مهمة ، وما انعقاد مؤتمر رجال الأعمال والمستثمرين الذي ستأتي الاشارة اليه فيما بعد ، الا تعبيرا حيا على ذلك .

ثانياً : نظرة مشارفة على المشروعات العربية المشتركة

يمكن ، تسهيلا للعرض ، تصنيف المشروعات العربية المشتركة في ثلاث مجموعات . فهناك **أولا** ، المشروعات التي تهدف بعامّة الى تقوية حركة التكامل الاقتصادي العربي ، وتشتمل هذه المجموعة اساسا على المشروعات التي بادرت بها جامعة الدول العربية من خلال المجلس الاقتصادي العربي ، والتي بادر بها مجلس الوحدة الاقتصادية العربية . **وثانيا** ، هناك المشروعات المشتركة التي تستهدف التنمية المتكاملة لقطاع انتاجي معين في عدة بلدان ، ومثل هذه المشروعات أقامتها منظمة الأقطار العربية المصدرة للنفط (اوابيك) . كما ان قيام مجلس التعاون لبلدان الخليج العربية يوفر اطارا مؤسسيا لإقامة مشروعات مشتركة من هذا النوع . **وثالثا** ، هناك المشروعات المشتركة التي تستهدف تنمية قطاع معين في بلد ما ، وذلك من ضمن تطلع قومي . ومثل هذه المشروعات تقع اساسا ضمن اهتمامات الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي وغيره من المنظمات العربية .

ومن الواضح ان هذا التصنيف لا يستوعب العديد من المشروعات العربية المشتركة . فهناك مشروعات لا تستهدف بالضرورة التكامل الاقتصادي ، ولكن لها اثر غير مباشر عليه من حيث انها تزيد من الترابط الاقتصادي بين البلدان العربية ، كما انها توفر نموذجا حياً للتعاون . ومن بين هذه المشروعات تلك التي تقام سعيا للربح وتعمل اساسا في المجالات التجارية والخدمات وغيرها . وقد يصعب التعرف على مثل هذه المشروعات بالنظر لطبيعتها الخاصة ، الا انها بلا شك تمثل قطاعا لا يستهان به . وهناك المشروعات المشتركة التي تقام من خلال التفاوض المباشر بين مؤسسات حكومية عامة ومؤسسات خاصة في البلدان العربية ، ومن ابرزها المصارف التجارية والاستثمارية المشتركة التي انشئت خلال السنوات الأخيرة . هذا بالإضافة الى قيام البلدان العربية التي لديها ارصدة مالية وفيرة بالتعاون فيما بينها في الأسواق المالية العالمية على غرار ما هو الحال بالنسبة لعدد من المؤسسات المصرفية العربية ومجموعة التأمين العربية « اريج » ، او بالتعاون تحت مظلة غير عربية كما هو الحال بالنسبة لبعض المصارف العربية الأوروبية المشتركة .

واذا ما ركزنا على المشروعات العربية المشتركة التي اقيمت اساسا بغرض تعزيز التكامل الاقتصادي العربي ، نلاحظ بأن المجلس الاقتصادي العربي بجامعة الدول العربية كان سبّاقا في تشجيع إقامة مثل هذه المشروعات إلا ان معظم المحاولات التي جرت لم تحقق نجاحا كاملا ، باستثناء شركة البوتاس العربية ، اذ كان هناك مشروعات أخرى لاقامة شركة عالمية للطيران وشركة للناقلات وشركة للملاحة البحرية ، وقد تم تحقيق المشروعين الأخيرين خارج اطار المجلس بعد عدة سنوات من بحثهما .

ومن ناحيته ، قام مجلس الوحدة الاقتصادية العربية في عام ١٩٧٣ بتبني فكرة المشروعات المشتركة كأداة لمسارعة عملية التكامل الاقتصادي . وتجدر الإشارة الى ان المجلس افسح المجال امام الاقطار العربية غير الأعضاء في اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية للانضمام الى المشروعات المشتركة التي اقامها . وأعطى المجلس افضلية في تأسيس المشروعات المشتركة لتلك التي : (١) ترتكز على

استغلال موارد طبيعية متوافرة في البلدان العربية ، (٢) تساهم في رفع مستوى معيشة المواطن العربي ، (٣) تنمي الصناعات الأساسية ، (٤) تزيد انتاج المواد الغذائية ، (٥) تزيد التجارة العربية البينية والصادرات الى الخارج . وقد تم بالفعل انشاء أربع شركات (مشروعات) مشتركة يبلغ مجموع رؤوس اموالها حوالى ١٥٠٠ مليون دولار امريكي ، وتتناول اربعة مجالات استراتيجية للتعاون وهي : التعدين (باستثناء النفط) ، الانتاج الغذائي ، صناعة الأدوية والمستلزمات الطبية ، والسلع الهندسية .

وقام مجلس الوحدة الاقتصادية العربية في الوقت نفسه ، وبالتعاون مع مركز التنمية الصناعية للدول العربية (الذي اصبح الآن « المنظمة العربية للتنمية الصناعية ») ، بانشاء عدد كبير من الاتحادات النوعية التي تهدف الى ايجاد تعاون بين اعضائها وخاصة في المجالات الفنية والتدريب والبحوث العلمية ، كما أنها تسعى الى تشجيع قيام المشروعات المشتركة في مجالات اختصاصها .

اما بالنسبة للمشروعات العربية المشتركة التي تستهدف تنمية قطاع معيّن في عدد من البلدان على أساس متكامل ، فيلاحظ بأن « أوابيك » كانت اكثر المؤسسات اهتماما بها . وقد تم بالفعل انشاء خمسة مشروعات مشتركة بين اعضاء هذه المنظمة ، تتناول النقل البحري للنفط ، وبناء وتصليح السفن ، والاستثمارات النفطية والخدمات الانتاجية ، والاستشارات الهندسية في المجال النفطي . ومن المفيد الاشارة إلى أن أوابيك اعتمدت في انشائها لهذه المشروعات مجموعة من القواعد الأساسية تقضي بتوفير المرونة في انشاء المشروعات ، وإعطائها الاستقلالية في الادارة والتنفيذ . وبالرغم من ان هذه المشروعات لا زالت في بداية عهدها الا انها تمثل انجازا طيبا في سبيل ترشيد الامكانيات الطبيعية والمالية للدول الأعضاء ، خاصة وانها تتناول مجالات واسعة من الأنشطة النفطية وغيرها من الأنشطة .

وفي الاطار نفسه فإن انشاء مجلس التعاون لدول الخليج العربية يوفر اطارا جديدا لتشجيع اقامة المشروعات المشتركة التي تستهدف التنمية المتكاملة . فلقد نصت الاتفاقية الاقتصادية الموحدة المعقودة عام ١٩٨١ في اطار هذا المجلس ، نصّت على أن تعمل الدول الأعضاء على تشجيع المبادرات الفردية او الخاصة لإقامة المشروعات المشتركة باعتبارها وسيلة فعالة في ربط المصالح بين مواطنيها . كما أن الاتفاقية تنص على ضرورة تنسيق البرامج الانمائية بين الدول الأعضاء ، وبالتالي توزيع الصناعات فيما بينها حسب الميزة النسبية . ولهذا الغرض اكدت الاتفاقية على أهمية اقامة مشروعات مشتركة في مجالات الصناعة والزراعة والخدمات .

ولا بد من التّنويه هنا بالدور الرائد الذي تقوم به منظمة الخليج للاستشارات الصناعية في مجال التعرف على فرص إقامة مشروعات مشتركة ، وتعزيز التعاون الصناعي والفني بين الدول الأعضاء ، وتقويم المشروعات الصناعية . وقد نجحت هذه المنظمة في دفع عدد من المشروعات المشتركة الى حيز الوجود ، يذكر من بينها شركة الخليج للصناعات البتروكيماوية ، وشركة الخليج للألمنيوم . ويذكر أيضا أن هناك عدة مشروعات مشتركة خليجية سبق ان أسست في مجالات حيوية ، يذكر من أهمها شركة طيران الخليج ، وشركة الملاحة العربية المتحدة ، وبنك الخليج الدولي . وتؤكد هذه المشروعات رغبة الأقطار العربية الخليجية في تجنب الازدواج في الاستثمار وهدر الطاقات ، والاستفادة من اقتصاديات الحجم .

واما بالنسبة للمشروعات العربية المشتركة التي تستهدف تنمية قطاع او صناعة ما في بلد معين

وذلك من ضمن تطلع قومي ، فإن الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي يقوم بدور مهم في هذا المجال . وثمة اولويات يعتمدها الصندوق في اختياره للمشروعات العربية المشتركة التي يساهم بتمويلها ، وهذه تتناول تنمية الهياكل الأساسية من طرق ومواصلات وكهرباء وموانىء ، وتنمية الموارد الطبيعية في المناطق التي تهم قطرين او اكثر ، والتي يمكن تنميتها بصورة مشتركة ، وتوسيع وتعميق القاعدة الصناعية عن طريق تنمية الصناعات الهندسية والصناعات المتقدمة تكنولوجياً ، وتنمية الطاقة الانتاجية في مجال الزراعة والغذاء على المستوى القومي ، وتطوير وتدعيم مؤسسات التدريب والبحث العلمي . وقد قام الصندوق بتمويل العديد من المشروعات العربية ، بخاصة في مجالات المواصلات والطرق والري وغيرها . إلا ان ابرز انجاز له هو انشاء الهيئة العربية للانماء والاستثمار الزراعي كمؤسسة عربية جماعية لتنمية القطاع الزراعي في السودان وفقا للاحتياجات العربية وبما يؤمن اكتفاء ذاتياً على المستوى العربي في عدد من المنتجات الزراعية .

وهناك أيضاً الشركة العربية للاستثمار التي انشئت في عام ١٩٧٤ كشركة مساهمة بين عدد من الحكومات العربية ، والتي تسعى الى الترويج والمشاركة في تأسيس المشروعات الانتاجية في البلدان العربية ، شريطة التثبت من الجدوى التجارية والاقتصادية للمشروعات، فضلا عن التأكد من اتباع الأسس التجارية والمالية السليمة كمعيار للانتقاء والتقويم. كما تسعى الشركة الى المشاركة في التمويل عن طريق الإقراض و/أو المساهمة المباشرة في رأس المال الأسهُمي للمشروعات. ومن أبرز الأعمال التي قامت بها هذه الشركة المساهمة في مشروع سكر كتانة في السودان ، وفي رأسمال الشركة العربية للتعدين ، والشركة العربية لتنمية الثروة الحيوانية .

الى جانب كل ما تقدم من مشروعات مشتركة بادرت بها اساسا الحكومات العربية ، لا بد من القاء بعض الضوء على تجربة الاتحاد العام لغرف التجارة والصناعة والزراعة للبلاد العربية في اقامة مشروعات مشتركة باعتبار انها تجربة رائدة في مجال القطاع الخاص . ومما يذكر ان هذا الاتحاد سعى في مطلع الستينات من اجل اقامة شركة عربية اهلية للاستثمار يكون غرضها الأساسي تجميع الادخارات العربية بغية توظيفها في استثمارات طويلة الأجل ، الا ان الجو الاستثماري العام آنئذٍ لم يكن مؤاتيا للقطاع الخاص ، مما ادى الى تأجيل تنفيذ هذه الفكرة . وفي عام ١٩٧٩ نجح الاتحاد في تأسيس الشركة العربية للاستثمارات العامة (شعاع) ، التي اتخذت من دبي مقرا لها . وتم التأسيس بموجب المرسوم الأميري رقم (٦) لسنة ١٩٧٩ الذي اعطى الشركة وضعا خاصا تعفى بموجبه من الرسوم والضرائب المحلية كافة ، ومن اي التزام يتعلق بتوظيف او استخدام نسبة معينة من مواطني مركز الشركة ، ومن اي قيد مهما كان على حرية تداول اسهم الشركة او حصر هذا التداول بمواطني المركز الرئيسي فضلا عن الضمان ضد اخطار التأميم وغير ذلك من التسهيلات .

وتعتبر هذه الشركة ، التي يبلغ رأسمالها المصرح به ٧٠٠ مليون درهم (الإمارات العربية المتحدة) ، كشركة رائدة وتجربة فريدة في الوطن العربي ، من حيث انها نجحت في طرح اسهمها في عشرة اقطار عربية . وينص نظامها الأساسي على ان من بين اهدافها التعرف على الفرص وانتقاء المشاريع للاستثمار في مجالات الصناعة والزراعة والعقار والسياحة والمال والمصارف والخدمات بعد دراسة جدواها الاقتصادية . وتقوم الشركة بالتمويل المباشر (المساهمة في رأس المال) مع غيرها سواء من القطاع العام او الخاص والشركات والمؤسسات المشتركة ، وتنفذ المشروعات مباشرة بواسطة

شركات تابعة لها تؤسس خصيصا لهذه الغاية .

وشعوراً منه بضرورة إيجاد اطار مؤسسي عريض القاعدة لتحرك رجال الأعمال والمستثمرين العرب في سبيل تعزيز التنمية الاقتصادية العربية وتوفير منبر للحوار بين القطاعين العام والخاص في مجالات الاستثمار ، بادر اتحاد الغرف العربية بالتعاون مع جامعة الدول العربية والمؤسسة العربية لضمان الاستثمار بالدعوة الى مؤتمر رجال الأعمال والمستثمرين العرب . وقد عقدت الدورة الأولى لهذا المؤتمر في مدينة الطائف بالمملكة العربية السعودية من ٣٠ آذار / مارس ـ ١ نيسان / ابريل ١٩٨٢ والدورة الثانية في مدينة الدار البيضاء بالمملكة المغربية من ٣١ تشرين الاول / اكتوبر ـ ٣ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٣ . ويمكن القول بأن هذا المؤتمر نجح نجاحا باهرا من حيث انه استقطب في كل من دورتيه لا اقل من ستمائة رجل اعمال ومستثمر ، وصدرت عنه قرارات بتأسيس عدة شركات عربية مشتركة للعمل في مجالات حيوية .

وتجدر الاشارة الى انه قد اعلن في المؤتمر الأخير عن تأسيس شركة عربية للاستثمار الزراعي برأسمال مقداره مليار دولار اميركي ، على ان تتخذ الشركة شكل مساهمة بحرانية معفاة (أوفشور) ، ويكون مقرها في البحرين . والغرض الأساسي من هذه الشركة المساهمة في التنمية الزراعية تحقيقاً للأمن الغذائي العربي . وتقرر ان تكون لهذه الشركة قاعدة عريضة ، وذلك بإشراك قطاعات كبيرة من مواطني البلدان العربية في رأسمالها . وقد تم اثناء انعقاد المؤتمر اول اجتماع للمؤسسين من مختلف البلدان العربية ، حيث تم تحديد رأس المال المكتتب به بمبلغ ٢٥٠ مليون دولار اميركي ، موزعة على مليون ونصف المليون من الأسهم بقيمة اسمية للسهم مقدارها ١٠٠ دولار . كما تم اختيار لجنة تأسيسية لمباشرة الإجراءات الخاصة بالتأسيس وتسجيل الشركة ودعوة الجمعية التأسيسية .

كذلك قرر المؤتمر الأخير الدعوة الى انشاء شركة عربية للاستثمارات السمكية تتولى مسؤولية تنفيذ مشاريع في مجالات صيد الأسماك وتصنيعها وتسويقها على مستوى الوطن العربي ، وتقرر أن يكون رأسمالها في حدود ١٠٠ مليون دولار ، وان يكون مقر هذه الشركة في المملكة المغربية . ووافق عدد من رجال الاعمال والمستثمرين العرب على الاشتراك بنسبة ٢٠ بالمائة من رأس المال المصرح به ، وفوض الاتحاد العربي لمنتجي الأسماك صلاحية اتخاذ الاجراءات التمهيدية لتأسيس الشركة .

وقرر المؤتمر ايضا إقامة شركة عربية كبرى لصناعة المحركات والجرارات والشاحنات ، على ان تبدأ هذه الشركة بإنتاج القطع بعد دراسة حاجات البلدان العربية . وبالامكان ان تتعاقد هذه الشركة مع خطوط التجميع الحالية على أن تجمع القطع التي تنتجها وتوجه تسويقها الى الأسواق المحلية بالدرجة الأولى ، مع تسويق الانتاج الفائض ، او الذي تعجز الأسواق المحلية مرحلياً عن استيعابه ، الى الخارج .

وهكذا نرى أن مؤتمر رجال الأعمال والمستثمرين العرب قد استطاع منذ البداية التوجه نحو المجالات الحيوية والاستراتيجية التي تخدم قضايا التنمية والتكامل والأمن الاقتصادي العربي . ولا شك بأن ما انجز حتى الآن ينعكس ايجابا على الدور الذي يمكن ان يلعبه رجال الأعمال العرب في بناء المستقبل الاقتصادي العربي . واستطاع المؤتمر يخلق حواراً بنّاء وعمليا بين رجال الأعمال والحكومات العربية وذلك من خلال دعوة عدد من الوزراء والمسؤولين العرب للمشاركة في المؤتمر ، والتحدث عن مجالات الاستثمار الرحبة التي تتوافر في بلدانهم . وقد استُعرضتْ في دورتي المؤتمر المجالات

الاستثمارية في كل من الأردن ، اليمن ، تونس ، السودان ، جيبوتي ، الصومال ، المغرب ، سوريا ، سلطنة عُمان وموريتانيا .

ثالثاً : المشاكل التي تواجه المشروعات العربية المشتركة

ليس من السهل تقويم اعمال وتجارب المشروعات العربية المشتركة ، نظراً لحداثة معظم هذه المشروعات من ناحية ، وعدم توافر معلومات تفصيلية عنها من ناحية اخرى . الا انه يمكن القول بأن هذه المشروعات تعمل عموما في ظل سياسات اقتصادية قُطرية ، مما يحد كثيراً من امكانيات تحركها وقيامها بأعمالها على الوجه المطلوب . او بعبارة اخرى ان المشكلة الرئيسية التي تواجه المشروعات العربية المشتركة هي عدم وجود إطار مناسب لها على المستوى القومي . ويمكن تحديداً إبراز بعض العناصر التي تعيق اعمال المشروعات المشتركة .

ففي جانب الطلب ، يلاحظ بأن الأسواق العربية تعاني تفتتاً بسبب وجود عوائق جمركية وغير جمركية . فالبلدان العربية غير النفطية تنتهج في الغالب سياسات حمائية من اجل تسريع انمائها الصناعي . وتظهر تجربة السوق العربية المشتركة مدى الصعوبات التي تكتنف تحرير المبادلات . وحتى بالنسبة للبلدان العربية غير النفطية التي لا تنتهج مثل هذه السياسات الحمائية ، قد يصعب التصدير اليها احيانا بالنظر للمنافسة من السلع الأجنبية . وهذا يعني ان البلدان العربية لم تتمكن حتى الآن من اعتماد اي نظام تفضيلي للتجارة بينها ، يمكن ان تعمل من خلاله المشروعات العربية المشتركة .

اما في جانب العرض ، فيلاحظ بأن الأسواق المالية العربية لا تزال في بداية تكوينها ، والترابط فيما بينها محدود جداً . والواقع ان القسم الأكبر من انسياب الأموال بين البلدان العربية يتكون من أموال عامة على شكل قروض ومساعدات ، فضلاً عن الاستثمارات العامة في المشروعات العربية المشتركة والتي تشكل جزءا ضئيلا من مجموع الانسيابات . الا ان ذلك يجب ألَّا يحجب الانجازات التي تمت على الصعيد القومي من اجل تحقيق انسياب افضل للأموال وعلى الأخص الأموال الخاصة ، ومن أبرزها قيام المؤسسة العربية لضمان الاستثمار التي تسعى الى تحسين الجو الاستثماري من خلال التأمين ضد الأخطار غير التجارية ، وكذلك « الاتفاقية الموحدة لاستثمار رؤوس الأموال العربية في الدول العربية » التي تسعى الى تهيئة المناخ الاستثماري لتأمين انسياب الأموال واستثمارها في القطاعات الاقتصادية المتاحة لها ، وتوفر في الواقع حداً ادنى في معاملة رؤوس الأموال والاستثمارات العربية لا يجوز النزول عنه سواء في اطار العمل الاقتصادي العربي المشترك او على المستوى العربي الثنائي او في نطاق التشريعات المحلية . وفي جانب العَرض ايضا يلاحظ عدم وجود اطار قومي لتأمين انتقال العمال ، مما يخلق في كثير من الأحيان نقصاً في الأيدي العاملة ويرفع مستويات الأجور . وإلى جانب ذلك تعاني المشروعات المشتركة في بعض البلدان العربية من ضعف البنيات الاساسية ، مما يزيد في اكلاف هذه المشروعات ، وبالتالي يقلل من امكانياتها على المنافسة .

رابعاً : نحو اطار قومي للمشروعات المشتركة

يبدو مما تقدم ان المشروعات المشتركة تبرز أكثر فأكثر كقوة دافعة للتنمية الاقتصادية والجهود التكاملية العربية ، باعتبارها افضل صيغة للاستفادة من التكامل الفريد في الموارد والأسواق بين البلدان العربية . فالمشروعات المشتركة تمكن من اقامة وحدات انتاجية كبيرة تستطيع الاستفادة من

مزايا الانتاج الواسع والتكنولوجيا المتطورة ، كما انها فعالة في زيادة الروابط الاقتصادية بين البلدان العربية من خلال تحريك انتقال عناصر الانتاج وتـأمين الاستفـادة المثلى منهـا ، فضلاً عن زيـادة المبادلات التجارية العربية .

ومع ان المشروعات العربية المشتركة القائمة حاليا قد سجلت نجاحا ، الا ان توفر اطار قومي مستقر ومناسب لها من شأنه ان يزيد من فعالية هذه المشروعات ويجعلها اكثر انطـلاقا في تحقيق أهداف التكامل الاقتصادي ، فضلا عن المساهمة في التنمية القطرية . كما ان ايجاد مثل هذا الاطار يؤمن للمشروعات العربية المشتركة مناخا يبعدها عن المؤثـرات غير الاقتصـادية ، علمـاً بأن هـذه المشروعات قد اظهرت في الماضي مقدرة في التغلب على مثل هذه المؤثرات .

ولعل من ابرز العناصر التي يجب توافرها في مثل هذا الاطار الصيغة القانونية التي يجب ان تتخذها المشروعات المشتركة . فمع ان معظم قوانـين وانظمة الاستثمـار في البلاد العـربية تـرحب بالاستثمارات من الخارج ، الا انها لا تتضمن في كثير من الأحيان الاشكال القانونية التي يمكن ان تتخذها المشروعات المشتركة . والواقع ان معظم المشروعات العربية المشتركة التي تم تأسيسها حتى الآن نجمت من اتفاقيات حكومية . الا ان هذه الصيغة يصعب تطبيقها في حالة المشروعات المشتركة المنبثقة عن القطاع الخاص ، مما يستوجب اتخاذ مثل هذه المشروعات شكل الشركة المحلية ، ما لم يصدر قانون خاص بانشائها واعطائها وضعا مميزا على غرار ما حصل بالنسبـة للشركـة العربيـة للاستثمارات العامة (شعاع) . فالقوانين المحلية ، عادة ، تضع قيودا على المساهمة غير المحلية في رأسمال الشركات وتداول اسهمها ، كما انها تضع قيودا بالنسبة لتشكيل مجالس الادارة لجهة جنسية الأعضاء فضلا عن غير ذلك من الأمور التي تتصل بتنظيم الادارة والمحاسبة .

وقد سبق أن تم التداول على المستوى العربي بشأن صيغة لتلافي مثل هذا الوضع . واقتُرح اعطاء المشروعات المشتركة الهوية او الجنسية العربية ، على ان يتم ذلك بموجب اتفاقية جماعية عربية تعقد لهذا الغرض ، وتحدد هذه الاتفاقية الوضع القانوني للمشروعات العربية والأسس التي يجب ان تبنى عليها اداريا وماليا . واستكمالا لذلك اقتُرح ان تمنح المشروعات العربيـة المشتركـة معاملـة تفضيلية بالنسبة لتسويق منتجاتها في الأسواق العربية ، فضلا عن تأمين حرية تداول اسهمها بين المواطنين العرب والاعفاء من الضرائب والرسوم .

وانطلاقا من النظرة بأن اي مشروع مشترك لكي ينجح ويستمر لا بد من ان تنسجم اهدافه مع الأهداف الاقتصادية العامة في البلد او البلدان التي يعمل فيها ، فان الاطـار القومي للمشـروعات المشتركة يجب ان يوفر وضوحا بالنسبة لاستراتيجيات وسياسات التنمية في البلدان العربية ، بحيث تكون هذه المشروعات في الواقع منبثقة من تصور عربي عام مرتبط بالتطلعات الانمائية الطويلة المدى . ولا شك في ان للمنظمات الرسمية والمؤسسات الاقتصادية العربية دوراً اساسياً في وضع مثل هذا التصور والذي يمكن ان يبنى على اساس الخطة القومية الانمائية التي تضعها جامعة الدول العربية . وبالمقابل لا بد للمشروعات المشتركة من ان تعمل بعد قيامها على ايجاد ترابطات مع المحيط الذي تعمل فيه بحيث تعزز مكانتها وتساهم في البرامج التدريبية ونقل واستيعـاب التكنولـوجيا وغـير ذلك من الجوانب المتصلة بالتنمية ، بحيث تصبح متفاعلة مع هذا المحيط بما يفيده ويفيدها .

ومن ضمن متطلبات الاطار القومي لانطلاق المشروعات العـربية المشتـركة ، لا بـد من قيام المنظمات والمؤسسات العاملة في مجال العمل الاقتصـادي المشترك بـالمساعـدة في اعداد دراسـات

الجدوى الاقتصادية والفنية للمشروعات العربية المشتركة وترويجها بخاصة لدى القطاع الخاص ، وكذلك قيام هذه المنظمات والمؤسسات بالتنسيق بين المشروعات المشتركة والقطرية توخياً لترشيد استخدام الموارد ، وتجنب هدر الموارد والمنافسة غير المشروعة . ويذكر هنا بأن المشروعات العربية المشتركة القائمة حاليا ليس بينها روابط تساعد على الدعم المتبادل ، فمثلا المشروعات المشتركة الإنتاجية لا تستفيد من الامكانيات المالية المتاحة لدى المشروعات المشتركة المالية ، بل نرى في كثير من الأحيان التمويل يأتي من مصادر اخرى . وكذلك لا يوجد اي تنسيق او تعاون بين المشروعات المشتركة في مجال التسويق او البحوث والدراسات تلافيا للازدواج في الجهد .

تبقى الاشارة اخيرا الى ان نجاح المشروعات العربية المشتركة وتطوير اعمالها يتطلب بالاضافة الى الاطار القومي المناسب ، أن تكون هذه المشروعات مبنية على الثقة والمصلحة المتبادلة بين الأطراف المعنية ، والإقرار من جانب كل طرف بمصالح الأطراف الأخرى . وهذا يستوجب ان تكون أهداف الأطراف المشاركة في المشروع واضحة ومحددة منذ البداية □

العلاقات الخارجية في عصر النبوة والدولة الاسلامية الأولى

د . اسماعيل سرور شلش

باحث اجتماعي له عدة مؤلفات منشورة
ودراسات سياسية وقانونية واجتماعية .

أولاً : قيام الاسلام

يذكر الله عربية القرآن في أكثر من عشرة مواضع في كتابه الكريم مثل قوله تعالى ﴿ وإنه لتنزيل ربِّ العالمين . نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين ﴾ [1] وقد نزل الوحي على النبي عليه الصلاة والسلام في بيئة معينة هي شبه الجزيرة العربية . ولم تكن هذه البيئة في غنى مناطق الاستقرار الرئيسية حولها : فارس في الشمال الشرقي ، والروم في الشمال الغربي . ولم يكن العرب الذين حملوا أمانة هذا الدين في أول أمره ، يقربون من عشر السكان المتحضرين المستقرين حولهم . وتصغر هذه النسبة ـ عملياً ـ إذا أخذنا في اعتبارنا فرص الحياة المتاحة للأفراد : ففي فارس والروم كانت هناك فرص واسعة في الزراعة والصناعة والتقدم المادي وقت السلم . وكانت هناك العدة والسلاح والدواب وقت الحرب . هذا إذا أخرجنا من حسابنا ـ مؤقتا ـ قوة الإيمان ، وكان لها أثرها العميق في قلب موازين المعارك التي دارت بين العرب ودولتي الفرس والرومان .

وفي شبه جزيرة العرب لم يأت الإسلام من أطرافها الجنوبية حيث قامت في اليمن الحضارات المعينية والسبئية ، وانشئت السدود ومشروعات الري والتخزين . كذلك لم يأت من البوادي حيث الرعاة المتنقلون ، ولا من دول الحدود في الشمال الشرقي حيث كان يحيا المناذرة ، وفي الشمال الغربي حيث الغساسنة ، على أطراف دولتي الفرس والرومان .

كذلك لم ينزل في مناطق الحضارات المستقرة القديمة في آسيا الموسمية : الهند ، والهند الصينية ، واليابان ، ولا في المناطق الرعوية في وسط آسيا ، أو صحاري شمال إفريقية .

وكانت عشيرة النبي وهي التي كلفه الله إنذارها أول الأمر ـ تحس أمورا تحتاج الى شرح في أمر الرسالة والرسول :

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الشعراء : الآيات ١٩٢ ـ ١٩٥ .

أ ـ فقد حاولوا أن يربطوا بين الرسالة والغنى المادي ، وخاطبوا النبي قائلين : « قد علمت انه ليس احد من الناس أضيق منا بلاداً ، ولا أقل مالا ، ولا أشد عيشا منا ، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير لنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق » [٢]. وفي هذا نزل **قوله تعالى ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا﴾** [٣]. وأخذوا يعددون مطالبهم، فما كان من رد النبي إلا ما قصه الله ﴿ **قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا** ﴾ [٤] .

ب ـ وكان النضر بن الحارث ممن ناصبوا النبي العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها احاديث ملوك الفرس . فكان إذا جلس رسول الله (صلعم) مجلساً فذكر فيه بالله ، خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال : « انا والله يا معشر قريش احسن حديثاً منه ، فهلم إليّ فأنا احدثكم احسن من حديثه » ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار [٥]. وفيه نزل قوله الله فيهما ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الاولين ﴾[٦] .

فالعرب كانوا يعرفون غنى فارس والروم وما فيها من أنهار ، ويعرفون بعض أخبار حضاراتها القديمة ، ومن عاش فيهما من الملوك والقادة ، حتى رأى بعض كبار قريش في قصص فارس ما قد يصرف الناس عن الاستماع إلى القرآن .

ثم لما اشتد ضغط قريش على المسلمين ، قال النبي لأصحابه : « لو خرجتم الى الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده احد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما انتم فيه »[٧]،فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة فراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام . والذي يستوقف النظر من الناحية الجغرافية الخالصة ، أن النبي لم يهاجر الى الحبشة مع أنه دعا أصحابه إلى ذلك ، وكانت السبيل مفتوحة أمامه . ولو كان هدف الهجرة مجرد الفرار من الظلم ، لكان من المحتمل أن يهاجر النبي مع أصحابه إلى الحبشة ، ولكنه لم يفعل . وظل في مكة يحتمل الأذى والاضطهاد ويعرض نفسه على القبائل ، حتى استجاب له الأوس والخزرج ، فكانت هجرته إلى المدينة ، وهي هجرة داخلية في الجزيرة العربية .

هل نستنتج من هذا بأن شبه الجزيرة العربية كانت مقصودة لتكون مهداً للإسلام ،ومن أجل هذا لم يهاجر النبي خارجها مع توافر فرصة الهجرة الى الحبشة ، وظل في مكة حتى كانت هجرة المدينة فأصبحت قاعدة انتشر منها الإسلام إلى شمال الجزيرة العربية ، حيث تشعبت مسالك الفتح في أرض الروم والفرس ، وإلى الجنوب فوق أمواج المحيط الهندي يحمله عرب الجنوب ، فكانت سفنهم بهذا تقابل إبل عرب الشمال في نشر الدعوة الإسلامية ؟

---

(٢) ابو الفداء اسماعيل بن عمر ابن كثير ، **تفسير الحافظ ابن كثير** (القاهرة : المطبعة التجارية ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨م) ، ج٣ ، ص ٦٣ .

(٣) **القرآن الكريم** ، سورة الاسراء ، الآيتان : ٩٠ و٩١ .

(٤) المصدر نفسه ، سورة الاسراء ، الآية : ٩٣ .

(٥) ابو محمد عبدالملك ابن هشام ، **السيرة النبوية لابن هشام** ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي ، ٤ ج (القاهرة : البابي الحلبي ، ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦م) ، ج ١ ، ص ٣٢١ .

(٦) **القرآن الكريم** ، سورة القلم : الآية ١٥ .

(٧) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٤ .

لا بد ـ إذا أخذنا بهذا ـ من مميزات جعلت أرض العرب مهدا لخاتم الأنبياء والأديان ؛ مهداً ضم الإسلام في المرحلة الأولى من مراحل نموه ، وظلت المدينة فيه قاعدة في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، ثم انتقلت الى الكوفة في عهد علي ، وعندئذ ظلت قروناً تنتقل بين دمشق وبغداد والقاهرة ، وبقيت للجزيرة العربية منزلتها العميقة في تاريخ الإسلام وشعائره ، فكأن الإسلام بذلك زرع مبارك ألقيت بذرته في مكة ، ثم نقلت إلى المدينة حيث أخرج الزرع شطأه واستغلظ واستوى على سوقه ، وامتدت فروعه الباسقة لتظل الأرض بين المحيطات الثلاثة الأطلسي ، والهادي ، والهندي وغرست بعض بذورها في العالم الجديد وفي أستراليا .

وصفوة القول : ان الأرض التي نزل فيها الوحي لم يبرحها النبي مهاجراً إلى غيرها ، وإن بارحها في طفولته مع قوافل التجارة ، وأن القوم الذين وجه إليهم خطابه كانوا أول من دُعي إلى الحق الذي جاء به . والأرض والإنسان هما العنصران الرئيسيان في أية دراسة جغرافية ، وحيث يجتمعان تبدو على وجه الأرض ملامحه المعبرة (٨) .

ومنهجنا لدراسة هذا البحث للإحاطة الدقيقة بكل الأسباب التي جعلت من الجزيرة العربية مهدا للإسلام وقت ظهوره ، مطلب قد يكون متعذر المنال . ويرجع هذا إلى أسباب متعددة من أهمها : حاجتنا إلى مصادر متنوعة متكاملة عن المقومات الطبيعية والبشرية لهذه البيئة ، والبيئات الأخرى التي كانت مهداً للأديان الكبرى كالمسيحية في إمبراطورية الروم ، والزرادشتية في فارس ، والهندوكية ، والبوذية ، والشننوية الكنفوشيوسية في المشرق الأقصى . ومع أن الابحاث الأركيولوجية والانثروبولوجية ـ وهي المتعلقة بالآثار والسلالات ـ تكشف كل يوم جديداً ، إلا أنه ما زالت هناك مناطق ـ في البيئات عامة والبيئة العربية خاصة ـ بحاجة الى جهود علمية ضخمة لتوضيح خصائصها ، وإلقاء أضواء جديدة على جغرافية الإسلام .

وعوامل الدراسة الجغرافية متطورة . وبعضها أكثر ثباتا واستقراراً من البعض الآخر . فالموقع في حد ذاته ثابت ، ولكن تتطور أهميته النسبية مع تطور البيئة التي نعنى بدراستها ، والبيئات الأخرى ذات العلاقة بها . فمركز الثقل الاقتصادي في الجزيرة العربية كان في الحجاز ، وهو ديني الطابع . ومرت قرون ثم برزت أهمية شواطىء الخليج العربي بعد اكتشاف النفط في العصر الحديث . وأصبح هناك اقتصاد مزدوج : نفطي في الشرق ، له ـ مهما طال ـ صفة مؤقتة ، وديني في الغرب له صفة البقاء . وبرزت أهمية المناطق التي تمر بها أنابيب النفط في الشمال . وأثر هذا على توزيعات السكان ومدى استقراراهم ، ونوع الحرفة التي يمارسونها وسلطة الحكومة على القبائل ، وتطور طرق المواصلات والثقافة من حيث المستوى والتنوع ، ومستوى الدخل القومي ، والتجارة الخارجية والتطور العمراني (٩) . وقبل الإسلام كان لهذا الاقتصاد طابعه الديني المحلي الذي لا يتعدى القبائل العربية فضلاً عن الوساطة التجارية بين الشمال والجنوب .

ومن أهم المزالق التي يتعرض لها الباحث في مثل هذا الموضوع أن يختار من الحقائق التاريخية وما يتفق مع وجهة نظره الخاصة . وقد اشار « هنتنجتون » عند دراسته العلاقة بين التاريخ والجغرافيا إلى هذا الخطر ، ودعا الباحث الى العناية بالدراسة الإقليمية التفصيلية التي توضح

---

(٨) Creasy, *Asia's Lands and Peoples* (New York: McGraw - Hill, 1951).

(٩) Weigert [et al.], *Principles of Political Geography* (New York: Appleton Century, 1956), pp. 204 - 205.

المميزات الخاصة للأقاليم التي يتناولها البحث ، وأن يحدد القطاع الزمني الذي يدرس عنده تفاعل الظاهرات الجغرافية ، وبخاصة العلاقات المكانية[١٠] . هذا القطاع الزمني إذا كان في الحاضر ، كانت دراستنا في نطاق الجغرافيا بمدلولها العام . وإذا كانت دراستنا في الماضي داخلة في نطاق الجغرافية التاريخية ، وهي ليست فرعاً من فروع الجغرافيا ، كالجغرافية الاقتصادية أو السياسية ، وإنما هي جغرافيا كاملة قائمة بنفسها لها كل هذه الفروع ، وتعنى بتفاعل الظاهرات عند قطاع زمني معين . وعلى هذا الاساس يلاحظ (هتنر) أن الجغرافيا التاريخية لأي إقليم ممكنة لأي عصر من عصوره على حدة . أي أنه ليست هناك جغرافيا تاريخية واحدة ، وإنما هناك جغرافيات تاريخية متعددة .

نعود ونقرر أن هذا البحث ليس فيه حتم جغرافي يعتبر قيام الإسلام في هذه البيئة نتيجة لازمة لعوامل طبيعية وتسوية خاصة ، ويربط بينها وبينه ربط العلة بالمعلول ، وإنما هو محاولة لدراسة المقدمات الجغرافية والتاريخية لهذه البيئة وقت ظهور الإسلام وعلاقتها بقيامه وانتشاره لتكون مدخلاً صالحاً لموضوع دراستنا الأصيلة .

وقد يطيب لبعض الباحثين أن يغمطوا هذه المقدمات حقها ويحاولواتصوير البيئة الجغرافية في الجزيرة العربية وقت ظهور الاسلام كأنها كانت في الحضيض ، ويسلبوها كل مميزاتها الطبيعية والبشرية ليبرهنوا ـ بعد هذا ـ على عبقرية الإسلام الذي أخرج من أدنى البيئات أرقى الحضارات . وهو اتجاه يقترب كثيراً من اتجاهات الشعوبية القديمة ، إن لم يطابقها[١١] . وليس من الانصاف في شيء أن المنهج وهو في ذاته متهافت لا يتماسك أمام النقد ، ويكفي أن نذكر فيه كيف اختار الله نبيه من صفوة البشر وأعرق القبائل والبيوت ، وبعثه من جوار أول بيت وضع للناس . ولو صح منهج القائلين بذلك القول ـ وهو غير صحيح ـ لكان الأولى أن يأتي الرسول غير متمتع بهذه المزايا ، ولا منحدر من هذه الأصول الطاهرة لتكون المعجزة أتم وأشمل !

ليس معنى هذا أن الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام كانت خالية من بعض نواحي الضعف . فلم يحدث في أي عصر من العصور مهما كانت درجة رقيه أن خلا العالم من الشر والصراع بينه وبين الخير . والموقف المتزن ـ فيما أحس ـ هو أن نعرض الحقائق عرضاً موضوعياً ، ثم نحاول أن ندرس تفاعلها إيجاباً وسلباً وقت ظهور الإسلام .

ثانياً : الدول المحيطة بالجزيرة العربية والدولة في عصر النبوة الاسلامية الأولى

اذا درسنا الدول المحيطة بالجزيرة العربية في عصر النبوة ـ كمدخل للدراسة التي نحن بصددها، واذا نظرنا إلى خريطة العالم القديم أمكننا أن نميز في آسيا بين قسمين كبيرين : القلب اليابس الداخلي وراء النطاق الجبلي الضخم ؛ مجموعة من أشباه الجزر ومناطق الاستقرار الرئيسية وتشمل اليابان ، والصين والهند الصينية ، والهند ، وشبه الجزيرة العربية .

---

(١٠) Hartshorne, *The Nature of Geography* (Philadelphia, Penn.: Lancaster, 1956), pp. 175-176.

(١١) في شبهات الشعوبية والرد عليها ، انظر : محمود شكري الآلوسي ، **بلوغ الارب في معرفة احوال العرب** ([د.م.] : المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٤) ، ج ١ ، ص ١٥٩ ـ ١٨٤ .

١ ـ دول آسيا الموسمية وأديانها

أ ـ اليابان

ظلت اليابان قرونا في تاريها الطويل ـ قبل القرن التاسع عشر ـ في عزلة كبيرة عن العالم . ساعد على هذا تطرف موقعها الجزري ، وقلة اتصال سكانها بمن حولهم ، واكتفاؤهم بما عندهم من حضارة جاءت بذورها من اليابس المقابل والأجزاء الجزرية الجنوبية ، ثم انتقلت نحو الشمال حتى عمت الجزر اليابانية .

ب ـ الصين

وتذكر أخبار العرب أنهم كانوا على صلة بالصين في عهد النبوة وقبله . وكانت وفود الصين والهند والروم تصل إلى بلاط كسرى . ويلقاهم هناك عرب الحيرة ، ويعلمون من أمر الصين واجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها ، وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكا يجمعها [١٢] .

وكانت الحيرة ظهر البرية على مرفأ سفن البحر من الهند والصين وغيرهما [١٣] . وظلت السفن تصل خلال القرن الأول الميلادي ، والقرون الثلاثة التالية ، إلى الموانىء الدنيا في الخليج العربي ، ثم حلت « هراة » محل هذه الموانىء بعد هذا . وكان موقعها أكثر ملاءمة لالتقاء الخطوط البحرية بالقوافل البرية التي تخترق بادية الشام آتية من دمشق .

وتاريخ الصين ثمرة من ثمار جغرافيتها ، ذلك لأن الصين ـ وكما يسميها « كريسي » واحة تعتمد اعتمادا يكاد يكون كاملاً على نفسها ، ومعزولة عن بقية الجنس البشري . وإلى عهد الكشوف البحرية كانت تحيط بالصين مناطق خالية تحول دون سهولة الاتصال بالعالم الخارجي . ظلت الصين اذن مكتفية بنفسها قروناً طويلة ـ وظلت اتصالاتها محدودة بالعالم الخارجي مقصور ـ الى حد كبير ـ على الأجزاء الغربية .

الهنـــد

وظلت الهند ـ باستثناء بعض الموانىء والمداخل ـ معزولة إلى حد كبير عن العالم ـ وحتى الآن ليس هناك خط حديدي من خطوط الدرجة الأولى يعبر حدودها . وبهذا كان شبه القارة عالماً جغرافياً معزولاً عزلة حادة عن بقية العالم . والصلة البرية التي تربط الهند بالعالم الخارجي محصورة في الركنين الشمالي الشرقي والشمالي الغربي ، وبينهمافروق كبيرة . وعاشت الهند حياتها تستقبل العناصر الوافدة ، ولا تدفع سكانها إلى الهجرة إلا بقدر . وتغير هذا بعد التطور الاقتصادي الحديث في النطاقات المدارية في آسيا وإفريقيا ، ونمو الصلات بين الشاطئين الافريقي والآسيوي [١٤] .

---

(١٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٥ .

(١٤) Ellen Churchill Semple, *Influences of Geographic Environment on the Basis of Ratzel's System of Anthropo - Geography* (New York: Holt and co., 1911), p. 403.

د ـ الهند الصينية

وتقع بين الهند والصين ، ويبدو من الاسم أنها منطقة انتقال ، وإن كانت لها خصائصها في السطح والمناخ . ولم يعرف هذا الإقليم الوحدة السياسية رغم عراقة تاريخه . وتبرز أهمية الإقليم الحالية في ثرواته الاقتصادية ، وموقعه الإستراتيجي كمنطقة خطيرة من مناطق الصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي . ويجمع سلالات بشرية متباينة ساعدتها الظروف الجغرافية على أن تحتفظ كل منها بخصائصها واستقلالها . وتتعرض هذه الجزر لضغوط بشرية من الصين والهند ، وزاد ضغط الصين بعد قيام الامبراطورية فيها ، وإرسالها بعض جيوشها إلى الهند الصينية في عهد أسرتي « تشن وهان » .

والصينيون هم الآن العنصر المهاجر الرئيسي في الهند الملاوية . هذا بالإضافة إلى الأوروبيين والعرب ، ولهم تأثير ثقافي كبير في هذه الأجزاء من آسيا .

ولقد قام سكان الهند الملاوية بدور كبير في الملاحة المحلية والبعيدة ، وامتد مسرح نشاطهم من جنوب اليابان إلى شرق إفريقيا ، حيث أنشأوا مراكز استقرار ونشروا ثقافتهم ولغتهم ، ومن الممكن أن نقارن بين دورهم في المحيط الهندي والبحار الشرقية ، ودور الفينيقيين والإغريق في البحار الغربية . وصفوة القول إن أهمية مركز الهند الملاوية أنها كانت محطة تجارية بين شرق وغرب آسيا ، قام ملاحوها بدور واضح كحملة حضارة .

اما بشأن أديان آسيا الموسمية ومدى انتشارها فقد لاحظ الاستاذ « فلير » في دراسته « التوزيع الجغرافي للأديان الكبرى » كالهندوكية والبوذية وغيرهما من أديان الصينيين واليابانيين ، أنها ترتبط جميعا بالفكر البوذي ، وتكون فيما بينها مجموعة متماسكة يعتنقها أكثر من نصف البشر . ولكن لم يستطيع أي دين منها أن ينتشر خارج نطاق الأراضي الموسمية في آسيا إذا استثنينا منغوليا والتيبت [١٥] .

وبعبارة أخرى، لهذه الأديان ـ رغم كثرة معتنقيها ـ صبغة محلية. تكاد تكون مقصورة على آسيا الموسمية ، وقد ظهر من العرض السابق كيف أن الصين وشبه القارة الهندية الباكستانية ـ باعتبارهما أكبر أقاليم التركز البشري في آسيا الموسمية ـ كانت مناطق جذب حضاري ، ولم تدفع أبناءها إلى الخارج الا في حدود ضيقة .

وهذا الدفع ـ في فترات حدوثه ـ كان مقصوراً في العصور الوسطى ، ووقت قيام الإسلام على الأجزاء القريبة ، ومع نشاط سكان الهند الصينية في التجارة ، ووجود ذاتية خاصة لهذه المنطقة ، إلا أنها كانت متأثرة إلى حد كبير بقوتي الصين والهند ، هذا إلى العوائق الطبيعية التي تحول دون تجمعها تحت سلطة سياسية واحدة تستطيع أن توجه طاقتها البشرية وجهة موحدة نحو هدف كبير .

٢ ـ شبه الجزيرة العربية

فاذا ما انتقلنا إلى شبه الجزيرة العربية ، وجدنا فروقاً واضحة بينها وبين مناطق الاستقرار

---

(١٥) H.J. Fleur, «The Geographical Distribution of the Major Religions,» *Bulletin de la socio - géographie d'Egypte*, vol. 24 (Novembre 1951).

الكبرى في آسيا الموسمية . بيد أنه لم يكن هناك من حائل بري يعوق اتصال قلب الجزيرة العربية بايران في الشمال الشرقي ، والروم في الشمال الغربي ، فصحراء النفود تتدرج الى الشمال في رفق الى مشارف الدولتين .

وكانت أهم الطرق التجارية التي تسلكها القوافل في الجزيرة العربية :

أ ـ الطريق الممتد على طول خط الاستقرار الموازي لجبال السراة بين اليمن والشام ، ويمر هذا الطريق بنجران والطائف ، ومكة ، والمدينة ، ومدائن صالح ، وتبوك الى الشام ، وعلى هذا الطريق وفي أوديته كانت قرى اليهود المحصنة ، فدك ، وادي القرى ، خيبر ، تيماء .

ب ـ وهناك طريق آخر يمتد من مكة نحو الشمال الشرقي متابعاً موارد المياه في وادي الرمة الى رأس الخليج العربي .

وبهذا كان لمكة ـ خاصة ـ مركز تجاري ممتاز بين مناطق الاستقرار القريبة ، فارس والروم شمالا ، واليمن وما وراءها من أرض الحبشة جنوباً ، وكانت الجزيرة العربية حلقة اتصال بين الحضارات الشمالية والجنوبية .

والجزيرة العربية كانت أداة وصل قوية بين آسيا وافريقيا ، واستطاعت المؤثرات الآسيوية أن تصل منها الى مراكش ، والنيجر غربا ، والى زنجبار في الجنوب ، وعبرت الحبشة وتوغلت الى هضبة البحيرات الاستوائية [١٦] .

ولم يخضع قلب الجزيرة العربية للنفوذ السياسي الخارجي ، وإن خضعت الأطراف الشمالية الشرقية ـ حيث المناذرة ـ للنفوذ الفارسي ، والأطراف الشمالية الغربية ـ حيث الغساسنة ـ للنفوذ الروماني ، أما اليمن فخضعت أحياناً للنفوذ الحبشي ، وأحياناً للنفوذ الفارسي . ومع أن الأحباش طمعوا في الاستيلاء على مكة واخضاع المنطقة الوسطى ، إلا أن الحملة التي سيروها باءت بفشل ذريع كما ورد في سورة الفيل . ولقد كان لهذا الوضع الجغرافي بين مناطق الاستقرار أثره في تعود العربي عدم الخضوع للسلطان الأجنبي ، لأنه يستطيع الهجرة بين أجزاء الجزيرة العربية أو الهجرة منها كما حدث في صدر الاسلام ، ورأينا أثر هذا واضحاً في الأدب العربي ، ومن أمثلة ذلك قول معن بن أوس :

وفي الناس إن رثت حبالك واصل ... وفي الأرض عن دار القلى متحول [١٧]

واستطاع القرشيون ، أن يكونوا سادة التجارة بين الشمال والجنوب ، ونظموا رحلة الشتاء والصيف ، وهم في رحلتهم كانوا آمنين لعظمتهم عند الناس ، لكونهم سكان الحرم ، فمن عرفهم احترمهم ، بل من انصرف إليهم وسار معهم أمن بهم .

تقتضي التجارة علماً بالسياسة العامة والعلاقات ، وبهذا أصبحت مدرسة لتكوين أفراد يصعب على المدارس العادية تخريجهم ... وهكذا تولدت في العرب المواهب النادرة ، وتجلت مظاهرها في جميع

---

(١٦) Semple, Ibid., pp. 404 - 406.

(١٧) ابو تمام حبيب بن اوس ، **ديوان الحماسة** ، مختصر من شرح العلامة التبريزي ، تعليق ومراجعة محمد عبدالمنعم خفاجي ، ٢ج (القاهرة : مكتبة ومطبعة صبح ، ١٣٣٥ هـ /١٩٥٥م) ، ج ٣ ، ص ٣ .

أدوارهم وكل فعالهم ، مما كان له أعظم الأثر في مواقفهم السياسية الخارجية والعسكرية [١٨] .

٣ ـ دول متجاورة متداعية

أ ـ فارس

كانت الحروب عند ظهور الإسلام قد ارهقت دولة فارس والروم ، ويذكر « كريستنس » عن فارس ، أنه في مدة أربع سنوات ـ بعد عام (٦٣٢م) ـ ولي عرش إيران عشرة ملوك على الأقل ، وكثرت محاولات اغتصاب العرش من قواد لم يكونوا من الأسرة المالكة ، واستنزفت الحروب ثروات الدولتين الكبيرتين ، وأورثتهما أحقاداً عميقة الجذور [١٩] .

كانت فارس وثنية ظهرت فيها الزرادشتية ثم اجتاحتها موجة من المزدكية ، وقامت بين الحكومة وأتباع هذا المذهب المنحل حروب انتهت بانتصار الحكومة ، ووصلت العبادات الزرداشتية الى درجة كبيرة من التعقد والكثرة التي تضيق بها حياة الأفراد اليومية .

ومع هذا التعقد وموجات التحلل والندوب الغائرة التي خلفتها الحروب الداخلية والخارجية ، لا نستطيع أن ننكر قوة الفرس الحربية إذا قارناها بقوة العرب . ولكن هذه القوة الفارسية كانت تخفي وراءها عوامل تحلل عميقة ظهرت في الصراع السياسي ، والتعقيد الديني .... والضعف الاقتصادي .

ب ـ الروم

أما الروم فكانوا الطرف الثاني في هذه الحروب الطويلة ، تقوم سياستهم على استغلال الأقطار التي خضعت لسيطرتهم ، وإذا كانت قد تفاوتت آراء بعض الأباطرة عن آراء البعض الآخر ، فإن هذا التفاوت لم يكن في مبدأ الاستغلال نفسه ، وإنما كان في مقدار ذلك الاستغلال ، وكانت الحكمة تملي على بعضهم ألا يكلفوا البلاد فوق طاقتها ، لا شفقة بالبلاد وأهلها ، بل شفقة بأنفسهم كي لا يجف معين البلاد !!

وكانت قبضة الرومان قوية على الأقطار القريبة من مركز الدولة ، ثم تأخذ هذه القبضة في التراخي مع البعد المكاني حتى تصل الى ادناه في اطراف الدولة . وكان هناك تباعد نفسي بين الدولة والمستعمرات ، وكثرت الثورات حتى وصل الأمر الى هجوم الثوار على القصر الامبراطوري ـ والنبي صلى الله عليه وسلم طفل ـ فأنزلوا الامبراطور موريس عن عرشه وقتلوا أولاده الخمسة أمامه ، ثم قتلوا الامبراطور نفسه ، واجتزوا رأس زوجه ومثلوا بها .

وكانت الحالة الدينية انعكاساً لهذا الاضطراب في أصول العقيدة بين قائل بالتثليث ومعارض له من أتباع آريوس ، وكانت عقيدتهم أن المسيح لم يكن إلا رجلاً تقياً مؤيداً بروح من الله . ولم يكن إلهاً ولا ابنا لله . والى جانب هذين الرأيين ظهر القائلون بالطبيعة الواحدة (المونوفيزية) والقائلين بالطبيعتين، ويعطينا « كنجسلي » تصويراً رائعا لمدى التعصب والخلاف العقائدي في قصة الراهبة

---

(١٨) حسن ابراهيم حسن ، **تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** ، ٢ ج (القاهرة: مطبعة حجازي، ١٩٣٥) ج ١ ، ص ٨٠ نقلا عن فلهاوزن .

(١٩) آرثر كريستنسن ، **ايران في عهد الساسانيين** ، ترجمة يحيى الخشاب ، مراجعة عبدالوهاب عزام (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧) ، ص ٤٨٠ ـ ٤٨٢ .

« هيباتيا » والاعتداء الوحشي عليها تحت راية الكنيسة بالاسكندرية .

فهل كانت هذه البيئات صالحة لقيام الدين الجديد ؟

لنتصور رغم هذا كله أن الإسلام نشأ في أرض الفرس والروم ، فهل كان من المعقول أو المنتظر أن يقبل الفرس دينا يحمله روماني !!! أو أن يقبل الرومان ديناً جاء به فارسي ، بعد أن وصلت الأحقاد بينهم الى درجة أثـرت في كل مناحي الحياة في الدولتين ؟

وهل كان من إرادة الله ـ وهو بها اعلم ـ أن ينشأ الإسـلام في بيئة محـايدة لا فـارسية ولا رومانية ، فلا يعتبر الرومان قبوله هزيمة لهم أمام الفرس ، ولا يعتبر الفرس قبوله هزيمة لهم أمام الرومان ؟

ومن أجل هذا قام في هذه البيئة البيضاء التي حفظت دين الله فترة حضانته الأولى ، فكان هدية الصحراء والى أقطار الأرض .

ليس معنى هذا أن الأرض التي سيطر عليها الفرس والروم ليست ملائمة من حيث الموقع لتكون قاعدة ينتشر منها الإسلام ، فلقد أثبت الواقع التاريخي كيف عاشت فيها عواصم الاسلام بعد هذا في دمشق وبغداد والقاهرة قرونا طويلة ، ولكن الذي تجدر الاشارة اليه ، أن هذه الأقطـار وقت ظهور الاسلام كانت فيها المشكلات التي أوردناها ، فالأمر فيها يتعلق بالتاريخ ـ البعد الرابع لأي دراسة ـ لا بالجغرافيا من حيث العلاقات المكانية والمقدمات الطبيعية .

ج ـ الحبشة واليمن

فاذا ما انتقلنا الى الجنوب وجدنا اليمن مسرحاً لصراع دموي بين قوى الروم والفرس ، وكان الأحباش وقتئذ يمثلون قوة ضاربة تتعاون مع الروم على اخضاع اليمن. والحبشة هي المكـان الذي رشحه النبي عليه السلام لهجرة اصحابه حتى يجعل الله لهم فرجاً مما كانوا فيه ، وبعبور الصحابة البحر الأحمر كانوا الطليعة الأولى من حملة الإسلام الى افريقيا علاوة على المداخل الاربعة الرئيسية الأخرى . ومن أجل هذا كان المدخل الرئيسي للإسلام من الشمال الشرقي ، وإن كان دخول الاسلام الحبشة أقدم . وكانت الحبشة من أول الأمر منطقة التجاء يعيش فيها المسلمون كما قال النبي، الذي لم يخرج من مهد الاسلام الى منطقة التجاء لا تصلح من بعد لتكون نقطة انطلاق ، ذلك لأن الانطلاق الحقيقي كان من قلب الجزيرة ... انطلاقا الى الشمال الشرقي في فارس وقلب آسيا ... والى الشمال الغربي الى ارض الروم وعالم البحر المتوسط وما وراءه جنوبا ، وشمال افريقيـا والنطاق الـرعوي السوداني ... وانطلاقا الى الجنوب مع الطرق النابضة بالحياة الى المحيط الهندي .

ثالثاً : الصلات الخارجية في عهد الدولة الاسلامية الأولى

لا حجة لما يذهب اليه بعض الباحثين من أن علاقات المسلمين السياسية مع الروم والفرس بدأت بعد صلح الحديبية . وكما ذكرنا في المبحث الأول من هذه الدراسة ، كانت الدولتان اللتان لهما صلة بجزيرة العرب ، وللعرب ببلادهما صلات عند ظهور الاسلام هما دولتا الفرس والروم (دولة الرومان الشرقية) .

فدولة الفرس تتاخم الجزيرة العربية من الشرق بامتداد الخليج من فروع وادي دجلة والفرات

الى عمان . ودولة الروم تتصل ببلاد العرب من الجهة الشمالية الغربية ، حيث نفوذها يمتد في بلاد الشام ، وبلاد مصر حتى بلاد الحبشة ، وفي الجزيرة يبلغ اطراف الحجاز الشمالية ، ويمتد شرقاً فيشمل تيماء وما حولها .

وكان للعرب صلات تجارية في بلاد الدولتين ، فكانت قبيلة قريش في رحلاتها التجارية تذهب الى الشام في وقت الصيف ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك في سورة قريش .

ولهذا كان بعض القبائل العربية التي تسكن في شمال الجزيرة كقبيلة « طيء » ، وقبيلة « كلب » متأثرة بسبب صلتها بتلك البلاد بكثير من نواحي الحياة كالديانة ، وبعض العادات ، وقد تظهر الانقياد والطاعة لبعض ولاة الروم . أما القبائل التي تسكن الجزيرة ، فقد تأثرت بجيرانها من الفرس في مختلف العادات .

وقد حاولت الدولتان المذكورتان بسط نفوذهما على ما يليهما أو يقرب من بعض المناطق التي تحت حكمهما من بلاد العرب ، فانتشرت السيطرة الفارسية على الساحل الغربي للخليج الذي عرف في فترة طويلة من الزمن باسم (الخليج الفارسي) . وما هو سوى خليج عربي وسكانه في ضفتيه الشرقية والغربية من العرب منذ ان عرف ذلك الخليج ، إلا أن الحكم الفارسي امتد على ضفتيه حتى ظهر الاسلام .

كما امتد نفوذ هذه الدولة الى بلاد اليمن إبان ظهور الاسلام بعد أن كانت تحت سيطرة الأحباش الذين بسطوا نفوذهم فيها بأمر من قيصر ملك الروم ، ولكنهم أساءوا السياسة ، وأرهقوا البلاد بالظلم حتى استنجد أحد زعماء تلك البلاد (سيف بن ذي يزن) بقيصر ، فلم ينجده ، فاتصل بأحد ولاة الفرس من العرب وهو « النعمان بن المنذر » ، فأوصله الى كسرى ملك فارس[٢٠] ، فساعده بأن بعث معه جيشاً مكوناً من المساجين إن هلكوا كان ما أراد ، وإن ظفروا كان ملكاً ازداد به فكان لهم نفوذ في هذه البلاد ، أزاله الحكم الاسلامي .

أما بقية الجزيرة فقد كانت بمأمن من تسلط الطامعين بالتوغل في قلبها ، ولعل من أسباب ذلك ـ مع ما تتصف به من حصانة طبيعية ـ قلة الرغبة بما تحويه من حاصلات كان إدراكها بالنسبة للطامعين فيها سهلا ميسوراً في كل زمن .

ولعل من أقوى ما يثير رغبات الطامعين في الجزيرة امرين :

الأمر الأول : أن البلاد الخارجية كانت بحاجة الى صادرات بلاد الهند ، وممر تلك الصادرات بالمدن القديمة في هذه الجزيرة ، ومنها تنقل براً الى سواحل البحر الأبيض المتوسط أو الى البلاد الفارسية ، وقاعدتها إذ ذاك (المداين في العراق) ، كما أن بعض منتجاتها كالمواشي وغيرها كانت تباع في أسواق الشام ومصر ، فهي ممر للتجارة منها ومن خارجها .

الأمر الثاني : الثروة المعدنية في هذه البلاد ، فقد كانت مشهورة بمعادن الذهب عند كثير من الأمم القديمة كالأشوريين والفينيقيين والعبرانيين مما دفع « سليمان » الى إرسال منقبين عن الذهب في سواحل البحر الأحمر ، فاستخرجوا منه قدراً هائلا يقرب تحديده الى الخيال على ما ذكر الاستاذ

---

(٢٠) ابن هشام ، **السيرة النبوية لابن هشام** ، ج١ ، ص ٣٧ .

« برنهارد مورتس » ١٨٥٩ ـ ١٩٣٩ المستشرق الألماني المتخصص في دراسة التعدين [٢١] .

وقد كان الحصول على الثروة المعدنية كما قال الأستاذ « مورتس » مما أثار مطامع الرومانيين فقاموا بحملة غزو على البلاد العربية كانت وبالا عليهم لعدم معرفتهم بطبيعة البلاد قبل ان يقدموا على غزوها .

أما الفرس فيظهر أنهم كانوا على درجة من فهم الطبيعة العربيةمكّنتهم من استغلال تلك المعادن بدون استعمال وسائل العنف كالغزو ـ مثلا ـ فادركوا أن العرب يحتقرون الصناعة ، ومنها التعدين ، فكان يفد منهم الى الجزيرة أناس يقومون بهذا العمل .

قال « الهمداني » في كتاب « الجوهرتين » معدن الفضة ليس بخراسان ولا بغيرها كمعدن اليمن، وهو معدن الرضراض ، وهو في حد فهم ومخلان يلم من أرض همدان ، وخرب على رأس سبعين ومائتين ، ولمراد فيه خاصة ، ولبني ثُعيلان رهط ابن الدوية يد حتى يقال معدن ابن الدويـة، ولبني الحارث ولخولان العالية فيه حوار وصقب ، فلما قتل محمد بن يعقد ، وافتتنت هذه القبائل عليه عدا بعضهم على ساكتة ، فقتلوا معهم ونهبوا ، وهرب من بقي فتفرقوا في البلاد ، وصار الى صنعاء منهم قوم قد كان لهم بصنعاء قدم من قديم ومنازل وضياع ، وكان أهله جميعا من الفرس ممن تأوب إليه في الجاهلية وأيام بني أمية ، وبني العباس ، وكانوا يسمون « فرس المعدن » فممن بصنعاء منهم بنو سردويه ، وبنو مهرويه ، وبنو ذنجويه ، وبنو بردويه ، وبنو جندويه » .

وقال أيضاً في ذكر معادن اليمامة [٢٢]: « وقرية عظيمة يقال لها العوسجة ، وهي معدن وكذلك شمام معدن فضة ، ومعدن نحاس ، وكان به الوف من المجوس يعملون المعدن ، وكان به بيتا نار يعبدان ، والثنية ثنية حصن ابن عصام معدن ذهب » .

ولهذا فليس غريبا أن يكون أبرز مظهر للتجارة وهو النقود ـ لم يستطع العرب في جاهليتهم حتى صدر الإسلام أن تكون لهم نقود خاصة ـ بل كانوا عالة على النقود الرومية والفارسية . قال البلاذري ، في **فتوح البلدان**[٢٣] « كانت دنانير هرقل ترد على أهل مكة في الجاهلية ، وترد عليهم دراهم الفرس البغلية ، فكانوا لا يتبايعون إلا على أنها تبر ، وكان المثقال عندهم معروف الوزن ، وزنه اثنان وعشرون قيراطاً إلا كسراً ، ووزن عشرة الدراهم سبعة مثاقيل ، فكان الرطل اثنتي عشرة أوقية ، وكل أوقية اربعين درهما » ، فأقر رسول الله ـ صـلى الله عليـه وسلم ـ ذلك وأقره أبو بكر وعمر وعثمان وعلي . فكان معاوية ، فأقر ذلك على حاله . ثم ضرب « مصعب ابن الزبير» في أيام عبدالله بن الزبير » دراهم قليلة كسـدت بعد . فلما ولي عبد الملك بن مروان سأل وفحص عن أمر الدراهم والدنانير ، فكتب الى « الحجـاج بن يوسف » أن يضرب الدراهم على خمسة عشر قيراطا من قراريط الدنانير ، وضرب هو الدنانير الدمشقية .

ثم إن في أسواق الجزيرة التجارية لتصريف منتجات بلاد فارس ، وبلاد الروم أيضا ما يثير طمع

---

(٢١) **العرب** ، السنة ٢ ، ص ٥٨٠ ـ ٥٩١ .

(٢٢) ابو محمد الحسن بن احمد الهمداني ، **صفة جزيرة العرب** (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) ، ص ٢٩٤ .

(٢٣) ابو العباس احمد بن يحيى البلاذري ، **فتوح البلدان** ، نشره ووضع ملاحقه وفهـارسه صـلاح الدين المنجد ، ٣ ج (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، [د.ت.]) ، ج ٣ ، ص ٥٧٢ .

تينك الدولتين في هذه البلاد ، إلا أن انتشار التجارة في تلك الأزمان ، وخاصة في الجزيرة التي يحتاج سكانها الى كثير من الأشياء التي لا توجد في بلادهم من الأمور التي لا تستلزم اللجوء الى استعمال القوة ، بل الاستعانة لبلوغ الأسواق بالتجارة الخارجية بخفارة أحد شيوخ القبائل ، وهذا الأمر كثيرا ما أوقع الخلاف بين القبائل ، وجر الى حروب كما حدث في حرب الفجار بين قريش ، ومعهم كنانة ، وبين قيس عيلان بسبب إجارة قافلة التجارة التي ارسلها النعمان بن المنذر أحد عمال الفرس الى سوق عكاظ [٢٤].

وكما حصل للأموال التي بعث بها « وهرز » الوالي الفارسي في اليمن الى كسرى ملك الفرس فنهبتهابنو تميم حين مرت بأرضهم ، فاغتنم الفرصة « هوذه بن علي الحنفي » ملك اليمامة - وبين قبيلته ربيعة ، وبين تميم حروب - فحمى أصحاب العير التي حملت الأموال ،وأكرمهم وذهب معهم الى كسرى ، فكافأه مساعدته على حرب بني تميم ، وكتب الى عامله في البحرين (الإحساء) ليكون مع هوذة ، فكان يوم « المشقَّر » الذي قتل فيه من بني تميم عدد كبير [٢٥].

أما التجارة التي تمر ببلاد العرب الى بلاد الروم ، أو بلاد الفرس (الترانزيت) - وقد كان بين الروم وبين بعض القبائل العربية كقبيلة قريش صلات تجارية ، تجعل تلك التجارة في مأمن ، فقد ذكر الأزرقي وهو يتحدث عن عمارة الكعبة[٢٦] « ان سيلاً عظيما دخلها فصدع جدرانها ، وخافت قريش من تهدمها : فبيناهم على ذلك يتناظرون ويتشاورون إذ اقبلت سفينة للروم ، حتى إذا كانت بالشعيبة ، وهي يومئذ ساحل مكة قبل جدة ، انكسرت فسمعت بها قريش ، فركبوا إليها فاشتروا خشبها واذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاعهم ، على الا يعشروهم ، قال : « وكانوا يعشرون من دخلها من تجار الروم ، كما كانت الروم تعشر من دخل منهم بلادهم ، فكان في السفينة رومي نجار بناءيسمى (باقوم) ، فلما قدموا بالخشب مكة قالوا : لو بنينا بيت ربنا ، فاجمعوا لذلك » . وساعدهم في البناء « باقوم » الرومي ، فقال لهم : « اتحبون أن تجعلوا سقفها مكبساً أو مسطحاً ؟ فقالوا : بل ابن بيت ربنا مسطحاً . قال : فبنوه مسطحاً ، وفي لفظ قالوا : ابنه بنيان الشام » [٢٧] .

ويفهم من هذا ان البضائع التي تنقل من الجزيرة تمر بموانىء بحر القلزم (البحر الأحمر) ، وكانت تلك الموانىء تحت سيطرة أناس يخضعون لسلطة الروم ، ومنهم من ليسوا عربا ، ويظهر أن بعض البضائع ترد من الطريق البري القديم الممتد من اليمن الى الحجاز فالشام ، وأن ما مرّ بهذا الطريق ببلاد قريش عشرته ، وكان في خفارتها وخفارة بعض القبائل الموالية لدولة الروم ، وهي اكثر القبائل التي تقع بلادها في شمال الحجاز الى بلاد الشام .

اما التجارة التي تذهب الى بلاد فارس ، فيظهر انها تسلك الطريق التجاري القديم الممتد من اليمن شرقا الى ضفاف الخليج غربا ، حيث النفوذ الفارسي ، ومن هناك تتصل بالبلاد التي تحت السيطرة الفارسية .

وتدل بعض الآثار التي عثر عليها في المنطقة الشرقية في « ثاج » بأن للدولة الحميرية اليمنية

---

(٢٤) انظر تفصيل خبرها في : ابن هشام ، **السيرة النبوية لابن هشام** ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

(٢٥) ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، **تاريخ الطبري** ، **تاريخ الرسل والملوك** ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ذخائر العرب ، ٣٠ ، ١٠ ج (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٠ - ١٩٦٨) ، ج ٢ ، ص ١٦٩ .

(٢٦) ابو الوليد محمد بن عبد الله الازرقي ، **اخبار مكة المشرّفة** ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ و١٧٠ .

نفوذا في هذا الطريق ، ولعل سيطرة الدولة الحميرية كانت تحمي الطريق التجارية داخل الجزيرة لتصريف تجارة بلادها ، وما يرد اليها ، كما يفهم من نقش لا يزال موجودا في جبل « ماسل » في العرض (عرض القويعية) ، وفي هذا النقش على ما ذكر « فلبي »[٢٨] ما يشير الى ان احد ملوك حمير ـ بنى قلعة على الطريق ولعلها لحماية سالكيه ، يضاف الى هذا ، ما سبقت الاشارة اليه من وجود آلاف من الفرس (المجوس) يعملون في المعادن ، وليس من المعقول ان يكونوا غير محميين من دولتهم في إقامتهم ، وفي رحلاتهم .

وقد تكشف لنا الآثار فيما بعد ما يضيف الى ما هو معروف عن التجارة الخارجية في الجزيرة معلومات أخرى اوضح وأوثق .

١ ـ بدء الصلات بين المسلمين والروم

يرى بعض الباحثين أن علاقات المسلمين السياسية ، مع الروم والفرس ، ومن تحتهم الأحباش واهل البحرين وعمان ، واليمن ، ونجران ، وحضرموت ، ومهرة بدأت بعد صلح الحديبية [٢٩]. ولكننا لا نرى صحة هذا القول من كل الوجوه ، فقد قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في مكة قبل الهجرة عشرون رجلاً ، أو قريب من ذلك ، من النصارى ـ حين بلغهم خبره ـ من الحبشة فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه ، وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في انديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا ، دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن ، فاضت اعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله ، وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من امره[٣٠] . وفي القرآن الكريم قال الله تعالى ﴿ **لتجدنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا . ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع . مما عرفوا من الحق** ﴾[٣١] .

ثم ان الاسلام لما انتشر في مكة قبل الهجرة ، وقع بالمسلمين من اذى قريش ما وقع بهم ، وكانت هجرتهم الأولى الى الحبشة . قال ابن اسحق[٣٢] : « فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب اصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ، ومن عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء . قال لهم : « لو خرجتم الى ارض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما انتم فيه » ، وذلك على نحو ما أسلفنا القول في مبحثنا الأول من هذه الدراسة ـ نقول : فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب النبي من مكة الى مينائها القديم « الشعيبة »، ومنه اجتازوا البحر الأحمر الى أرض الحبشة . مخافة الفتنة ،وفراراً الى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الاسلام ، وعدد المهاجرين يتجاوز الثمانين .

---

(٢٨) حمد الجاسر ، **مدينة الرياض عبر اطوار التاريخ** : **نصوص عن جزيرة العرب** (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٩٦٦) .

(٢٩) محمد حميد الله ، **مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة** ، المقدمة ، ص يد .

(٣٠) ابن هشام ، **السيرة النبوية لابن هشام** ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

(٣١) **القرآن الكريم** ، سورة المائدة : الآيتان ٨٢ و٨٣ .

(٣٢) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢١ .

وأرض الحبشة ـ بكلام آخر ـ وعلى ما يصفها « ابن جرير » ـ كانت متجراً لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها دفاغا ـ أي سعة ـ من الرزق وأمنا ومتجراً حسناً [٣٣] .

ووصف أحد المسلمين مقامهم هناك قال : « وقدمنا ارض الحبشة فجاورنا خير جار ، أمنا على ديننا ، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه » [٣٤] .

وكانت تلك الهجرة في شهر رجب في السنة الخامسة بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم [٣٥] .

وقد أرادت قريش من النجاشي إرجاع المهاجرين ، فأرسلت اليه عمرو بن العاص ، وعبدالله بن أبي ربيعة مع هدايا كثيرة له ولبطارقته ، فرفض النجاشي إرجاعهم وحماهم . وقال : أذهبوا فأنتم سيوم ، فاستقروا في بلاده حتى سمعوا اشاعة عن إسلام قريش ، فرجع بعضهم ، وأقام بقيتهم بأرض الحبشة حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشي « عمرو بن أمية الضمري » فحملهم في سفينتين الى الجاد ، ميناء المدينة ، والرسول صلى الله عليه وسلم في خيبر بعد الحديبية .

وكان لهذه المعاملة من النجاشي في نفوس المسلمين الأثر الحسن ، وقد بقي على حسن صلاته حتى توفي مسلماً بعد انتشار الإسلام .

ومن المعروف أن نفوذ دولة الروم كان يشمل بلاد الحبشة ، فقد أرسل النجاشي بأمر قيصر جيشاً ، فاستولى على بلاد اليمن [٣٦] . وخضعت لحكم الحبشة حتى انتزعها الفرس قبل ظهور الإسلام .

ولهذا كان المسلمون في أول الاسلام يجدون من حسن معاملة الروم ما يحملهم على تفضيلهم على الفرس ، كما ذكر علماء التفسير في معنى الآيات الكريمة ﴿ **غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون** ﴾ الى قوله تعالى ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** ﴾ .

فقد حدثت موقعة بين الدولتين في أذرعات (درعا) في بلاد الشام هزمت فيها جيوش فارس الروم ، فشق ذلك على المسلمين [٣٧] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن يظهر الأميون من المجوس ، على الكتاب من الروم ، ففرح الكفار بمكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس ، على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ الم . **غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** .... ﴾ .

فخرج أبو بكر الصديق الى الكفار ، فقال : افرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ، ولا يقرن الله أعينكم ، فوالله ليظهرن الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم . فقام

(٣٣) الطبري ، **تاريخ الطبري** ، **تاريخ الرسل والملوك** ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .
(٣٤) ابو عبدالله محمد بن منيع ، **الطبقات الكبرى** ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .
(٣٥) المصدر نفسه ، والطبري ، المصدر نفسه .
(٣٦) انظر الخبر مفصلاً في : ابن هشام ، **السيرة النبوية لابن هشام** ، ج ١ ، ص ٣٧ .
(٣٧) ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، **جامع البيان** ، ج ٢١ ، ص ١٧ ـ ١٨ .

إليه أبي بن خلف ، فقال : كذبت يا أبا فصيل ، فقال له ابو بكر ـ رضي الله عنه ـ : أنت أكذب يا عدو الله ، فقال : اناحبك عشر قلائص مني ، وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ، وإن ظهرت فارس على الروم عزمت ، الى ثلاث سنين . ثم جاء أبو بكر الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : ما هذا ذكرت ، إنما البضع ما بين الثلاث الى التسع ، فزايده في الخطر ، وماده في الأجل . فخرج ابو بكر ، فلقى أبيا ، فقال : لعلك ندمت ، فقال : أزايدك في الخطر ، وأمادك في الأجل ، فاجعلها مائة قلوص لمئة قلوص ، الى تسع سنين ، قال : قد فعلت .

والديانة النصرانية وهي الدين الرسمي للروم ، كانت منتشرة عند ظهور الإسلام في بلاد العرب ، فكانت الأديرة ، والمعابد موجودة فيها في نواحي الحجاز ، وفي اليمن ، وفي نجران ، وفي اليمامة ، ومعروف ما للصلة الدينية من أثر .

٢ ـ الصلات السياسية

بعد أن انقادت القبائل التي تسكن الجزيرة للإسلام ، وعقد الرسول صلى الله عليه وسلم مع قريش صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة اتجهت همته ـ عليه الصلاة والسلام ـ الى نشر الرسالة في النواحي التي لم تنتشر فيها من أطراف الجزيرة وخارجها مما هو تحت نفوذ الدولتين العظميين في ذلك العهد (الدولة الفارسية والدولة الرومية) .

وكان نفوذ الأولى ممتدا في شرق الجزيرة ، وشاملاً العراق وبلاد فارس ، وكانت على حالة من الضعف جعلتها تعجز عن ضبط تصرفات ولاتها ، حتى سئمت الرعية من تعسفهم واستبدادهم وظلمهم ، وأدرك هؤلاء الولاة أن دولتهم لا تستطيع حمايتهم ، فسرعان ما استجابوا للدعوة الاسلامية ، فانضوت الأقاليم التي كانوا يسيطرون عليها من بلاد العرب وهي (البحرين) و(عمان) و(اليمن) تحت لواء الإسلام .

أما كسرى ملك تلك الدولة ، فرفض قبول الدعوة الاسلامية ، واستهزأ بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكانت عاقبة أمره أن مزق الله ملكه .

وكان نفوذ دولة الروم يمتد الى شمال الجزيرة ـ بحيث كانت قبائل لخم وجذام وألقين وبهراء وبلى وكلب تخضع لولائها .

وكذا كانت بلاد الحبشة ـ كما تقدمت الاشارة الى أنها كانت تابعة لدولة الروم ـ وما كانت الدولة الرومية بأسعد حظاً من الدولة الفارسية ، فقد أدركها الضعف كما ارهق ولاتها من تحت أيديهم من الرعية بسوء تصرفهم ، وأوضح دليل لذلك أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما غزا « تبوك » في السنة التاسعة من الهجرة ، سارع اليه ولاة البلاد الواقعة في أطراف الشام ، إيلة وأذرح والجرباء ، يطلبون الأمان ويظهرون الخضوع والطاعة .

أ ـ السفراء الأول في الاسلام

حين أراد الرسول أن يرسل سفراء الى ملوك الدولتين وولاتها سلك الطريقة المثلى المتعارف عليها في مثل هذه الأمور ، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أنس قال : « لما أراد رسول الله صلى الله عليه

وسلم أن يكتب الى الروم ـ قيل له : أنهم لن يقرأوا كتابك إذا لم يكن مختوما ، فاتخذ خاتما من فضة ونقش عليه محمد رسول الله »[٣٨].

وكان من بين كتابه من يحسن بعض اللغات ، فزيد بن ثابت كان يحسن منها الفارسية والرومية والحبشية والقبطية والسريانية والعبرية [٣٩].

ثم اختار للسفارة عدداً من أصحابه من ذوي اللياقة خلقا وخلقا ، كما يفهم من قول ابن عساكر في **تاريخ دمشق** « فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، وذلك في المحرّم سنة سبع ، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم»[٤٠]. وقبل أن يتوجه كل سفير الى محل سفارته **جمعهم فاوصاهم** قائلا : « أيها الناس ان الله قد بعثني رحمة وكافة ، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم » ، **فقال أصحابه : وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟** قال : « دعاهم الى الذي دعوتكم اليه . فأما من بعثه قريبا فرضي وسلم ، وأما من بعثه مبعثا بعيدا ، فكره وجهه وتثاقل ، فشكا ذلك عيسى الى الله ، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بعث اليها . »[٤١] انتهى .

وسفراء المصطفى هم :

(١) **دحية بن خليفة الكلبي** ، وكان من أجمل الناس صورة ، وكان يضرب به المثل في ذلك بحيث كان جبريل ـ عليه السلام ـ ينزل على صورته؛ ومحاورته لقيصر ملك الروم ، ولكبير أساقفته تدل على رجحان عقله [٤٢].

(٢) **حاطب بن أبي بلتعة** ، من بلغاء قريش ، ومن فرسانهم وشعرائهم في الجاهلية ، ويظهر أنه كان يحسن الكتابة ، فقد كتب الى قريش سراً يعلمهم بسير رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة فنزل الوحي بذلك . وكان سفير رسول الله الى المقوقس في الاسكندرية ، فأنزله في منزله ، قال حاطب : فأقمت فيه ليالي ثم بعث إليّ ، وقد جمع بطارقته فقال : إني سأكلمك بكلام أحب أن تفهمه مني : قال : قلت نعم . قال : أخبرني عن صاحبك أليس هو نبياً . قلت : بلى . هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فما باله حيث كان هكذا لم يدع على قومه حين أخرجوه من بلدته الى غيرها ؟! فقلت له : فعيسى بن مريم أتشهد أنه رسول الله ؟ فما له حين أخذه قومه ، فأرادوا صلبه الا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله ؟ قال : أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم »[٤٣].

(٣) **شجاع بن ابي وهب الأسدي**، الى الحارث بن ابي شمر الغساني، وجبلة بن الأيهم والي الشام للروم ، وكان رجلاً طوالا ، وكان يحسن القراءة والكتابة .

(٤) **سليط بن عمرو القرشي** ، سفير الرسول صلى الله عليه وسلم الى هوذة بن علي ، وثمامة بن آثال صاحبي اليمامة .

---

(٣٨) **التراتيب الادارية** ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

(٣٩) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢٠٣ .

(٤٠) ابو القاسم علي بن الحسين ابن عساكر ، **تاريخ مدينة دمشق** ، تحقيق شكري فيصل، ترجمة عبدالله بن حذاقة السهمي القرشي (دمشق : مجمع اللغة العربية ، ١٩٧٧ ـ ١٩٨١) .

(٤١) ابن هشام ، **السيرة النبوية لابن هشام** ، ج ٤ ، ص ٦٠٦ .

(٤٢) الطبري ، **تاريخ الطبري** ، **تاريخ الرسل والملوك** ، ج٢ ، ص ٦٥٠ .

(٤٣) ابو عمر يوسف بن عبدالله ابن عبدالبر ، **الاستيعاب في معرفة الاصحاب** ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ترجمة حاطب بن ابي بلتعه ، ٤ ج (القاهرة : مكتبة مصر ومطبعتها ، [د . ت .]) .

(٥) **عبدالله بن حذافة السهمي القرشي** ، كان ممن هاجر الى الحبشة ـ وقد أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينادي أيام « منى » بعدم صيامها مما يدل على أنه كان جهوري الصوت فصيحه ، ويصفه المؤرخون بأنه كان ذا دعابة ، ويروون عن دعابته قصة طريفة ، كانت سببا في نزول الآية الكريمة﴿ يا أيهاالذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم ﴾[٤٤] .

أما سفارته فكانت الى كسرى ملك فارس ، بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وورد في صحيح البخاري عن ابن عباس أنه سلم الكتاب الى عظيم البحرين ، وهذا بعثه الى كسرى ، ولكن الحافظ ابن عساكر روى عن عبدالله ما نصه : (قال عبدالله فدفعت اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرىء عليه ، ثم اخذه فمزقه) .

ويفهم مما اورد ابن عساكر عنه أنه يفهم اللغة الفارسية ، فقد عده من الستة الذين قال عنهم : (كل رجل يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم) .

(٦) **العلاء بن الحضرمي** ، من قادة المسلمين وأبطالهم ، وهو الذي أشار الى الرسول صلى الله عليه وسلم باستعمال الخاتم لختم الرسائل ، وهو من الشعراء الكتاب ، وقد ولي البحرين للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولأبي بكر وعمر ، وهو أول من سيّر جيشاً ففتح جزيرة بأرض فارس .

وكان السفير الى المنذر بن ساوي العبدي صاحب البحرين .

(٧) **عمرو بن أمية الضمري الكناني** ، كان ذا جرأة ونجدة ، وكان موفقا في سفارته الى النجاشي حيث أسلم النجاشي .

(٨) **عمرو بن العاص السهمي القرشي** ، داهية العرب المعروف ، وفاتح بلاد مصر ، وقد أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم الى ملكي عمان ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم استعمله على ـ قرى عربية ـ تبوك ، وخيبر ، وفدك وما حولها .

(٩) **المهاجر بن ابي امية المخزومي** أخو أم سلمة ـ زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ولاه الرسول زكاة اليمن ، ثم تولى اليمن في عهد أبي بكر ، وله في قتال أهل الردة مقام محمود ، فقد فتح حصن النجيرالذي تحصنت فيه كندة في بلاد حضرموت وهو معدود من الشعراء .

ب ـ الرسائل السياسية في عهد الرسالة

تصدى قدماء المؤرخين لتدوين تلك الرسائل كابن سعد في كتاب « الطبقات » وابن جرير في تاريخه وغيرهما . ثم افردت الرسائل النبوية والوثائق في مؤلفات خاصة قديماً وحديثاً ، ومن أشملها كتاب « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة »[٤٥] .

وتحسن الاشارة الى حدوث التزوير في الوثائق السياسية منذ عهد قديم ، ولا يزال مستمراً الى عهدنا الحاضر ، حيث انه لتلك الوثائق من الناحية الأثرية ما يغري ذوي الخداع والتزوير[٤٦] .

---

(٤٤) ابن عساكر ، **تاريخ مدينة دمشق** .

(٤٥) للدكتور محمد حميد الله .

(٤٦) حميد الله ، **مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة** ، المقدمة ص ك ، و« مع

ونكتفي الآن بالحديث عن الثابت من تلك الوثائق ، مع الاشارة الى وجـود اختلاف لفظي في نصوص بعضها عند المؤرخين مما لا يمس جوهر المعنى ، ومنشأ هذا أن نقل الحديث النبوي كان يعتمد على السماع والرواية .

ولما كان مضمون الرسائل النبوية واحداً ، وهو تبليغ الرسالة والدعوة الى الاسلام كانت متشابهة في أسلوبها ، كما يتضح من النصوص الواردة بهذا البحث .

وكانت الرسالة تبتدىء بالبسملة ، ثم بذكـر اسم الرسـول صلى اللـه عليه وسلم ، ووصفـه بالرسالة ، وذكر لقب المخاطب بدون ما يفهم منه اعتراف بوظيفته ، كما في كلمة « عظيم » ـ فقد وردت في رسائل ملك فارس ، وملك الروم ، وملك مصر، ولكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عبر بكلمة « عظيم » بدل « ملك » لئلا يفهم من ذلك التقدير لملك المخاطب [٤٧].

وتختم بخاتم الرسول صلى الله عليه وسلم : « محمد رسول الله » ـ ثلاثة أسطر ـ اسم « الله » في السطر الأعلى ، وتحته كلمة « رسول » ، ثم كلمة « محمد » ، ولم يستعمل التاريخ لأنه لم يعرف في الاسلام إلا في عهد عمر بن الخطاب .

وكانت الرسائل في ذلك العهد تكتب على قطع صغيرة من الجلود بعد أن ترقق ، وتسمى الرقاق واحدها رق .

ولم تكن للدولة الاسلامية الأولى صلة خارجية الا بدولتي الفرس والروم ، فكانت الرسائل النبوية موجهة الى رؤساء هاتين الدولتين وعمالهما .

(١) أشهر الكتب الموجهة الى الدولة الفارسية

(أ) الرسالة الموجهة الى كسرى ملك الفرس ، وقد حملها «عبدالله بن حذاقة السهمي»، فلما قرأها كسرى مزقها ، وقال : يكتب إليَّ هذا وهو عبدي [٤٨]، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مزق كتابه ، دعا عليه بأن يمزق الله ملكه ، فاستجاب الله دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقتل كسرى على يد ابنه ، وآل الأمر الى اضطراب ملك الفرس ، حتى استولى المسلمون على بلادهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بزمن يسير .

(ب) كان والي البحرين من قبل الفرس،« المنذر بن ساوي » ، فكتب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الإسلام ، فاستجاب ووفد على الرسول صلى الله عليه وسلم وفد من هذه البـلاد لاظهار الطاعة والدخول في الإسلام ، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على ذلك الاقليم .

(ج) وكانت بلاد عمان خاضعة لنفوذ الفرس ، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص الى ملكيها « جيفر » ،«عباد»ابني الجلندي. فأسلما ودفعا الزكاة .

د) وكان ملك اليمامة « هوذة بن علي » ذا صلة بدولة الفرس ، فكتب اليه الرسول صلى الله عليه وسلم

= القراء في اسئلتهم : التزوير في كتابه الرسائل النبوية،» **العرب** ، السنة ١ ، العدد ١ (كانون الاول / ديسمبر ١٩٦٦) ، ص ٨٤ .

(٤٧) **التراتيب الادارية** ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

(٤٨) الطبري ، **تاريخ الطبري** ، **تاريخ الرسل والملوك** ، ج ٢ ، ص ٦٥٤ .

مع « سليط بن عمرو القرشي » ، فكتب الى النبي صلى الله عليه وسلم « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك ، ولم يلبث بعد هذا الا يسيرا فتوفي فانقادت هذه البلاد للإسلام بعد أسر زعيمها « ثمامة بن آثال » .

وبالإجمال فقد خضعت جميع أطراف الجزيرة التي كانت تابعة لنفوذ الفرس في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) أشهر الرسائل النبوية الموجهة الى قادة الدولة الرومية

(أ) كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى هرقل عظيم الروم مع دحية بن خليفة الكلبي ، فلما قرأه أظهر الموافقة ، وقال للسفير فيما رواه ابن جرير شيخ المؤرخين [٤٩]: ويحك! والله إني لأعلم أن صاحبك نبيٌّ مرسل ، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا ، ولكني أخاف الروم على نفسي ، ولولا ذلك لاتبعته » .

ويضيف ابن جرير الى هذا أن هرقل عرض الأمر على رجال مملكته لكي يوافقوا على قبول الدعوة فرفضوا ، فعرض عليهم إعطاءه الجزية . فأبوا . فقال هرقل : « فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية ، ويدعني وأرض الشام » ـ قال : « وكانت أرض سورية أرض فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما دون الدرب من أرض سورية ، وكان ما وراء الدرب عندهم الشام » ـ فقالوا له : « نحن نعطيه أرض سورية ، وقد عرفت أنها سدة الشام ، والله لا نفعل هذا ابداً » .

فلما أبوا عليه جلس على بغل له ، فانطلق حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ، ثم قال : « السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع ثم ركض حتى دخل القسطنطينية » .

وانضوت بلاد الشام تحت لواء الإسلام في أول عهد الخلفاء الراشدين .

(ب) وكتابه صلى الله عليه وسلم الى النجاشي ملك الحبشة ...

وكان النجاشي قد صدق برسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو في مكة وآوى المهاجرين من الصحابة ، ولهذا فكان موضوع كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إليه لما هو الحق من صفة عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ على ما جاء في القرآن الكريم ، وهو وصف يعترف به المنصفون من علماء النصرانية ، ومنهم النجاشي .

(ج) وكتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ـ ملك الاسكندرية مع « حاطب بن ابي بلتعة » ، فأظهر الاستجابة ، وأهدى الرسول صلى الله عليه وسلم هدايا منها أربع جوار [٥٠].

وقد أورد صاحب كتاب « مجموعة الوثائق السياسية » ـ كتابا منسوبا للمقوقس جواباً عن كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، يعترف بصدق نبوته ....

(د) وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عمال الروم في « إيلة » و« معان » و« مقنا » كتبا

---

(٤٩) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٥٠ .
(٥٠) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٤٥ .

فاستجابوا ـ ووفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في تبوك [٥١] .

(هـ) وممن لم يستجب لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد كتب إليه الحارث ابن ابي شمر الغساني ، فقد ذكر ابن جرير فيما نقل عن ابن اسحق الواقدي ان الرسول صلى الله عليه وسلم بعث اليه شجاع بن ابي وهب ، فكتب اليه معه: سلام على من اتبع الهدى ، وآمن به ، اني أدعوك الى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك[٥٢] فقدم به شجاع بن وهب ، فقرأه عليهم ، فقال : من ينزع مني ملكي ؟! أنا سائر اليه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : باد ملكه .

وقد حدثت مناوشات بين القبائل العربية بقيادة عمال الروم في بلاد الأردن ، وفي أطراف الحجاز الشمالية قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن المسلمين استولوا على جميع تلك البلاد اثناء الفتوحات الاسلامية في عهد الخليفتين الراشدين أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب .

(٣) نصوص أشهر الرسائل السياسية في عهد الرسالة

(أ) الى كسرى ـ ملك الفرس : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله ، فاني أنا رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حياً ، أسلم تسلم ، فان أبيت ، فعليك إثم المجوس »[٥٣].

(ب) الى المنذر بن ساوي ـ عامل البحرين « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوي ، سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد فإني أدعوك إلى الإسلام ، فأسلم تسلم يجعل الله لك ما تحت يديك ، وأعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر »[٥٤] .

(ج) الى هوذة بن علي ـ صاحب اليمامة : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى هوذة بن علي . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، إعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، واجعل لك ما تحت يديك »[٥٥].

(د) الى هرقل ـ عظيم الروم : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبدالله ورسوله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك برعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلّا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا إشهدوا بـأنّا مسلمـون »[٥٦].

(هـ) الى النجاشي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشـــي الأصحـم ملك الحبشة ، سلم أنت ، فاني أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه ،

---

(٥١) ابن هشام ، **السيرة النبوية لابن هشام** ، ج ٤ ، ص ٥٢٥ ، وحميد الله ، **مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة** ، ص ٣٤ ـ ٤٠ .

(٥٢) الطبري ، **تاريخ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك** ، ج ٢ ، ص ٦٥٢ .

(٥٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٥٤ .

(٥٤) حميد الله ، **مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة** ، ج ٣ ، ص ٥٥ ـ ٥٦

(٥٥) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

(٥٦) **التراتيب الادارية** ، ج ١ ، ص ١٤٣ ، نقلا عن : **صحيح البخاري** في مواضع عدة .

وإني أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فاني رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، فإني أدعوك وجنودك الى الله ، فقد بلغت ونصحت ، فأقبلوا نصحي ، والسلام على من تبع الهدى »[٥٧] .

(و) الى المقوقس ـ عظيم مصر : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبدالله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام : إسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط » يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»[٥٨] .

نخلص مما سبق أنه كان كل رجل من سفراء الرسول يتكلم بلسان القوم الذين بعثه اليهم ، وأن أول سفرائه صلى الله عليه وسلم كانوا ستة ... خرجوا في المحرم من سنة سبع للهجرة ، كما كان من بين كتاب الرسول أيضاً من يحسن الفارسية والرومية والحبشية ، والقبطية ، والسريانية ، والعبرية .

كما ان التزوير الذي لا يزال مستمراً الى عهدنا الحاضر .. كان يحدث في الوثائق السياسية منذ عهد قديم □

صدر حديثاً عن

مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة اطروحات الدكتوراه (٦)

التعاون الإنمائي

بين أقطار مجلس التعاون العربي الخليجي

(المنهاج المقترح والأسس المضمونية والعملية)

الدكتور فؤاد حمدي بسيسو

---

(٥٧) الطبري ، **تاريخ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك** ، ج ٢ ، ص ٦٥٢ .

(٥٨) حميد الله ، **مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة** ، ص ٤٩ .

التربية والتكنولوجيا ومستقبل العرب

د. ابو القاسم العليوي

دكتور في علم الاجتماع التربوي، ومندوب جهوي للتعليم الابتدائي بباجة في تونس.

- ١ -

يواجه الوطن العربي ، وهو امام مشارف القرن الحادي والعشرين ، اكبر التحديات الحضارية التي شهدها طوال تاريخه الحافل الطويل . فهو يتوق الى الاخذ بأسباب التحديث والتقدم ، واللحاق بركب العالم المصنع الثري في الوقت نفسه الذي تشتد فيه قناعته باتجاه الهوة الفاصلة بينه وبين هذا العالم نحو التعاظم ، ويتأكد فيه ادراكه لطبيعة الاخطار المحدقة ، من جراء ذلك ، باستقلال ارادته وقراره ، وبصيرورته ككيان يعي أهمية التغيير والتكيف في المناخ الحضاري الجديد ويريد ان يكون له في قواه الذاتية ما يضمن توازنه ويوطّد مناعته ، ويقوّي طاقته على المسك بأعنّه حركيته التي لا مردّ لتواصلها .

فابلغ العبر التي استقاها العرب وغيرهم من سكان العالم الثالث ، من تجربة العمل على التحرّر من اسباب التخلّف واعبائه ، لا تتمثل في غير التأكد من ان الغرب زاهد حقاً عن مساعدتهم في كسب رهان التنمية ؛ لأن النظام الاقتصادي العالمي الراهن لم يزل قائماً على جملة من التصورات والتقاليد والبنيات التي يمكن تلخيص تعريفها بالاشارة الى كونها تتلاقى جميعاً في اعتبار تخلف الجنوب أصلَ تقدم الشمال ؛ وفي تبرير استمرار هذا الوضع بانعدام النظام البديل او بشرعية انشغال الغرب بتوسيع الآفاق اللازمة لتوظيف ما يملك من طاقات علمية وتكنولوجية .

والذي يتجلّى من موقف الغرب إزاء بلدان الجنوب هو انه مصر على استبقائها في المنزلة التي جعلها فيها حينما كان مستعمراً لها ، لتظلّ اسواقاً واسعة تروَّج فيها مختلف مصنوعاته بالأثمان التي يفرضها ، وتظلّ خاماتها وسائر ثرواتها الطبيعية تحت تصرّفه بأبخس الاسعار ، مسخّرة لإذكاء الحاجة الى الاستهلاك ؛ اي لإسعاد الاقلية المحظوظة المنتفعة بالنظام الاستهلاكي . وكيما ندرك طبيعة هذا الموقف نرجع قليلاً الى الوراء ، ونذكر بأن ظاهرة الاستعمار انما هي ، في الاصل ، ظاهرة اقتصادية . فهذا جول فيري (Jules Ferry / ١٨٣٢ ـ ١٨٩٣) وهو احد غلاة الامبرياليين يؤكد للفرنسيين انّ : « المستعمرات مَواطن استثمار ممتازة لرؤوس الاموال في البلدان الغنية [...] لان القضية

الاستعمارية هي بالذات قضية اسواق بالنسبة الى البلـدان المؤهلة اكثـر من غيرهـا بحكم صناعتهـا لتصديـر واسع المدى »[١] .

وهذا جان جاك سرفان شرايبر J.J. Serven Chreiber احد رجالات السياسة بفرنسا حالياً ، يعترف في كتابه التحدي العالمي بانّ اوروبا وامريكا لم تبلغا ما بلغتاه من نهضة صناعية واسعة الابعاد الاّ بفضل النفط الذي لا تزالان تشتريانه باثمان زهيدة جدّا، نجحتا في تجميدها طوال ما يقرب من سبعة عقود ! « فبين عام ١٩٠٠ وعام ١٩٥٠ ارتفع سعر [النفط] من ١،٢٠ دولار الى ١،٧٠ دولار . ومن عام ١٩٥٠ الى ١٩٧٠ ظل ثابتاً في مكانه اذ بيع بـ ١،٨٠ دولار ، الامر الذي يبيح لنا ان نسأل مع « شرايبر » نفسه : ما هو مجتمع الاستهلاك ان لم يكن مجتمع النفط الزهيد الثمن ، والمبذول للغرب في سخاء ؟! بل من حقنا ان نقول معه ان تفسير هذه المغامرة الجنوبية التي قادت الغرب دونما تردد او تفكير الى ان يصبح مستعمرة من مستعمرات النفط ، هو ان هذا النفط ظل خلال سنوات طويلة مجانيا الى حد كبير »[٢] .

ولعل أهم ما يجدر فهمه من تحليل الازمة الاقتصادية المستفحلة اليوم في شتى بلدان الجنوب والشمال على اختلاف نظمها هو انه لا يمكن لهذا الوضع ان يدوم ، لأن معايير التعامل التي كانت سائدة في الماضي اضحت اليوم مرفوضة من قبل البلاد النامية التي استوحت من تجاربها الماضية والراهنة قوة الاصرار على المطالبة بارساء نظام عالمي جديد يضمن حقوق المتعاملين جميعاً ، ويفتح امام الفقراء آفاق التنمية الذاتية المتدرجة .

وواجب العرب في السعي الى الاسهام في صوغ نظام عالمي اعدل واصلح يدعـوهم الى تجاوز التظلّم من نزعات الهيمنة والاستثمار التي توجّه رؤى الغرب وتطبع كيفيات تعامله مع الدول النامية ، « ولا سيما ان الدول العربية تملك في هذه الحلبة ورقة اساسية ، يرجى ان تسخّرها من اجل خيرها وخير الانسانية ، نعني ورقة البترول ، بل هي تملك ما هو اثمن من تلك الورقة ، نعني قيم تراثها العربي الاسلامي الاصيل التي تقف اليوم شامخة عزيزة امام افلاس الايديولوجيات العالمية في الشرق والغرب »[٣] .

فبالقيم الروحية والحضارية التي تمثل نسغ الاصالة العربية يستطيع العرب ان يصمدوا في وجه التيارات المذهبية الغازية من كل صوب ، وان يقيموا التحاور مع غيرهم على اساس التعاون والتسامح وتكامل الادوار والمصالح ، وان يبتدعوا ما فيه التكيف الواعي في المناخ الحضاري الجديد ، والنجاح في توجيه مسار التاريخ نحو مصير افضل تكـون فيه البشـرية أقـدر فأقـدر على لفظ منطق التعصب والعنصرية والاستغلال والاستعباد .

وبالنفط يمكن للعرب ان يوفروا ما هم بحاجة اليه من أسبـاب التصرف العقلاني في طاقـاتهم ومواردهم وان يستعدّوا لعصر ما بعد النفط لان التسليم بان مدخراتهم من هذه المادة آخذة في النفاد ينبغي ان يحضّهم على اتخاذ كل ما هو متاح لهم منها الآن خميرة لمستقبلهم ، ومفتاحاً للعهد الذي سيكون فيه اقتصادهم مبنياً ، بالضرورة ، على غير الكميات الضخمة من الخامات التي يملكـون في الوقت الحاضر .

---

(١) « الرائد الرسمي للجمهورية الفرنسية ، » (جلسة ٣٣ تموز / يوليو ١٨٨٥) ، ص ١٦٠٢ .

(٢) عبدالله عبدالدائم ، « التربية العربية امام تحديـات العهد » ، **الآداب** ، السنـة ٢٨ ، العددان ١١ و١٢ (تشرين الثاني / نوفمبر ـ كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٠) ، ص ٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤ .

وللتدليل على ان العرب محتاجون حقاً الى مراجعة الطرائق التي يتصرفون بها في وسائلهم وثرواتهم الحالية ، يكفي ان نذكّر بانّ الناتج القومي الاجمالي ، في البلدان العربية كلها ، لا يتجاوز ربع الناتج القومي الاجمالي الخاص باليابان ، وعشر الناتج الاجمالي للولايات المتحدة الامريكية . ويعني هذا ، فيما يعنيه ، انّ ميل بعض الغربيين الى وصف يسار البلاد العربية وصفاً اسطورياً احياناً لا يعدو ان يكون محض مغالاة مقصودة ، او نتيجة لجهل حقائق الاحوال الماثلة خارج حدود المحيط الغربي .

ان اكثر من عشرين مليون عربي يعانون الآن من سوء التغذية . وسيكون العرب عام ٢٠٠٠ محتاجين الى استيراد نصف ما يلزمهم من الحبوب . وستزداد تبعيتهم للغرب اتساعاً إبان العقود القليلة القادمة بحكم بقائهم خارج مجالات الابداع العلمي والتقني الذي يتطور نسقه بسرعة اكبر فاكبر .

وبقاء العرب على هامش الثورة العلمية والتكنولوجية لا يعني سوى انحصار دورهم في تلقّي المغريات الاستهلاكية والغرق في خضمّ التبعية الاقتصادية التي تكون صورتهم فيها مشابهة لصورة « الطفل الذي تقدّم له الالعاب ليتلهي بها ، دون ان يعي آليتها ، او يدري لها علة او نتيجة »[٤] .

فاقتصارهم على شراء المنتجات التكنولوجية واستيراد مظاهر التقدّم لا يفضي بهم الى غير التفريط في حريتهم ؛ اذ لا استقلال لمن يأكل من وراء البحر ، ويربط مجرى حياته اليومية بما يجدّ بعيدا عنه في مركبات الانتاج وشركات التسويق والوساطة سواء أكانت وطنية ، أم متعدّدة الجنسيات .

- ٢ -

والمستخلص من عرض هذه المعطيات هو انّ كرامة العرب وانشغالهم الشرعي الواعي بصيرورتهم يقتضيانهم البدء ، بالجدّ اللازم ، في البحث عن الحلول التي تستدعيها مشاكلهم المتراكمة منذ احقاب طويلة ، والتي لم تنفكّ تتوالد وتزداد تعقّدا وحدّة من جرّاء استفحال الازمة الاقتصادية العالميّة .

فما هي السبيل الى استنباط هذه الحلول ؟ أهي استجلاب النظريات والرؤى كما تستجلب السلع ؟ ام هي دراسة الواقع العربي في خصوصياته المميزة من اجل ضبط الاوكد من المسؤوليات ، ووعي مستلزمات النهوض بأعبائها ؟

ان «الاجابة عن هذا السؤال الضخم الواسع كثيرة الجنبات . غير انّ اهمّ ما فيها الربط الوثيق بين معالجة مشكلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ومشكلات تنمية الثروة البشرية ، بل انّ تنمية الثورة البشرية تقع في القلب منها ، ومن دونها لن يكون العلاج الاّ سطحياً زائفاً عابراً ، وفوق هذا وذاك ، لا علاج للأزمة العالمية بتمامها الاّ عن طريق تجويد الانسان وتجويد تكوينه والارتفاع بطاقاته الخلاّقة المبدعة »[٥] .

وواضح ان المقصود هنا هو انّه لا تنمية بدون تربية تذكي قدرات الاجيال الطالعة على العمل المبدع ، وتخرّجها ، منذ مبعة الصبا ، على التوق الى الافضل والحرص الرشيد على استجماع اسباب الظفر به . أوَ ليْس التخلف الاقتصادي والاجتماعي نتيجة مباشرة للتخلف التربوي ؟ أوَ ليْس تفوّق الشمال على الجنوب مستمَدّاً من التفاوت الكبير في قواهما العلمية والتكنولوجية ؟ أوَ لَمْ يُقَلْ للعالم

---

(٤) مطاع صفدي ، « التقدم العربي والمجتمع الاستهلاكي » ، **الفكر العربي** ، السنة ١ ، العدد ٧ (١٥ كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٨ ـ ١٥ كانون الثاني / يناير ١٩٧٩) ، ص ١١ .

(٥) عبدالدائم ، « التربية العربية أمام تحديات العهد » ، ص ٥ .

الثالث : اذا اردت الحصول من بقرتك على كمية أوفر من اللبن فتعلّم ، واذا اردت غنم اكبر كمية ممكنة من الحبوب او الفواكه من الهكتار الواحد فتعلّم ، واذا اردت ان تحسن استعمال الاسمدة الكيميائية فتعلّم ؟

هذا ما يحتاج الوطن العربي اليوم الى التعمّق في تدبّره كيما يقبل على اصلاح اوضاعه التربوية اصلاحاً عقلانياً يتيح له تكوين الكفاءات العلمية والمهارات التقنية اللازمة لنمائه الشامل ويغنيه ، بالتالي ، عن خدمات الخبراء الاجانب الذين لا همّ لهم الاّ استنزاف موارده ، وحبسه في منزلة المستهلك التّابع .

ففي المستوى الكمّي ، تجدر الملاحظة بانّ الخدمات التربوية التي اتّسع مداها في البلاد العربية خلال العقديْن الاخيريْن خاصة ، لم تشمل نسبة مهمة من الاطفال والمراهقين . ويبيّن الجدول رقم (١) أنّ معدّلات التسجيل المدرسي متفاوتة تفاوتاً ملحوظاً من بلد عربي الى آخر وانّ انخفاض نسبة التلاميذ الذين يلتحقون بمؤسسات التعليم الثانوي تدعو حقّاً الى الانشغال الجدّي .

جـــدول رقـــم (١)

نسبة التسجيل المدرسي بالبلاد العربية ، للسنوات ١٩٧١ ـ ١٩٧٦

البلـــد	الابتدائـــي (٪)	الثانـــوي (٪)
الاردن	١٨٢,٧	٤١,٦
الامارات العربية المتحدة	١٠١,٦	٢٢,٤
البحريـــن	١٠١,٤	٥١,٤
تونـــس	٩٥	٢٧[1]
الجزائـــر	٨٩	١٩
الجماهيرية الليبية	١٤٥	٤٥
السعوديـــة	٤٤	١٧,١
الســـودان	٤٠	١١
سوريـــة	—	—
الصومـــال	٥٨	٤
العـــراق	٩٢,٦	٣٤,٥
عُمـــان	٢٠	٠,٢
قطـــر	١٠١,٧	٤٧,٤
الكويـــت	٩٢,٩	٦٧,٢
لبنـــان	١٣١,٨	٣٨,٣
مصـــر	٧٢	٤٠
المغـــرب	٦١	١٦
موريتانيا	١٧	٣
اليمن الجنوبي	٢٤,٣	٢,٨
اليمن الشمالي	٧٥,٨	١٨,٨

(١) ارتفعت هذه النسبة في تونس إرتفاعاً ملحوظاً ابتداء من حزيران / يونيو ١٩٨٠ .

ملاحظة عامة : تشير العلامة « — » الى ان البيانات غير متوفرة .

المصدر : احتسبت من : **نشرية الديموغرافيا والتنظيم العائلي** ، العدد ٢ (حزيران / يونيو ١٩٧٤)

ففي حين بلغت الموازين المخصصة لقطاع التربية سقفاً يعسر تجاوزه في بعض البلدان العربية كتونس والجزائر والاردن مثلاً ، ظلّت النفقات التعليمية في بعض البلدان العربية الأخرى ادنى ممّا تحتّمه الحاجة وممّا يسمح به حجم الدخل القومي كما هو الشأن بالنسبة الى عمان والمملكة العربية السعودية خاصة .

لهذا ينبغي ألّا نذهل حينما نشير الى ما تحقق داخل الوطن العربي في مستوى النمو التربوي الكمّي ، ولا بد من لفت النظر الى الاشواط الكبيرة التي يتعيّن العمل على قطعها بغية الوصول الى تعميم التعليم الاساسي ، والزيادة في توسيع التعليم الثانوي والتعليم العالي .

فمن بداية الستينات حتى أواخر الثمانينات تضاعف عدد التلاميذ في المرحلة الابتدائية ، داخل الوطن العربي ثلاث مرات ، وتضاعف عدد التلاميذ في المرحلة الثانوية ستّ مرات ، وتضاعف عدد الطلبة في الكليات والمعاهد العليا ثماني مرات . ولكنّ هذا التطوّر لم يكف بعد ، على أهميته الظاهرة ، لاستيعاب أعداد غفيرة ممن هم في سنّ الدراسة . ولعله من المفيد ان نشير هنا الى ان التعليم الابتدائي في البلاد العربية لم يشمل ، ابّان العقود الثلاثة الاخيرة ، الّا ٦٣ بالمائة من مجموع الاطفال العرب . ولم يشمل التعليم الثانوي الّا ٣٦ بالمائة ممّن بلغوا مرحلة عمرية تسمح لهم بمتابعته . ولم تتجاوز نسبة الطلاب العرب ٧ بالمائة ممّن هم في سنّ الدراسة الجامعية[٦] .

والذي يمكن استنتاجه من تحليل الجدولين رقم (٢) ورقم (٣) هو انّ نسق الانفلاق الديموغرافي في البلاد العربية سيسهم ، الى حدّ بعيد ، في تنويع الصعاب المترتّبة على توسيع الخدمات التربوية استجابة للمطالب المتزايدة بسرعة كبيرة ، وخصوصا انّ أهمّ ما تتميّز به التركيبة السكانية هو اتّساع القاعدة الهرمية : إذ انّ نسبة الاطفال (من صفر الى ١٤ سنة) مهمة جدّا في حين انّ نسبة الافراد الذين تجاوزوا الرابعة والستين واضحة الضآلة[٧] .

فلقد بلغت نسبة الاطفال ، في الوطن العربي ، ٤٤،٥٣ بالمائة من مجموع السكان سنة ١٩٧٥ ، في حين انّها لم تتجاوز ، خلال السنة نفسها ٣٦ بالمائة داخل البلاد المصنعة ، و٤٠ بالمائة في البلاد النامية[٨] .

وستولّد هذه الظاهرة الديموغرافية ضغوطاً عديدة اخرى في العقود المقبلة ، وبخاصة فيما يتعلّق بتوفير فرص التعلّم ومواطن العمل . وقد لا تنجح البلدان العربية في مجابهة كل ذلك ان هي لم تحرص ، استعداداً لدخول القرن الحادي والعشرين ، على تحقيق التكامل اللازم بين جهودها وامكاناتها المادية والبشرية من اجل ضبط خطط تنموية اكثر واقعية ، وأحكم هيكلة ، وأوضح غائية .

---

(٦) وردت هذه المعطيات الاحصائية في : المصدر نفسه ، ص ٥ .

(٧) انظر : الصادق الساحلي ، « الاتجاهات والتوقعات الديموغرافية في الأقطار العربية وتأثيرها على خطة التنمية » ، **المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية** ، العدد ٦٥ (١٩٨١) ، ص ٥٥ ـ ٧٣ .

(٨) انظر : احمد عبدالعزيز شلبي ، « نحو استراتيجية لتلبية الاحتياجات الأساسية للطفل العربي » ، **المستقبل العربي** ، السنة ٣ ، العدد ١٩ (ايلول / سبتمبر ١٩٨٠) ، ص ٦٢ .

جـــدول رقـــم (٢)

التطور السكاني في البلاد العربية ، للسنوات ١٩٧٥ ـ ٢٠٠٠

البلـــد	حجـم السكـان بالآلاف	
	١٩٧٥	٢٠٠٠
الاردن	٢,٦٨٨	٥,٨٨٩
الامارات العربية المتحدة	٢٢٢	٤٧٤
البحريـــن	٢٥١	٥٣٦
تونـــس	٥,٧٤٧	١٠,٨٥٣
الجزائـــر	١٦,٧٩٢	٣٥,٦٦٣
الجماهيرية الليبية	٢,٢٥٥	٤,٧٣٧
السعوديـــة	٨,٩٦٦	١٨,٦٠٠
الســـودان	١٨,٢٦٨	٣٨,٩٧٧
سوريـــة	٧,٢٥٩	١٥,٨٢٤
الصومال	٣,١٧٠	٦,٥٤٤
العـــراق	١١,٠٦٧	٢٤,٤٤٥
عُمـــان	٧٦٦	١,٦٣٩
قطـــر	٩٢	١٩٧
الكويـــت	١,٠٨٥	٣,١٨٣
لبنـــان	٢,٨٦٩	٦,١١٨
مصـــر	٣٧,٥٤٣	٦٤,٥٨٨
المغـــرب	١٧,٥٠٤	٣٥,٩٠٤
موريتانيا	١,٢٨٣	٢,٢٨١
اليمن الجنوبي	١,٦٦٠	٣,٤٢٥
اليمن الشمالي	٦,٦٦٠	١٣,٧٥٣
المجمـــوع	١٤٦,١٥٥	٢٩٤,٦٣٠

المصدر : احتسبت من : الأمم المتحدة ، **لمحة عن الوضع الديمـوغرافي في العـالم** ، سنة ١٩٧٧ ، الـدراسات الديموغرافية ، ٦٣ (نيويورك ، ١٩٨٠) ، نقلاً عن : الصادق الساحلي ، « الاتجاهات والتوقعات الديموغرافية في الاقطار العربية وتأثيرها على خطة التنمية ، » **المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية** ، العدد ٦٥ (١٩٨١) ، ص ٦٦ ـ ٦٧ .

على انّ الذي يجدر التأكيد عليه هو انّ حلّ المشاكل الناتجة عن التطور التربوي الكمي لا يمثّل ، في ذاته ، تطوّراً ايجابياً يذكر ؛ اذ ان الخدمات التربوية لا تكون مجدية بحق الاّ متى تم التوصّل الى جعل التعليم وسيلة لتربية القدرة على الخلق وتعميق السيطرة الواعية على الواقع ، وشحذ العزم على تطويره في اتجاه الافضل . ويمكن القول بان تجويد الخدمات التربوية هو أصلح علاج لمشكلات الكيف نفسها ، لأنّ المقصود بهذا التجويد لا يتمثّل ، في النهاية ، في غير تمكين التـربية من تفجـير التنمية الاقتصادية والاجتماعية في عامة ابعادها .

جدول رقم (٣)
توزيع السكان العرب حسب الفئات العمرية العريضة . للسنوات ١٩٧٠ ـ ١٩٧٧

القـــارة	الفئـات العمريـة					
	صفر ـ ١٤ سنة		١٥ ـ ٦٤ سنة		٦٥ سنة فاكثر	
	١٩٧٠	١٩٧٧	١٩٧٠	١٩٧٧	١٩٧٠	١٩٧٧
افريقيا الشمالية						
الجزائر	٤٧	٤٨	٤٨	٤٨	٥	٤
مصـــر	٤٧	٤١	٥٠	٥٦	٣	٣
ليبيـــا	٤٨,٧	٤٩	٤٧,٤	٤٧	٣,٩	٤
المغـــرب	٤٦,٤	٤٦	٥١,١	٥٢	٢,٥	٢
الســودان	٤٨	٤٤	٥٠	٥٣	٢	٣
تونـــس	٤٤,٦	٤٥	٥١,٢	٥١	٤,٢	٤
افريقيا الغربية						
موريتانيا	٤٢,٢	٤٢	٥٢	٥٢	٥,٨	٦
افريقيا الشرقية						
الصومـــال	—	٤٥	—	٥٣	—	٢
آسيا الجنوبية الغربية						
السعودية	٤٤,٧	٤٥	٥٢,٦	٥٢	٢,٧	٣
البحريـــن	٤٦,٤	٤٤	٥١,٢	٥٣	٢,٤	٣
الامارات العربية المتحدة	٤٤,٤	٣٤	٥٣	٦٣	٢,٦	٣
العـــراق	٤٨,٩	٤٨	٤٧,٨	٤٩	٣,٣	٣
الاردن	٥١,٥	٤٧	٤٥,٦	٥٠	٢,٩	٣
الكويت	٤٤,٣	٤٤	٥٤,١	٥٤	١,٦	٢
لبنـــان	٤١,٦	٤٢	٥٣,٥	٥٣	٤,٩	٥
عُمـــان	٤٦,٠	٤٥	٥١,٣	٥٢	٢,٧	٣
قطـــر	٤٤,٤	٤٥	٥٣,٠	٥٢	٢,٦	٣
سوريـــة	٤٩,٣	٤٩	٤٦,٣	٤٧	٤,٤	٤
اليمن الجنوبي	٤٧,٨	٤٦	٤٨,٢	٥١	٤,٠	٣
اليمن الشمالي	٣٦,٧	٤٨	٥٨,٦	٤٩	٤,٧	٣
اوروبا الغربية						
فرنسا	٢٤	٢٤	٦٣	٧٢	١٣	١٤
المانيا	٢٤	٢١	٦٣	٧٤	١٣	١٥

ملاحظة عامة : تشير العلامة « ـــ » الى ان البيانات غير متوفرة .

المصادر : احتسبت من : الامم المتحدة ، المصدر نفسه : **السكان والمجتمعات** (المعهد القومي للدراسات السكانية) ، العدد ١٢٦ (تموز / يوليو ـ آب / اغسطس ١٩٧٩) ؛ **جمعية الديموغرافيين العرب** ، العدد ٢ (١٩٧٨) ، والساحلي ، المصدر نفسه ، ص ٥٨ ـ ٥٩ .

انّ اوّل ما يسترعي الانتباه في تشخيص الوضع الذي يبدو فيه التعليم في الوطن العربي الآن هو « احادية التوجه الكمّي او اتّباع استراتيجية النمو الكمّي للتعليم ... فعلى الرغم من الزيادة في عدد المدارس والمعلمين والتلاميذ والكتب والادوات والمعدّات وفي ميزانيات التعليم ونفقاته العامة فانّ هذا التعليم [...] لم يصلح كثيراً من شأن الافراد الذين حظوا به . فليس غريباً اذن ان يحذّر بعض المربين من اسطورة التعليم الاكاديمي [...] ويشدّدون على اعادة البنى التربوية في المناهج والنظم وطرق التدريس والتقويم ، بحيث يتنوع التعليم ويستمر ويتجدّد [...] ويشمل التعليم الاكاديمي والفني [...] والزراعي ، كما يشمل البنى النظامية كالمدارس والجامعات والبنى غير النظامية كمراكز التدريب وبرامج التعليم الاضافي في الجامعات ... »[٩] .

وليس غريباً أيضاً ان تشتد المناداة بضرورة السعي الى احكام الربط بين مخططات التكوين ومخططات العمل الانمائي في اوسع معانيه كيما يكون قطبا التكوين والتشغيل متفاعلين تفاعلاً وظيفياً نشيطاً في نطاق رؤية حضارية قوامها التجذر في الواقع وقبلتها الفوز بأفضل المصائر .

وانعدام هذه الرؤية الحضارية في الوقت الحاضر هو اصل المشكلات التربوية في الوطن العربي كتدنّي المستوى الفكري العام وضعف روح المبادرة ، والزهد في ممارسة الاشغال اليدوية ، والتيه في افلاك المذاهب المتطرفة . وهو نفسه اصل المشكلات الاجتماعية التي تهدّد الكيان العربي في توزانه الداخلي مثل البطالة ، وهجرة العمالة ، وهجرة الكفاءات ، وانعدام التوازن بين الارياف والحواضر ، وعمالة الاطفال ، والتبعية الاقتصادية ، وغيرها ...

ان الخطاب السياسي العربي ، وابحاث الاخصّائيين في التربية وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وغيرها تتلاقى في تبرير الحاجة الى هذه الرؤية الجديدة المنشودة ، ولكنّها لم تتفق بعد ، بالوضوح الكافي ، حول شروط صوغها ، ومقوّمات توظيفها في خدمة المجتمع العربي لعلاج ادوائه الكثيرة ، المزمن منها والمستجدّ ، وبتعزيز قدرته على بناء مصيره بناء فيه من الوفاء للهوية الثقافية والروحية ، ومن التّوق الى الاحسن والأجدى ما يجعله قويّ التماسك ، صامداً أمام عواصف الأطماع ، والضّلالات ، والبدع .

ورأينا انّ تحليل مكوّنات التجربة التنموية العربية ، في خصوصياتها القطرية وأبعادها القومية ، ومقارنتها بالتجربة الغربية لا يجيزان مواصلة الانشغال عن لبّ المسألة التربوية بفروعها وهوامشها وجزئياتها . فالمستفاد من قراءة واقعنا وواقع غيرنا هو انّ العزم على استخراج النماء من الجهد التربوي يقتضي تنمية التربية ذاتها بإغناء وسائلها ، ومراجعة طرائقها وأهدافها بحسب ما تمليه ضرورات التكيف في الاوضاع العالمية الجديدة .

ولما كانت هذه الاوضاع متميزة بغلبة القوة العلمية والتكنولوجية فانّ التكيّف فيها لا يستقيم بحق الّا بامتلاك القدر اللازم من تلك القوة لا على سبيل استيراد المبتكرات الجاهزة بل باستيعاب الأفكار والآليات التي يتطلبها صنعها .

ويعني هذا انّ تمكين العمل التربوي من قيادة العمل التنموي يستلزم تصنيع التربية قبل

---

(٩) محمود احمد موسى ، « خلفيات النظام التعليمي العربي وفلسفته » ، **المستقبل العربي** ، السنة ٥ ، الأعداد ٤٢ ، ٤٣ و٤٤ (آب / اغسطس ـ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٨٢) ، ص ٨ ـ ٩ .

تصنيع المجتمع . فلقد بيّنت حركية التاريخ الحديث أن شعوب العالم الثالث خسرت أحقاباً غير قصيرة من حياتها بسبب الجري حتى اللّهث وراء التكنولوجيا التي يستبدّ بها الغرب ويحتكر اسرارها . وفات هذه الشعوب انّ باب الدخول الى عهد الثورة العلمية والتكنولوجية لا يتمثّل في نقل المصنوعات باهظة الكلفة بقدر ما يتمثل في تعصير التربية واصلاح بنياتها .

فالثورة التكنولوجية في التربية هي مفتاح الحضارة التكنولوجية الجديدة لأنّ هذه الحضارة لا تتمثل في التقنيات مهما بلغت من درجات الأهمية بقدر ما تتمثل في العقلية الجديدة المولّدة لمواقف الحوار الخصيب مع الواقع المتطوّر ، ولقوى التغيير ، والقدرة على التنظيم الضامن للرفع من فعالية استخدام الموارد المتاحة على اختلاف انماطها .

واوكد واجبات العرب ، في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخهم ، هو ان يعوا هذه الحقائق حتى يقبلوا على امتلاك روح الثورة التكنولوجية بواسطة تكوين الادمغة والكفاءات التي تستطيع ان تنهض بمسؤوليات التخطيط التنموي تصوّراً وتنفيذاً ، اذ لا سبيل امامهم ، في هذا السِّبَاق المُسْتَحِر من اجل الفوز بأوفر عدد ممكن من اسباب المناعة والاكتفاء الذاتي في عامة الميادين ، غير السبيل التي سلكتها قبلهم بلدان الشمال التي كانت ، في احقاب سالفة من الدهر ، تنظر لاجدادهم نظر التتلمذ والانبهار . وهذه السبيل هي تهيئة الاجيال القادرة على الاضطلاع بالابحاث العلمية وعلى الاسهام في خلق التكنولوجيا التي لا غنى عنها في تنمية المجتمع وتنشيط حركيته ودعم إشعاعه . ذلك لان دمج العلم وتجسيده عضوياً في المجتمع العربي ، وتطوير حقائقه الى خبرات وتطبيقات تنزل الى اعماق النشاط الاقتصادي هو النموذج التربوي المستقبلي الوحيد الذي يَعِدُ العرب بغد افضل ويستطيع ان يفي بهذا الوعد .

ومفهوم « التكنولوجيا » يشمل « فن استخلاص المواد الاولية الصناعية من الموارد الطبيعية من اجل تأمين المواد والسلع التي من شأنها ان تغطّي الحاجات المادية للانسان [...] وعلم التحضير الصناعي للسلع واساليب التصنيع الحديثة [...] وجميع انواع المعرفة العلمية والمهارات الفنية التي يتطلبها تطوير الآلات وطرق الانتاج والتصميم طبقاً للقواعد الاقتصادية »(١٠) .

وهذا المفهوم يتسع ، كما نرى ، لكل « الاسرار العلمية والخبرات الصناعية والاختراعات المسجلة وغير المسجلة والآلات والتجهيزات وجميع اصول المعرفة الفنية .... »(١١) .

فكيف يمكن للتربية العربية ان تنجح في تكوين الاجيال القادرة على استيعاب المعرفة العلمية واتقان تطبيقها في مختلف قطاعات النشاط ؟ كيف يمكن لها ان تجعل من التكنولوجيا المُبْتَدَعَة عربياً دَمَ الاقتصاد العربي والعصب الحي في المجتمع العربي عامة ؟

- ٣ -

ان معالجة هذه القضية الكبرى ليست هيّنة لأنّ تشابك ابعادها العريضة يستدعي تكامل جهود

---

(١٠) عزالدين صالحاني ، « ملاحظات حول التحويل التكنولوجي ، » **المستقبل العربي** ، السنة ٤ ، العدد ٢٩ (تموز / يوليو ١٩٨١) ، ص ٢٧ .

(١١) المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

الباحثين ، وتراشح افاكارهم بكيفية تيسر النظر في علاقات هذه الابعاد وتأثير تعديلها او تبديلها في العاجل والآجل . لهذا ، نقتصر ، فيما يلي ، على **عرض بعض المقترحات** عرضاً سريعاً ، بغية اجلاء المعطيات التربوية المحض التي تخفي عادة عمّن يهتمّ بالتصدّي لدرس هذه المسألة من الخبراء في العلوم السياسية والاقتصادية والاخصّائيين في علم الاجتماع .

ففيما يتعلّق بالتخطيط التربوي ، يلوح لنا انّ ضبط اهدافه القريبة والبعيدة لا يكون رشيداً بحقّ الاّ متى كان مستخلصاً من الرؤية الحضارية التي سبقت الاشارة الى أهميتها . وبهذا الاعتبار فانه يتعيّن على الساسة ورجالات الاقتصاد ان يقنعوا ، في هذا المضمار ، بالانصات لنداء الوعي الجماعي الذي يمثّله أهل الفكر والمربّون قبل غيرهم باعتبارهم سُرُجَ السواد الاعظم من الناس ، لشدّة قربهم من تطلعات الشباب وقوّة استعدادهم للتحاور مع الواقع النظري الذي هو الواقع الممكن المطلوب تأسيسه على انقاض الواقع الماثل .

ولا يعني هذا انّ التفكير في الصيرورة وقف على فئة معينة من الناس ، بل ان غاية ما يعنيه هو وجوب الاستفادة من نتائج الاستقصاء الموضوعي بحيث يكون القرار نابعاً منها ، غير متأثّر بما هو خارج عنها .

ومن الساسة ورجالات الاقتصاد من بوسعهم ، بحكم انتسابهم لأسرة الباحثين واهل الفكر ، ان يسهموا اسهاماً مرموقاً في الاهتداء الى ما به فهم الاحوال والعمل على تحسينها . ولكنّ هذا لا ينبغي ان يجيز لهم تقديم الانكباب على معالجة الضغوطات الظرفية على الاهتمام بتطبيق الاختيارات الاساسية التي تمّ الاجماع على أهميتها .

فادا ما نادى المربّون مثلاً ، وهم ينادون بذلك فعلا ، بوجوب رصد الاعتمادات اللازمة لإثراء التكنولوجية التعليمية بإنشاء مخابر التجريب وورشات التدريب وتوفير الآلات العصرية والمواد الخام او المصنّعة ، ينبغي أن يفهم قصدهم النوعي حقّ الفهم . فهم لا يدعون الى الانشغال عن الخدمات الاجتماعية الاخرى بمشاكل التربية وحدها بقدر ما يؤكدون على استحالة التوصّل الى تكوين الخبرات التكنولوجية بطرائق تربوية مشتقة من ملابسات العصر السابق للثورة العلمية والتكنولوجية . ويكون من حقّ المهتمين بشؤون الاقتصاد ان يحضّوا المربين ، في اطار الجدل المستمر بين هؤلاء واولئك ، على تعهّد تكوينهم المهني بغية الرفع من درجة القدرة على التعامل مع التقنيات التربوية (البيداغوجية) الحديثة تعاملاً واعياً ييسر تسخيرها لتحقيق الاهداف المنشودة في الآجال التي يتم تحديدها في نطاق استراتيجية التنمية الاقتصادية والاجتماعية . فصحّة الرأي القائل باستحالة استخراج مجتمع جديد من تربية قديمة لا تسقط حقّ القول باستحالة تصنيع التربية بالاعتماد على اساليب التلقين والعرض النظري .

إنّ تطويع التكنولوجيات في اتّجاه تسخيرها لخدمة الاغراض التربوية عمل غير هيّن . وهو يستوجب الإقدام على ضبط سياسة تكوين المكوّنين في اتّجاه تعميق وعيهم بطبيعة الكائن التكنولوجي ، وبطبيعة منزلته في العملية (البيداغوجية) . أفَلَا يُعَدّ استعمال الكثير من الوسائل التربوية التكنولوجية التي تُجَهَّزُ بها المدارس والمعاهد والكليات العربية ، في البلاد المنتجة للنفط خاصة ، ضرباً من التعلّق بالمظاهر والموضات (البيداغوجية) ؟ فهل تمّ التوصّل بعدُ الى اعداد الاطر القادرة على استخدام التلفاز والحاسبات الالكترونية وادارة الاقراص الاذاعية وطرائق تحليل الانظمة وغيرها من

التكنولوجيات بالقدر الكافي من الوعي (البيداغوجي) ؟ أفيمكن النجاح في السيطرة على الآلة اذا لم يعرف من يستخدمها الهدف من الاستعانة بها ، والوقت الملائم لذلك ، وطريقة اصلاحها متى طرأ عليها عطب ؟

هذه اسئلة لا ينقطع حبلها . ولا يتعدّى القصد من طرحها التنبيه الى انّ مقاومة « الميثولوجيا البيداغواجية » كما يقول بعضهم[١٢] لا تتمّ بغير العمل على تكوين المربّين تكويناً عميقاً يتيح لهم اكتناه اهداف العمل وانتقاء المواقف والوسائل الكفيلة بتحقيقها .

ولعلّنا نعيد حديثاً غدا الآن مكروراً حينما نقول : إنّ حجر الزاوية في السياسة التربوية انّما هو تكوين المربين الاكفاء ، وإنّه على البُلْدَانِ العربية الا تبخل باقصى ما تستطيع رصده لعمليات هذا التكوين ، لأنّ المخابر والوسائل التي تستوردها لا تكون صالحة لرفع انتاجية المؤسسات التعليمية الاّ متى كانت مستخدمة رشيد الاستخدام . وَرَأْيُنَا ، في هذا الصدد ، هو انّ احتياج البلدان العربية الى تربية جديدة تستخدم التكنولوجيا لِتَلِدَ القدرة على توليدها يقتضيها التفكير في توجيه أعداد مهمة من المترشحين لممارسة العمل التربوي نحو بلاد الشمال قصد امتلاك آليات التصرف في الوسائل التعليمية المستحدثة من الوجهتين التقنية و(البيداغوجية) . كما يقتضيها العمل على توفير اكثر ما يمكن من التجهيزات التكنولوجية في المدارس والمعاهد والجامعات وعلى تعهّدها بالتجديد الدائب لتكون خططها التربوية متفاعلة مكين التفاعل مع التيارات التكنولوجية ، مستفيدة بسرعة من أحدث ما تفرزه من اختراعات وابتداعات .

ولاستفادة العمل التربوي من الحركة التكنولوجية أوجه عدّة ، ضبط بعضها في التقرير الذي أَعَدَّتْهُ « لجنة التكنولوجيا التعليمية » سنة ١٩٧١ وقدّمته للكونغرس الامريكي الذي استخرج منه مجموعة من المقترحات عرضها على رئيس الولايات المتحدة لتحقيق تطبيق التكنولوجيا تطبيقاً فعّالاً في التربية[١٣] .

فلقد بيّنت هذه اللجنة التي أشرفت على أعمالها « سيدني تيكتون » (Sidney Tiction) ، بعد التأكيد على انّ قيمة التكنولوجيا التعليمية رهينة القدرة على استخدامها استخداماً (بيداغوجيا) وظيفياً، رهينة الاتّساق والتّلازم « بين الآلة والمحتوى والبرامج والطرائق وسهولة الاستعمال ... »[١٤].انّ التكنولوجيا ترفع من انتاجية النشاط التربوي بتيسير تعليم المهارات الاساسية ، وتيسير التعلّم الفوري ، وتشجيع الجهد الذاتي ، وفتح آفاق التفاعل بين المتعلّمين الفوري ، وتشجيع الجهد الذاتي ، وفتح آفاق التفاعل بين المتعلّمين فيما بينهم ، وبينهم وبين المربّين ، و« بإيصالها خبرات الثقافة والعلم الى كل الاصقاع والمناطق النائية ... »[١٥] .

انّ العالم يسير بخطى حثيثة نحو الزمن الذي سيتمكّن فيه الافراد ، سواء أكانوا في البيوت أم في

---

(١٢) أحمد صيداوي ، « التكنولوجيا والتربية ، » **الفكر العربي** ، السنة ١ ، العدد ٧ (١٥ كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٨ ـ ١٥ كانون الثاني / يناير ١٩٧٩) ، ص ١٢٣ .

(١٣) انظر : المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ١٣٠

مواطن العمل أم في مؤسسات التعليم ، من الاتصال مباشرة ببنوك المعلومات بواسطة أجهزة خاصّة تَسُدُّ مَسَدَّ المعلم او المـدّرب الذي يوفّر المعطيات المبتغاة توفيراً فورياً[١٦] .

لهذا ، يُعتبر تبنّي التكنولوجيا في النظام التربوي ، واتخاذها وسيلة عمل على تعميق التكامل بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية الجسر الذي لا بدّ منه في عملية اجتياز الحاضر نحو المستقبل لأنّ هذا العبور لن يتسنّى لغير المدفوعين بقوّة العلم والتكنولوجيا التي لا تُشْترى ، ولا تُنْقَل بل تُبنى بناء ذاتياً في أدمغة المتعلمين من النشء ، وفي ضمائرهم داخل مؤسسات التربية والتكوين .

وتبنّي التربية للتكنولوجيا لا يبدو في معناه الاحق ، ومداه الأبعد الّا متى استطاعت التربية ، بفضل استخدام التكنولوجيا ، أن تكوّن المبدعين والمهنيين المهرة ، وتفتح أمامهم آفاق العمل على تطبيق ما اكتسبوا تطبيقاً يفكّهم ، شيئاً فشيئاً ، من قيود التبعية الاقتصادية ويعمّق اقتدارهم عـلى خلق التكنولوجيا المستجيبة لخصوصيات واقعهم واحتياجاته القريبة والبعيدة .

وليس أمام العرب الذين لم ينفكّوا ، في مضمار العلوم التجريبية وتطبيقاتها العديدة المختلفة ، يعيشون على فتات الغرب الجشع الّا أن يوجّهوا قواهم البشـرية والطبيعيـة والماليـة الراهنـة نحو استجماع اسباب القدرة على صنع غذائهم التكنولوجي بتوسيع شبكات التعليم التقني وتجويـده ، وتنشيط البحث العلمي وجعله موقد التأثير الايجابي على البيئة العربية ليستقيم فيها الاتّساق بـين العناصر المادية والاقتصادية ، والمكَوِّنات الاجتماعية والفكرية .

فبالتعليم التقني المؤسَّس على قواعد الدقّة والواقعية والانتاجية يمكن إعداد أوفر عدد ممكن من المهارات التي يحتاج اليها الوطن العربي في ميادين الزراعة والصناعة الخفيفة والصناعة الثقيلة وسائر ميادين العمل التي تجلّى فيها عجز أساليب التصرُّف التقليدي والخبرات المستوردة على تحقيق التغيير المطلوب منذ أمد ليس بالقصير .

وبالبحث العلمي الذي يجب أن تتكامل فيه جهود البلاد العربية يمكن الاهتداء الى ابتكار الحلول الصحيحة التي تتطلبها مشاكل المجتمعات العربية لأنّ ممارسة التجريب الموجَّه بـأضواء التفكـير التنظيري هي التي تنجب صفوة الرؤى من عقول الصفوة من العلماء العاملين الذين جادت بهم التربة العربية على الانسانية ، في الماضي والحاضر ، بجموع مهمة نرى منها الآن ، بأسف شديد ، أعلاماً جِلَّةً تفرّقوا في ارجاء الغرب إمّا لانهم لم يجدوا في أوطانهم الاصلية متطلبـات البحث العلمي والعوامـل المشجعة عليه ، وإمّا لانّهم فضّلوا استبدال مجتمعاتهم بغيرها تنكّراً وانبتاتاً .

ويبيّن الجدول رقم (٤) أهمية الميادين التي تستفيد فيها امريكا وأوروبا من الكفاءات العربية التي تجاوز عدد منجزاتها العلمية في الخارج عدد ما تسنى انجازه ، خلال المدة نفسها ، داخل الوطن العربي الذي هو اشدّ حاجة الى اشعاع ابنائه وطاقاتهم الابداعية .

---

(١٦) بعض هذه الاجهزة دخل في طور الاستعمال في البلاد المصنّعة كالولايات المتحدة واليابان مثلاً . ويُنتظر أن يتّسع مدى هذا الاستعمال اتّساعاً كبيراً جدّاً في المستقبل القريب .

جـــدول رقـــم (٤)
عدد البحوث التي أنجزها علماء عرب في مختلف أنحاء العالم موزّعة جغرافيا وحسب الميادين العلمية . للسنة ١٩٧٧

الميـــدان العلمـــي	الاقطار العربية	اميركا	اوروبا	مناطق مختلفة	المجموع
علوم هندسية وتقنية	٤٧٠	٤١٧	١٥٩	٧٨	١١٢٤
علوم زراعية وبيئية	٨٦٧	٣٠٣	١٦٣	٤٧	١٣٨٠
علوم فيزيائية ورياضية	٢٢٦	٤٦٦	٣٤٣	٣٨	١٠٧٣
علوم كيميائية	٦٢٧	٣٧٣	٣١٩	١٩	١٣٣٨
علوم الحيـــاة	٣٦٦	١٠٥٤	٥٧٩	٤٦	٢٥٤٥
المجمـــوع	٣٠٥٦	٢٦١٣	١٥٦٣	٢٢٨	٧٤٦٠

المصدر : احتسبت من : محمد هشام خواجكية ، « استنزاف العقول العربية : نتائج الظاهرة وأسبابها السياسية والاجتماعية ، » **المستقبل العربي** ، السنة ٣ ، العدد ١٢(كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٠) ، ص ٣٥ .

ويبدو من الجدول رقم (٥) ان الولايات المتحدة الامريكية وحدها قد استقطبت كفاءات غير قليلة ، في ميادين الهندسة والعلوم الطبيعية والطب والعلوم الاجتماعية وغيرها ، من المشرق العربي والمغرب العربي على حدّ سواء .

جـــدول رقـــم (٥)
هجرة العقول العربية الى الولايات المتحدة ، للسنوات ١٩٦٢ ـ ١٩٦٩

البلد	فنيون	مهندسون	علوم طبيعية	علوم اجتماعية	اطباء	ممرضات	مجموع الفنيين	المجموع العام
الاردن	٨٨٦	١١٧	٤٧	١١	٢٧	٤٢	١١٣٠	٩٥٤٨
تونـــس	١٣٩	٤	٦	٢	١٣	٢	١٦٦	٤٩٧
الجزائر	١١٣	١٢	٢	١	٦	١	١٣٣	٩٨١
سوريـــة	٤٦٣	١٢٩	٣٠	٥	٤٣	١٣	٦٨٣	٢٤٠٦
العـــراق	٧٩٤	١٦٥	٦٧	٤	٤٥	١٣	١٠٨٨	٤١٩٢
لبنـــان	١٢١١	٢٧٧	٩٥	٢٠	١٦٩	٩٧	١٨٦٩	٨١٩١
مصـــر	٢٧١٦	٥٧٠	٢٤٠	٤٦	٢٤٧	٢٥	٣٨٤٤	٩٣١٥
المغـــرب	٢٣٨	١٨	٤	٢	١٤	٩	٢٨٥	٢٤٧٣
المجموع	٦٥٦٠	١٢٩٠	٤٩١	٩١	٥٦٤	٢٠٢	٩١٩٨ بمن فيهم الفلسطينيون	٣٧٦٠٣

المصدر : احتسبت من : المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

ولو استخدمت هذه الكفاءات في اقطارها الاصلية لما كان نسق النمو في هذه الاقطار على ما هو عليه الآن من بطء ، ولما بلغت حاجتها الى امريكا نفسها ما بلغت بعدُ من شدّة في ميادين التجهيز والتسليح والغذاء وغيرها .

إنّ هجرة الادمغة العربية التي كان لبعضها اسهامات مرموقة في أحدث ضروب الاستكشاف والابداع التقني في الولايات المتحدة الامريكية ، وكندا ، وبلدان اوروبا الغربية وغيرها ، تشكّل ، بلا ريب ، أعلى الدرجات في هدر الطاقة الذاتية التي يهبها العرب لغيرهم في ذات الحين الذي هم في اشدّ حاجة اليها لجمع كلّ ما تشعّث من أمرهم والخروج من عهد التخلّف والعجز والتبعية .

وظاهرة الهدر هذه موازية في السلوك العربي الجماعي لظاهرة ضعف الوعي وانعدامه أحياناً اذ انّ التفريط في فتوّة الشباب بفتح المسالك امام هجرة السواعد ، وفي قوّة الفكر بعدم الاقدام على استقطاب الباحثين والمخترعين الوطنيين ، وفي الامكانات المالية ببذل الاثمان الباهظة لاقتناء ما لفظته معايير الانتاج العقلاني في البلاد المصنّعة ، او بتصدير المواد الوطنية بأَبْخَس الاسعار ، لا يمكن أن يُسْتَساغ إلاّ من قِبَلِ من لم يَعِ جوهر التخلّف ، ولم يتدبّر ما فيه التقدّم الصحيح ، والفوز بالمستقبل الافضل .

والغريب حقّاً هو انّ انبهار العرب بالغرب جعلهم يظنون ان استقامة حياتهم رهن إعانته لهم . فلو تصدّوا لتقويم علاقاتهم به لتفطنوا ، دون كبير عناء ، الى انّ المساعدات التي يقدّمونها له اهمّ بكثير ، في حجمها ونوعيتها ، ممّا لا يتلقّونه منه الاّ بعد مفاوضات مضنية ، ومساومات ظاهرة او مستترة . وستظلّ العلاقة بين العرب والغرب متّسمة ، كما تبدو الآن ، بالغموض الذي تخفى فيه مصالح العرب حتى على العرب أنفسهم طالما تواصل الظنّ بأنّ مفتاح المستقبل انما هو نقل التكنولوجيا في شكل مصانع تسلّم بمفاتيحها او في شكل مخابر وأدوات ووسائل وغيرها .

فنقل التكنولوجيا لا يعني ، في نظر الغرب ، غير تسويق منتجاته باوفر الكميات الممكنة وبأعلى الاسعار الممكنة . ولكنّ هذه المنتجات لا تكون ، في الغالب ، الاّ من قبيل ما وَلّى امره في البلاد المُنْتِجَة ، او من قبيل ما هو معدّ للاستهلاك وحده .

وخبرة الغرب ، في هذا الميدان ، عجيبة حقّاً فهو يسخّر مكاتب الدراسات ، والوسطاء وأجهزة الدعاية ، والشركات الخاصة ، والشركات القومية ، والشركات متعددة الجنسيات لتصدير بضاعته التي يحتفظ بسرّ ابتكارها ، ولاستثارة وَلَعِ العرب بها . ولذلك فهو يعرف قبل العرب أنفسهم عدد ما يباع سنوياً في الاسواق العربية من ثلاجات واجهزة تلفزيون ملوّنة ، وفيديوهات ، واشرطة سينمائية وغيرها من الوسائل التكنولوجية كالطائرات ، والقطارات ، والدبابات ، والاسلحة الاوتوماتيكية وقطع الغيار ، والحاسبات الالكترونية ، وغيرها ... كما يعرف الغرب ، اكثر من العرب انفسهم ، انّ تطويع التكنولوجيا يتطلّب مهارات لا تتوفّر الآن إلاّ لديْه ، وأنّ اقتصار الوطن العربي ، بل العالم الثالث كله ، على استيراد المصنوعات التكنولوجية الجاهزة لا يزيده الاّ ثراء على ثراء ، ولا يفضي ، بالبلاد المتقبِّلة ، الاّ الى الانبهار اكثر فاكثر بما يسمّيه بعضهم « بعملقة الغرب » ، والى استطابة « التخلّف المصنّع » الذي يَرَوْن فيه ـ وَهْماً وَخَطَأً ـ ما يهيمون به من تقدّم ورقيّ .

انّ نقل التكنولوجيا لا يكون بنقل السلع الجاهزة ، بل بنقل الاسرار والافكار التي هي في حوزة

من يصنعون هذه السلع لالأن التكنولوجيا روح ، وموقف ، وتفكير مبدع ، قبل أن تكون سلعاً ووسائل ، ومعدّات .

وهل أَجْدَى من التربية في ايقاظ العزم على اكتشاف هذه الاسرار واستيعاب هذه الافكار ؟ وهل يحتاج العرب ، في اصلاح حالهم والاستعداد لمجابهة تحديات المستقبل الى غير المربين الذين يستثمرون العلم وتطبيقاته في تخريج الاجيال الجديدة على حبّ العلم والعمل وعلى الايمان بأنها تستطيع ، اذا اخذت نفسها بأسباب البحث والاجتهاد ، وراضتها على فضيلتي الجرأة والمثابرة ، أن تَمْتَاحَ من طاقاتها الخصيبة أسباب الخلق العلمي والتكنولوجي وسائر ما فيه المنعة والعزّة والفوز بالمصير السعيد ؟ □

أزمة السينما العربية والبحث عن مخرج

سيد سعيد

مخرج سينمائي ـ نائب رئيس مجلس
ادارة اتحاد نقاد السينما المصريين .

مقدمة : حول مفهوم ازمة السينما

يكاد المرء يجزم بأنه ما من مجلة ثقافية أو اقتصادية أو سياسية إلا ويتصدر بعض عناوينها كلمة الأزمة ، التي تصبح مركزاً يتجمع عنده كافة التناقضات الفكرية للوطن العربي في شكل مرثاة كئيبة . ولا نبالغ كثيراً ـ مع ذلك ـ إذا قلنا ان الفكر العربي ، مثله مثل الواقع العربي ، يعطي انطباعاً قوياً بأنه يرزح تحت وضعية تأزمية . ويتضح ذلك من أنه حتى عندما ينادي هذا الفكر بتجاوز أوضاع الأزمات العربية فإنه يفعل ذلك في نطاق لغة ملغمة بالمسلمات وبترسانة من المصطلحات والاحكام المسبقة . ويبدو ان من بين جملة الاسباب التي قادت الفكر العربي كثيراً الى طرق مسدودة ـ رغم جديته ونبل مقاصده ـ أنه يميل الى إستخدام لغة تفتقر الى التأسيس النقدي وتتسم بغياب التحديدات المنهجية وبعدم التدقيق في المفاهيم المستخدمة مما يؤدي الى تعثر الحوار بين التيارات المختلفة للفكر العربي .

ولا يخرج مجال الدراسات والنقد السينمائي العربي عن التعميم السابق . فقد شاع استخدام تعبير أزمة السينما العربية . بصورة تفتقر الى التحديد ـ فحتى مصطلح السينما العربية لا يبدو واضحاً بحد ذاته . فهل نقصد بالسينما العربية مثلاً تلك الناطقة باللغة العربية حتى لو أنتجت في الخارج أو قامت باستعارة مبتذلة للنماذج الفكرية والجمالية والدلالية الغربية وخاصة تلك التي لا تمت بصلة للثقافة والواقع العربي ؟ وهل نقصد بها تلك السينما التي تنتج في اراض عربية حتى لو كانت محلية صرفة او موالية لايديولوجية التجزئة العربية ؟ قد نستطيع أن نحل هذه المشكلة بأن نتبنى تعريفاً واسعاً للسينما العربية على أنها تلك الناطقة باللغة العربية حتى نتمكن من فحص السينما السائدة في البلاد العربية شرط أن نحدد المعنى المحدد الذي تستخدم فيه مصطلح العربية ودون التورط في إضفاء صفة « العروبة » على هذه السينما .

على أن مصطلح الأزمة يمثل ويطرح قضايا أكثر خطورة ، مما يتطلب تحديده بدقة قبل ان نلج

في أي مناقشة حول مستقبل السينما العربية . فهناك ثلاثة طرق ـ او مستويات ـ لاستخدام مصطلح الازمة :

١ ـ المستوى الشائع لتعبير الازمة يقصد به موقف غير عادي يتسم بالخروج عن المألوف في تفاعلات اجتماعية بالمعنى الواسع ، ويتصاحب مع درجة بارزة من التوتر والعنف . وبهذا المعنى مثلاً نقول ان هناك ازمة في العلاقات الدولية عندما يصل التناقض او التوتر بين دولتين الى مستوى يخرج عما نعتبره نطاقاً عادياً للعلاقات بين الدول .

٢ ـ مستوى التعبير المنطقي يقوم على استخدام مصطلح الأزمة بمعنى اختلال التوازن الذي يحكم السير العادي للأشياء ، فمثلاً نقول ان هناك أزمة اقتصادية عندما تسود حالة بطالة او تضخم نتيجة اختلال التوازنات الاقتصادية . والمشكلة في هذا المستوى لاستخدام مصطلح الأزمة أنه يفترض أن التوازن حالة عادية ومطلقة ، بالرغم من أنه يتضمن في الواقع جانباً إيديولوجياً بارزاً .

٣ ـ مستوى الاستخدام التاريخي . وهو يعني بمصطلح الأزمة حالة غياب حادة لحاجة اجتماعية تنشأ عندما يتعارض الوضع القائم مع اشباع هذه الحاجات المادية والروحية في وقت تكون فيه القوى الضرورية اللازمة لإشباع هذه الحاجات إما غائبة عن الساحة أو غير قادرة على بلورة الاعتراض على الوضع القائم وتنمية الامكانات الخلاقة في المجتمع وتقديم بديل ثوري للتنظيمات القائمة . وبهذا المعنى مثلاً نقول ان هناك ازمة في الثقافة او السياسة .

ويمكن القول بأن المستويين الأولين يتضمنان مفهوماً للأزمة ذا طبيعة طارئة أو دورية . ويشمل مصطلح الأزمة في تلك الحالة لا وضعاً ماديا صرفاً فقط بل ومكوناً إيديولوجياً مهما ، بمعنى أن الأزمة في تلك الحالة تشير الى وجود وعي اجتماعي لدى فئة او طبقة او شعب معين بعدم التوازن . فأزمة الاسكان مثلاً لا تمثل مصطلحاً مطلقاً لأن البرجوازية لا تشعر بوجود هذه الأزمة . أما المستوى الثالث فهو يتضمن الاشارة الى أوضاع هيكلية تجعل التكيف أو استعادة التوازن أمراً مستعصياً ويتطلب حل الازمة تغيير الهياكل القائمة واعادة بناء هياكل اجتماعية ـ مؤسسية مناسبة لاشباع الحاجات الجديدة . ومثل هذه الأزمة لا بد وأن تنعكس أوضاعها على الوعي الاجتماعي لمختلف الفئات .

وعندما نتحدث عن ازمة السينما ، فلا بد لنا من أن نحدد أي مستوى للتعبير نشير اليه ، ويتطلب ذلك لا تحديد الاوضاع المادية المتضمنة في هذه الأزمة فقط بل وطبيعة القطاعات الاجتماعية التي تنعكس هذه الاوضاع على وعيها والتي تقوم بإسقاط هذا الوعي بصورة أو أخرى من صور التعبير الايديولوجي . وطبقاً لهذا المفهوم فإنه يصعب الحديث عن ان السينما السائدة في البلاد العربية تعاني من أوضاع متأزمة . فإذا قلنا ان هذه السينما تشهد أزمة فإننا نفترض بذلك أن هذه السينما كانت في الماضي أفضل حالاً مما هي عليه الآن . وفي واقع الأمر فإننا لو استخدمنا المؤشرات التي تعتمد عليها هذه السينما نفسها في تقييم أوضاعها أي فرص الربح والنمو المستمر لأدركنا أنه ليست ثمة أزمة . ويصعب الحديث أيضاً عن أنّ المتفرج العربي يشعر بوجود أزمةسينما لأسباب اجتماعيةوسياسيةذات طبيعة تراكمية جعلت وعي الجماهير المتلقية للسينما بعيداً عما يشير اليه مصطلح الأزمة من إحباط اجتماعي وايديولوجي . وفوق هذا فإن الانتاج السينمائي الذي يمثل تعبيراً ايديولوجياً عن الفئات والطبقات السائدة يقوم بدوره المرغوب ـ من وجهة نظر هذه الفئات ـ في تضليل الجماهير وتخريب وعيها السياسي والجمالي . على أنه يبقى هناك شعور حاد بالأزمة لدى قطاع من المثقفين الديموقراطيين والمتمرسين بجماليات السينما ، وهي أزمة لها شقان :

الشق الأولى يـرتبط بالتنـاقض الشامـل بين الـرؤية الاجتمـاعية والجمـاليـة لهـذه النخب الديموقراطية لدور الانتاج السينمائي وتوظيفه في تنمية الملكـات الجماليـة والمشاركـة الاجتماعيـة والسياسية للجماهير من ناحية، وبين الهيمنة شبه التامة للإنتاج الهابط والمخرب على الصعيدين الجمالي والنفسي للسينما السائدة من ناحية أخرى .

وقد كان من الممكن الا تنظر هذه النخبة السينمائية والثقافية لهذا التناقض على أنه أزمة إذا كان من الممكن أن تنظر الى هذا الوضع على انه تعبير في مجال الجماليات والايديولوجيا عن صراع اجتماعي متأجج وحقيقي ، اي لو أنه كان ثمة إنتاج ملموس يعبر عن الرؤية الاجتماعية والسياسية والممارسة الجمالية لهذه النخب . ومن هنا فإن الشق الثاني يمثل الوجه الأصيل للأزمة .

أما **الشق الثاني** فيرتبط بعجز هذه النخب عن اختراق حاجز هيمنة الانتاج الهابط بإنتاج مقابل يعبر عن رؤيتها ، أي أن الأزمة في جانبها المادي والايديولوجي تمثل أزمة النخب السينمائية المثقفة . وبالتالي فنحن نستخدم تعبير الأزمة بالمستوى الثالث او الهيكلي .

ويمكن تحليل هذه الأزمة الى جانبين نشير اليهما اشارة سريعة ونعود بعد ذلك الى تفصيلهما . الجانب الأول هو عجز السينما البديلة عن إيجاد اساس اقتصادي ـ مؤسس لذاتها يحطم هيمنة إنتاج البرجوازية الرثة الهابط في مجال السينما كهيكل أساسي نوعي . أما الجانب الثاني فيرتبط بالعجز الأكثر خطورة عن التواصل مع الجماهير ، وهو جانب ينشأ عن انصراف الجماهير عن تلقي انتاج هذه الفئة المثقفة، وفشل هذه الأخيرة في التعرف على مزاج الجماهير وابتكار القوالب المناسبة التي تحقق تواصلها مع الجماهير .

وقبل أن ندلف الى شرح طبيعة وآفاق حل ازمة السينما البديلة علينا أن نقوم بتشخيص الوضع الراهن في مجال السينما . وأهم خصائص هذا الوضع هو ان السينما السائدة لا تعاني من أزمة على حين أن السينما البديلة عاجزة عن حل مشاكل نشأتها ونموها . وبدلاً من القول بأن السينما السائدة تعاني من حالة أزمة فإنه يمكن تشخيص أوضاعها بأن هناك حالة توازن مخرب متبادل بين السينما السائدة وجماهيرها . فالجماهير التي تقبل بحماس على مشاهدة الانتاج السينمائي السائد تقيمه على ما هو عليه اي بأنه إنتاج هابط ولكنها مع ذلك تدفع من مالها لتوفر شروط استمراره الى الدرجة التي جعلت المعيار المالي حائلاً يصعب تجاوزه من قبل أي إنتاج سينمائي راقٍ . ومن ناحية أخرى فإن ازدهار هذه السينما تجارياً وإيديولوجياً يؤدي الى إحكام احتكار الانتاج السينمائي السائد على عقل الجماهير بما يمكن من المزيد من تخريبه . والمشكلة في هذا التوازن التخريبي أنه يدعم ذاته تلقائيا ، أي أنه كلما توسع وزاد نفوذ الانتاج السينمائي السائد كلما تقلصت فرصة تحطيم احتكاره وازداد شعور النخب المثقفة في مجال السينما بالعجز عن مواجهة الحاجات الجمالية والثقافية للجماهير .

وعادة يشير المثقفون السينمائيون ـ في مجال تفسير الأوضاع الراهنة للسينما العربيـة ـ الى الاحتكار المالي والسياسي والذي يعزل بإحكام الانتاج السينمائي البديل . على أن رأينا أن هذا التفسير مبسط الى حد يجعل محاولة تجاوز الأزمة أمراً صعباً . وكبديل لهذا التفسير فسوف أقوم باقتراح إطار تفسيري يقوم على جانبين ، الجانب الأول هو آليات استمرار السينما التجارية السائدة ، والجانب الثاني يتصل بفشل السينما البديلة في استنباط حلول فعالة لأزمتها . وسوف نتناول كلاً من هذين الجانبين .

أولاً : شروط وآليات استمرار السينما السائدة

لا بد من القول بادىء ذي بدء بأن استمرار هيمنة السينما السائدة التجارية لا يعود الى سبب واحد ، بل هو أمر يعود الى تضافر اربع فئات من الشروط والآليات ترتبط بالطبيعة الاقتصادية للانتاج السينمائي ، وبالدينامية الاجتماعية والثقافية خارج المجال الضيق للسينما ، وبطبيعة الجماهير المستهلكة للسينما وبالصياغات الجمالية والاشكال الفنية لها .

١ ـ الأسس الاقتصادية للسينما التجارية

تمثل السينما مركباً جمالياً ـ اجتماعياً ـ اقتصادياً . وتعتبر الشروط الاقتصادية حاسمة في تحديد نوعية هذا الإنتاج . وتشمل هذه الشروط اشكال ملكية وسائل الانتاج وعلاقات السيطرة في مجال الإنتاج السينمائي . ويمكن القول بأن مجموع هذه الشروط قد جعل من المستحيل على السينما البديلة أن تنتزع هامشاً كافياً لنموها الى جوار ـ وفي صراع مع ـ الانتاج السينمائي السائد . ويتضح ذلك من عرض المراحل التاريخية الثلاث التي مر بها إنتاج السينما في البلاد العربية ، وهي كالتالي :

أ ـ التنافس بين رأس المال الأجنبي ورأس المال المحلي : عند ظهور السينما في نهاية القرن التاسع عشر كانت معظم المجتمعات العربية خاضعة بصورة مباشرة أو غير مباشرة للسيطرة الاستعمارية[١] . وجاءت السينما لتكون هي الأخرى احد مجالات الاستثمار الأجنبي الذي توجه لقطاع الخدمات والهياكل الأساسية . ففي مصر كانت هناك ١٠ دور عرض في القاهرة والاسكندرية ، وصلت في عام ١٩١٧ الى ٨٠ داراً ، تملكها شركتان فرنسيتان هما باتيه وجومو . وظلت دور العرض بين ١٩٠٨ وعام ١٩١٧ مجرد سوق للإنتاج السينمائي الوارد من الخارج . وقد أنشأ الايطاليون أول استوديو سينمائي في الاسكندرية وصورت افلام إيطالية اشترك في تمثيلها مصريون مع ايطاليين . ونشأت صناعة السينما في لبنان من خلال شركات توزيع ودور عرض صغيرة تعتمد على الافلام الاجنبية وخاصة الفرنسية بحكم خضوع لبنان للسيطرة الفرنسية ، وتم إنتاج ثلاثة أفلام بواسطة إيطاليين يغلب عليها طابع المغامرة الفردية . وكذلك كان الأمر بالنسبة لسوريا التي كانت خاضعة في ذلك الوقت للحكم التركي المتحالف مع المانيا مما جعلها سوقاً رائجة للأفلام الألمانية ثم الفرنسية بعد خضوع سوريا للاستعمار الفرنسي . وسادت أوضاع مشابهة في المغرب العربي . وهكذا تفتحت عين المتفرج العربي على السينما الأجنبية التي حاول المستعمرون ان يختاروا منها ما يكون صالحاً للعرض في البلاد الخاضعة لنفوذهم بحيث تروج للايديولوجية الرأسمالية والاستهلاكية .

والى جانب السيطرة الأجنبية على مجال إنتاج وتسويق السينما في البلاد العربية ، بدأت البرجوازية العربية في الحصول على موطىء لأقدامها في هذا المجال . ففي مصر التي تعتبر رائدة في هذا المجال نجحت البرجوازية المصرية في السيطرة على صناعة السينما ممثلة في بنك مصر الذي أنشأ شركة مصر للتمثيل والسينما[٢] . وقد عكست الافلام الأولى التي انتجت في الاستوديوهات القومية

---

(١) جان الكسان ، **السينما في الوطن العربي** ، سلسلة عالم المعرفة ، ٥١ (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٨٢) .

(٢) سعد الدين توفيق ، **تاريخ قصة السينما في مصر** ، كتاب الهلال ، ٢١ ([القاهرة : دار الهلال] ، ١٩٦٩)

طموحات البرجوازية المصرية الصاعدة ومزاج الجمهرة الأوسع من المتعلمين والفئات الحضرية من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة . وقد استطاع الفيلم المصري منذ البداية ان يغزو الأسواق العربية[٣] إذ تميز هذا الفيلم بمزية مهمة ـ بالمقارنة بالفيلم الأجنبي ـ وهو أنه كان ناطقاً باللغة العربية ، وربما كان تعاطف الجماهير مع الفيلم المصري عائداً الى أنه يمثل بشكل ما إنتاجاً عربياً من وجهة نظر هذه الجماهير التي كانت تطمح في الاستقلال عن التبعية الاستعمارية ، وإن ظل الفيلم الأجنبي منافساً قوياً للفيلم المصري نتيجة تفوقه الفني .

على أنه مع نهاية الحرب العالمية الثانية كانت البرجوازية المصرية قد عانت من تحول مهم في طبيعتها وخلفيتها الاجتماعية النفسية والايديولوجية ، إذ انتقل مركز الثقل الى الفئات الطفيلية من الرأسمالية المحلية . واستغلت هذه الفئات الظروف المتأزمة في مصر عقب الحرب الثانية لتحقيق أرباح ضخمة وسريعة عن طريق المضاربة . وقد ساعدت ظروف الحرب هذه الفئات في مجال الانتاج السينمائي مما انتهى الى انتاج عدد هائل من الأفلام الركيكة والرخيصة وانتهت تقريباً كل محاولات السينما للاقتراب من الواقع حتى في إطار ايديولوجية بورجوازية قومية . ووضعت في هذا الوقت القوالب والانماط التي ظلت تتكرر بعد ذلك بصورة أساسية مما أعطى طبيعة ثابتة وراكدة للانتاج السينمائي المصري .

وقد استند انتاج الرأسمالية الطفيلية السينمائي ـ والذي شكل قاعدة للنمط السينمائي المصري كله ـ الى قاعدة اقتصادية تقوم على تمويل الاثرياء الجدد للانتاج السينمائي دون ان يكون لهم أية علاقة عضوية او أصيلة بالسينما كمجال فني نوعي ، وعلى ضمان شبكة من الموزعين العرب واللبنانيين بصفة خاصة . وقد تشكل بهذه الطريقة مركب اجتماعي ـ اقتصادي مسيطر من تحالف الممولين المصريين والموزعين اللبنانيين (الشاميون بصورة عامة)وقد تمكن هذا المركب من احكام السيطرة بصورة تامة على جميع حلقات وعمليات الانتاج السينمائي ، حتى ولو لم يتمثل ذلك في صورة الملكية المستمرة والثابتة لوسائل الانتاج السينمائي الأساسية (أي الاستوديوهات) . وواصلت السينما استمرارها الهابط مع تعمق السيطرة الاقتصادية لهذا المركب ونفاذ النمط السينمائي القاعدي والمتكرر الذي أشاعته الى البلاد العربية الأخرى لتساهم في ترسيخ قاعدة تجارية لها في الأسواق العربية . وقد أدى نجاح هذه السينما (المصرية) في تأسيس أسواق عربية راسخة الى محاصرة أمكانيات نشأة سينما جادة في مصر والوطن العربي على السواء ، وظل المركب الاقتصادي ـ الاجتماعي السائد قادراً على فرض الحصار على اي بديل حتى بعد نشأة القطاع العام ، إذ تمكن هذا المركب عن طريق استغلاله لمصادر قوته الاقتصادية ـ شاملاً الوسطاء والموزعين العرب ـ في تقويض أسس سينما بديلة وفي ضرب تجربة القطاع العام في مصر ، كما سنرى .

ب ـ محاولة سيطرة الدولة على الانتاج السينمائي : لاحت في الأفق العربي ككل ، بدءاً من عقد الستينات ، بداية أسس جديدة للانتاج السينمائي متمثل في ظهور القطاع العام السينمائي[٤] . وقد تباينت ظروف نشأة هذا القطاع ودوره في الانتاج السينمائي بين كل بلد عربي وآخر . فنشأ القطاع

---

(٣) إرتفع متوسط إنتاج الأفلام المصرية من عشرة أفلام سنوياً في السنوات الأربع السابقة على افتتاح ستوديو مصر ، الى عشرين فيلم في السنوات التسع التالية وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية . انظر : الكسان ، **السينما في الوطن العربي** .

(٤) انظر : سمير فريد ، **دليل السينما العربية ١٩٧٨** (القاهرة ، ١٩٧٨) .

العام في مصر عام ١٩٦٣ ، وكان لنشأته أثر واضح على التجارب العربية الأخرى في هذا الميدان . ولم يكن للدولة موقف محدد من شروط نمو قطاع عام مستقل في مجال السينما ، فالاستوديوهات لم تؤمم ولكنها انتزعت من أيدي القطاع الخاص لفترة من الوقت ، كما تعددت الهياكل الادارية القائمة على ادارة شؤون القطاع العام السينمائي . وقد تصاحبت عملية ظهور القطاع العام مع شروط التدهور الاقتصادي الذي شهدته مصر خاصة منذ عام ١٩٦٥ ، فهبط الانتاج السينمائي من ٦٠ فيلماً في المتوسط في العام الى ٤٠ فقط . وحتى عام ١٩٧١ بلغ الانتاج السينمائي ٤١٦ فيلماً منها ٥٠ بالمائة من القطاع العام ، ٤٠ بالمائة من القطاع الخاص الممول من القطاع العام ، و١٠ بالمائة من القطاع الخاص الممول من شركات التوزيع العربية[٥] . والملاحظ أنه رغم إقدام القطاع العام على تقديم عدد من الافلام الجيدة إلا أن إنتاجه كان في الاغلبية الساحقة من نوعية هابطة مناظرة لإنتاج القطاع الخاص . ويعود ذلك الى ان الدولة لم تتدخل في قطاع السينما لكي تسمح بتكوين سينما بديلة وانما لمجرد الرقابة البيروقراطية على المركب الاقتصادي الاجتماعي السائد في السينما ، مما ادى الى توسيع مجال السيطرة في نطاق المنظومة السينمائية السادة نفسها.واتخذ تجار السينما المصريون والعرب موقفاً مزدوجاً من القطاع العام ، فعلى حين شكلوا قطاعاً حاكماً ومتداخلاً مع البيروقراطية في مجال الادارة والانتاج ،فقد ساهموا في إحكام الحصار على توزيع أفلام القطاع العام سواء في الاسواق المصرية او العربية مما أدى الى تدهور مركز القطاع العام وفشله في النهاية في تحقيق أغراضه الاقتصادية الى جانب فشله في خلق أفق بديل لنمو السينما المصرية .

أما في سوريا فكان على إنتاج الفيلم الروائي الأول أن ينتظر أربع سنوات بعد إنشاء المؤسسة العامة للسينما عام ١٩٦٣[٦] . وقد اعتبرت المؤسسة مشروعاً اقتصادياً الى جانب دورها الدعائي والسياسي . وقد أدى اعتبار مؤسسة السينما مشروعاً اقتصادياً الى تقييد حريتها في العمل الى حد كبير وظلت غير قادرة على الربح ومحرومة من الاستقلال المالي . وقد زاد من حرج وضع هذه المؤسسة مقاطعة القطاع الخاص لها من خلال دور العرض مما أدى الى فشلها في الاتصال بالجمهور المحلي . ولا تزال اليد الطولى في السينما السورية للقطاع الخاص الذي يعتمد على أسوأ تقاليد الفيلم المصري . وليس وضع القطاع العام في العراق بأفضل حالاً من نظيره السوري . فبالرغم من أن هذا القطاع قد شهد نشاطاً ملحوظاً في السبعينات نتيجة لعدد من القوانين واللوائح التي قلصت من دور القطاع الخاص وعززت من المكانة الاقتصادية للقطاع العام ، إلا أن سيادة الطبيعة الدعائية للانتاج السينمائي العراقي قد حرمه من فرصة نمو حقيقي تتجاوب معه الجماهير .

وبصدد السينما الجزائرية فإن لها وضعها المتميز داخل السينما العربية[٧] ، فقد انطلقت هذه السينما باعتبارها رديفاً أو فصيلاً في الثورة الجزائرية . وقد تأسست مع الاستقلال المؤسسة العامة للسينما في الجزائر وتوسعت هذه المؤسسة في مجال ملكية دور العرض وأصبح في إمكان القطاع العام هناك أن يسيطر على الحلقات الرئيسية للانتاج السينمائي . على أن السينما الجزائرية تعاني من عدم إقبال الجماهير عليها وهو ما أدى الى تحويلها الى مشروع تجاري خاسر . وقد يكون من السهل أن نفسر

---

(٥) انظر : سمير فريد ، **في السينما العربية** ، المكتبة السينمائية ، ٢ (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨١) .

(٦) جان الكسان ، **السينما السورية في ٥٠ عاماً** (دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٧٨) ، وفريد ، المصدر نفسه .

(٧) انظر : « سينما ولدت من قلب العاصفة ، » **البعث** (دمشق) ، ٣/٩/١٩٧٩ ، والفصل الخاص بالسينما الجزائرية في : الكسان ، **السينما في الوطن العربي** .

ذلك الوضع بأن الجماهير الجزائرية لم تتخلص بعد من سيطرة السينما التجارية الفرنسية على ذوقها وميولها . ولكن الواقع يكشف عن عوامل أكثر تعقيداً ، منها تجاهل السينما الجزائرية لمشاكل الواقع ولجوؤها الى افلام الحرب الوطنية يتوازى مع هذا الانصراف عن مشكلات ما بعد التحرير، ومحاولة الجماهير التطلع الى حياة جديدة واستنكافها عن اجترار ذكريات الماضي، وهو ما سنتناوله في حينه .

ج - **سقوط القطاع العام وبروز سطوة التمويل النفطي** : انتهت محاولة سيطرة الدولة على مجال الانتاج السينمائي الى فشل ذريع في معظم البلاد العربية . فمن الناحية الاقتصادية فشل القطاع العام في توفير شروط إعادة الانتاج جزئياً لتعثر أو فشل سيطرته على دور العرض ، وجزئياً لتبعية هذا القطاع للشروط المالية العامة للدولة وعجزه الكبير عن التمويل مع بوادر اي أزمة تمويلية على نطاق الدولة ككل ، وجزئياً نتيجة عدم إقبال الجمهور على إنتاج القطاع العام سواء لطبيعته الدعائية كما هو الحال في العراق أو لأسباب أخرى معقدة كما هو الحال في الجزائر[٨] . وعلى الرغم من توسع دور القطاع العام في فترة السبعينات وبداية الثمانينات في بعض البلاد العربية فإن المجال الرئيسي للانتاج السينمائي خاصة في مصر قد أصبح حكراً تقريباً على القطاع الخاص . وقد برز في هذه المرحلة الأخيرة الدور الهائل الذي يلعبه رأس المال النفطي القادم من البلاد العربية المصدرة للنفط خاصة السعودية والكويت وبلاد الخليج العربي . ويبرز نفوذ هذا المال النفطي الخاص في عدد من حلقات الانتاج السينمائي بدءاً من التمويل ، وملكية الاستوديوهات الحديثة المجهزة بصورة متكاملة ، وفي حلقة التوزيع والتسويق وخاصة في الأسواق الجديدة التي مثلت مجال التوسع الرئيسي للانتاج السينمائي (وأهمها في بلاد الخليج العربي) . وقد نشأ عن هذا الدور درجة أكبر من التداخل بين العناصر المختلفة للمركب الاقتصادي - الاجتماعي الخاص المهيمن على مجال الانتاج السينمائي أصبح فيه هذا المجال أحد المجالات النادرة للتداخل التام بين العناصر الرأسمالية العربية المهيمنة . ولا يحتاج الأمر لتحليل عميق لكي نكتشف أن هذا التداخل والتوسع في داخل المركب الاجتماعي - الاقتصادي المسيطر قد أدى الى مزيد من التدهور في نوعية الانتاج السينمائي العربي . ويبرهن ذلك على أن القضية لا تتقوم في مجرد تحقيق تكامل اقتصادي عربي - سواء في مجال السينما أو أي مجال آخر - وإنما في المضمون الاقتصادي الاجتماعي والثقافي لهذا التكامل . لقد أفسدت السينما المصرية الأذواق العربية ورسخت اصولاً وقواعد للمشاهدة السينمائية أضرت إضراراً شديداً بإمكانيات تحول كيفي في الانتاج السينمائي سواء في مصر أو في بقية البلاد العربية ، ثم إن هذا الافساد قد وجد رد فعله في واقع أن رأس المال العربي قد أصبح يفرض شروطاً للإنتاج السينمائي - مشتقةً من أصول المشاهدة التي رسختها السينما المصرية - في مصر نفسها مما قلل أكثر وأكثر من الهامش الذي كان يمكن لسينما جادة أن تنمو فيه . أي ان التوازن المخرب بين جمهور السينما ، وعملية إنتاجها قد توسع الى مجال الوطن العربي ككل وساعد على تعميق التسميم المتبادل للانتاج من ناحية ولأذواق المشاهدة من ناحية أخرى .

---

(٨) امير العمري ، « أوضاع السينما في الجزائر » (دراسة غير منشورة) . ويعزو امير العمري أسباب انصراف الجماهير الجزائرية عن السينما الجزائرية الى تعقيدات التركيب الثقافي للمخرج الجزائري ، الذي رغم نجاحه في الحصول على الاستقلال السياسي ، لم ينجح بعد في الافلات من التبعية الثقافية للمستعمر ، إذ تحكمه عقدة النقص بحيث انه يريد ان يحصل على الاعتراف بموهبته من الناقد الاوروبي والمهرجان الاوروبي . فالفيلم الجزائري موجه للخارج وليس الى الداخل . كما يشير العمري الى مشكلات التعريب التي تنعكس على السينما الجزائرية .

٢ ـ إعادة إنتاج الشروط الايديولوجية للسينما السائدة

لم تثمر الشروط الاقتصادية للبرجوازية المتخلفة إلا إنتاجاً متخلفاً ، سواء كان ذلك على الصعيد الاقتصادي أو الثقافي ، ونستطيع أن نرصد ثمار هذا الانتاج المتخلف وانعكاسه في مجال السينما .. كالآتي :

أ ـ العائد السيكولوجي للإنتاج المتخلف : يؤدي المجتمع الطبقي الاستغلالي ، وخاصة التابع والمشوه ، الى قمع نمو الشخصية الانسانية قمعاً شاملاً ، ولكنه يوفر مع ذلك بعض الآليات [الميكانيزمات] الحقيقية والخيالية للالتفاف حول بعض الآثار المرة لهذا القمع . ويمكن القول بأن الانهيار الايديولوجي لهذا المجتمع يشترط أن تصبح هذه الآليات عاطلة عن العمل وغير قادرة على مد قنوات الهروب بعيداً عن الواقع . وينبغي أن نفهم هذه الآليات والطريقة التي تعمل بها لكي ندرك الدور المحدد الذي تلعبه السينما في إطارها . فالواقع أن القمع لا يتمثل فقط في العنف المباشر وإنما هناك صور من العنف الادراكي والاخلاقي والنفسي تقوم بتحويل هذا القمع الى داخل الجماعة الانسانية بحيث يغيب عن الوعي الاجتماعي الأصل الحقيقي والمصادر الأصيلة لهذا القمع لأنه يبدو وكأنه يأتي من الداخل . ومن ناحية أخرى فإن هذا النمط من القمع ، والطريقة التي تعمل بها الآليات الهروبية لا تتجاهل الخبرة المباشرة الحسية والادراكية للجماهير ، بل على النقيض تعمل على استغلال بعض الاستنتاجات التي تستخلصها هذه الجماهير من واقع بعض خبراتها ، في الوقت الذي تتجاهل فيه استنتاجات أخرى ترتبط بجوانب أخرى من التجربة او وقائع أخرى من موروث الخبرة الشعبي . وتتصف آليات الهروب من الواقع بنوع من الهرمية . فهناك ثيمات (مدارات) إيديولوجية تقدم على أنها مستنبطة من واقع الخبرة العملية ، ويشتق من هذه الثيمات صور مناسبة لتدعيم ميول نفسية معينة او هياكل نفسية متكاملة ، وأنماط سلوك عرفية تقدم وكأنها لا تقبل الاختراق . ويتدعم هذا البناء الهرمي بنوعين من الآليات الادراكية : التجسيد الذي يتمثل في تقديم شخصيات قاعدية قادرة على شد الانتباه وإثارة التعاطف ، والتجريد الذي يتمثل في هذه الحالة في عدد أو سلسلة من الاحكام الأخلاقية المناسبة . ويصور الشكل التالي هذا الاطار لعمل الآليات الهروبية (او القمعية الداخلية) .

شكل رقم (١)

عمل الآليات الهروبية والقمعية الداخلية

الفكرة الجوهرية التي نود التأكيد عليها من خلال هذا المخطط هي حقيقة أن القمع النفسي والايديولوجي يستند على ميول نفسية وأحكام أخلاقية قائمة بالفعل لدى الطبقات الشعبية . ويمكن ترجمة ذلك في مجال السينما باعتبارها مجالاً نوعياً خاصاً للقمع الداخلي في المجتمع الطبقي . فالسينما

العربية لا تبدو تماماً وكأنها تكذب وتزور الحقائق وإنما هي تفعل ذلك وكأنها قد قطعت منتصف الطريق الى الجماهير الشعبية تأخذ من ميولها القائمة وبناءاتها الاخلاقية وتدمج ذلك كله في هيكل إيديولوجي متكامل يتناسب مع ايديولوجية الطبقات المسيطرة بحيث تتمكن من تسريب هذه الايديولوجية ببساطة ويسر وتحظى من خلال ذلك بدرجة من الشعبية . وسوف نكتفي هنا بضرب بعض الامثلة من الشخصيات القاعدية التي أشاعتها السينما العربية والتي تغيرت مع ذلك . ويعكس هذا التغير نفسه التحولات الجارية في البناء الطبقي وفي مجمل العلاقات الاجتماعية .

شخصية الباشا : تقدم هذه الشخصية على أنها مركز الأصالة والكرم والحكمة الصادقة ، وعلى أنها بمنزلة العقل العارف من الأمة والذي يحيط بما قد لا يحيط به العقل البسيط لهذه الأمة . وكثيراً ما يتم تقديم هذه الشخصية بصورة تثير التعاطف النفسي عندما تقوم بالصراع إمّا ضد المستعمر الأجنبي المقتحم[٩] أو ضد شخصية البرجوازي التي نشأت وترعرعت بصورة خلاسية ودون استناد على المصادر المعروفة والتقليدية للمنزلة . وتحتوي شخصية الباشا على جانبين . الاول يتعلق بالمنزلة الموروثة والتي يمكن أن تربط بصورة حميمة أيضاً بالاستغلال الاقطاعي . أما الجانب الثاني فيتصل بمجمل بناء الشخصية (الأبوية) البطريركية . وتطمس السينما الجانب الاستغلالي تماماً في مقابل تدعيم الجانب الذي يجد قبولاً شعبياً . وحاولت السينما من ثم أن تستجيب لأحد الثيمات الايديولوجية القائمة بالفعل لدى الشعب (ثيمة ابن الاصول) وتدعيم الميول النفسية المرتبطة بتوقعات أنماط سلوك عرفية معينة مثل العطف والكرم ومراعاة الفقراء والمحرومين . ويترتب على ذلك تدعيم الفكرة الاخلاقية القائمة على مبدأ الولاء . وعلاوة على ذلك استطاعت السينما أن تستغل بذكاء ما يمكن تسميته بالانحراف المعادي للواقعية لدى الجماهير ـ في مرحلة معينة من نضوجها الادراكي والنفسي ـ والذي يعبر عن نفسه في الرغبة للنفاذ الى الحياة الاسطورية ـ فوق العادية ـ لأبناء الطبقات العليا بما تحتويه من أنماط سلوك واستهلاك لا يعلمون عنها شيئاً والاطلاع ولو من ثقب صغير وعن طريق الخيال على ما يجري وراء الاسوار الشاهقة التي تفصل الباشا عن الرعاع . وفي مقابل هذا الانحراف المعادي للواقع يعمل الناس على التحرر من إسار التكرار المضجر والرتيب لحياتهم هم ، والتي لا يريدون ان يشاهدوها مكررة في السينما .

شخصية العصامي : ومع تحول الهيكل الاجتماعي الى سيادة الطبقة البورجوازية عملت السينما على الانتقال من ادانة شخصية البرجوازي الى تمجيدها وتجسد ذلك في تقديم شخصية العصامي . وقد بدأت إرهاصات هذا الانتقال عندما بدأ تصوير شخصية الباشا في علاقة تعاطف مع شخصية البرجوازي (غالباً عن طريق قبول مصاهرته) . وتحتوي شخصية العصامي على تناقض بين جانبين : الانتهازية السلوكية والكفاحية الفردية . وعندما قدمت السينما شخصية العصامي لم يؤد ذلك بالضرورة وفي كل الأحوال الى إدانة حازمة للسلوك الانتهازي وانما عملت فقط على تجاهله او على إضفاء صفة محببة على هذا السلوك ، وفي كل الأحوال رفضت السينما حل هذا التناقض ، فالعصامي يشرب الخمر ولكنه عندما يشربها يفعل ذلك بشرف،وهو يرغب في مصاهرة الارستوقراطيين ولكن ذلك يقدم على أنه نتيجة انسجام طبيعي لا رغبة في التسلق والكسب المادي . وتغازل السينما ـ بتقديم شخصية العصامي ـ الميول النفسية لدى الجماهير في إيجاد مخرج خيالي لتأزم حياتها وقيود

---

(٩) يمثل فيلم « زينب » الذي اخرجه محمد كريم عام ١٩٣٠،نموذجاً مثالياً لبداية طرح هذه الشخصية في السينما .

وضعها الطبقي ، لأن العصامي يمثل التحرر من جمود التوزيع التقليدي للمكانة والثروة القائم على التوارث . والغريب أن التركيز على الجانب الكفاحي من هذه الشخصية قد نجح في تقويتها بالالتفاف حول الادانة الشعبية التقليدية للجوانب التي تراها الطبقات الشعبية على أنها فساد أخلاقي (مثل شرب الخمر ولعب الميسر والرقص مع الفتيات ... الخ) . ويعزى هذا النجاح الى التركيز ـ من الجانب الآخر ـ على الجوانب التي تلقى بوضوح إعجاباً شعبياً مثل خفة الظل وسرعة البديهة والكفاحية ضد ظروف قاهرة .

وهناك مناظر شعبي لشخصية العصامي يتجسد فيما يسمى في مصر بشخصية الفهلوي ، وهو غالباً من أبناء الطبقات الفقيرة ، ولكنه ذكي يحسن انتهاز الفرص ويتمكن من الافلات من المصيدة الشريرة للأوضاع القائمة لا عن طريق الثورة عليها وإنما عن طريق استغلال ثقوب هذه الأوضاع .

شخصية المكافح الشعبي : ولم تتجاهل السينما تماماً أبناء الطبقات الفقيرة ولا قصرتهم فقط على الأنماط المنحرفة (مثل الفهلوي) فهناك أيضاً شخصية المكافح البرجوازي الصغير ، أو المكافح الشعبي ، وهي شخصية تناضل من أجل الصعود البطيء من أدنى السلم الاجتماعي وتقدم في السينما من خلال عدد من المهن مثل الطالب ، والموظف الصغير والفنان المبتدىء . ويتم تصوير شخصية المكافح الشعبي على أنها تكوين يبدأ من موقع الاكتمال الاخلاقي (التدين الشديد والاستقامة السلوكية) ، ولكنها مع ذلك شخصية تتعرض للتهديد . ويتمثل هذا التهديد عادة في إغراء الحياة الحضرية بما فيها من جنس ومال . والحالة الوجودية لهذه الشخصية تتراوح بين التسليم النهائي والانزلاق المؤقت في طريق الانحراف ، الذي يقدم باعتباره كل ما يساعد على نسيان الاصالة والواجب . وتعكس هذه الشخصية الظروف المادية والحالة النفسية لأبناء الطبقات الشعبية الذي نالوا قسطاً من التعليم وتعرضهم إزاء التيارات المتضاربة لمجتمع رأسمالي في مرحلة تحول عارمة . ويمكن أن نستنتج بسهولة أن الافراط في تقديم هذه الشخصية يقصد به إقناع الطبقات الشعبية بقبول أوضاعها وبخطورة الطريق نحو تجاوز هذه الأوضاع ، وإلا انتهت المحاولة الى الدمار الشخصي والقفز الى عالم المجهول والانحراف . ولكن السينما تلتقي هنا مع ميول حقيقية في الثقافة والنفسية الشعبية بما تحفل به من ذعر من عالم المدينة وقلق الأسرة الشعبية من محاولات أبنائها المتعلمين للانفصال عنها وهجر الواجبات الاجتماعية الملقاة عليهم إزاءها ، أي أن السينما تستغل الترتيبات الاخلاقية التي ابتكرها أبناء الطبقات الشعبية والتي تتضمن إدانة لمحاولة الانفصال المادي والاجتماعي عن الاصول الطبقية .

ب ـ العائد الايديولوجي للانتاج التجاري : تمثل السينما سلاحاً ايديولوجياً خطيراً تملكه الطبقات الرأسمالية وتستغله في خلق مبايعة اجتماعية لها بين كل الطبقات . ولا نقصد بالسلاح هنا السينما التي تستغل بصورة عمدية داعية لتشويه وعي الطبقات الشعبية ، فالواقع ان أخطر ما في هذا السلاح أنه يتسرب من وراء وعي كل من الرأسمالية والطبقات الشعبية إلا في حالات استثنائية . والأمر أن السينما تجسد بأمانة ذهنية الطبقات الرأسمالية وهي ذهنية تتسم باضطراب في منهجية التفكير وانعدام الفكر الجدلي ـ أي سيادة السببية الميكانيكية والمباشرة وهيمنة مبدأ العزل والفصل لا التناقض والصراع والتجاوز ـ وهي أخيراً ذهنية تكرس العجز عن السيطرة الادراكية على الواقع أو حتى مجرد استيعابه . ولكن كما قدمنا تبرز الايديولوجية البرجوازية في صورة ثيمات تناسب المرحلة التاريخية المحددة ، وهي لذلك ايديولوجية تعكس متناقضات مجتمع عربي يعبر بصعوبة مرحلة ركود نسبي الى مرحلة تحتوي على قدر كبير من الحركة والتغيير . وتجمع هذه المرحلة بين وجود فرص معينة

وأيضا بوجود درجة كبيرة من التعرض لتهديد الانهيار ومن ثم تجمع إيديولوجية هذه المرحلة بين ثيمات تشجع على انتهاز الفرص وتؤكد على المبادرة والاقتحام من ناحية وثيمات اخرى مثقلة بمضامين الضبط الاجتماعي والناشئة عن الاخلاق السائدة اجتماعياً (والمشتقة أساساً من الدين) . وتتسم هذه الايديولوجية أيضاً بأنها مركب انتقائي ذو بعد رومانسي تجنح نحو حل سعيد للمتناقضات الاجتماعية وترفض تأمل العناصر التاريخية والمنطقية لهذه المتناقضات .

ولا يستطيع ناقد اجتماعي جاد أن يدعي بأن المجتمعات العربية تتسم بالانسجام الايديولوجي ، ولكن لا يستطيع أحد الادعاء بأن هذه المجتمعات قد شهدت في العقود الثلاثة الأخيرة الحاسمة من تاريخها الحديث مواجهة ايديولوجية على اي درجة من الوضوح الاجتماعي والفكري . وليست القضية هنا عدم تمكن الطبقات الشعبية من تكوين وعي مستقل عن الطبقات الحاكمة والمستغلة فقط ، وإنما في وجود درجة ما من التداخل بين ايديولوجية الطبقات الشعبية وبين الايديولوجيات المسيطرة ، وهذا التداخل يبرره كون المجتمعات العربية قد شهدت درجة ملموسة من الحراك الاجتماعي ، على الاقل فيما يخص قسماً كبيراً من البورجوازية الصغيرة . وما تفعله السينما العربية في الاساس هو التركيز على مناطق التداخل هذه بحيث تؤكد النبذ التام لأي قطع أو انفصال مع الايديولوجية المسيطرة ،وإن كان التلاعب مع مناطق التداخل هذه يتسم باستخدام عوالم سحرية ومثيرة . ويتيح هذا كله لمجال الانتاج السينمائي من تحصيل عائد ايديولوجي مرتفع للغاية دون ان تفقد السينما التجارية مع ذلك جمهورها الاساسي وخاصة البرجوازية الحضرية الصغيرة .

وكما أشرنا فإن نتيجة التحول الاجتماعي الاساسية في المجتمعات العربية هي بروز طبقات استمدت مادتها الاجتماعية أصلاً من بين جمهرة البورجوازية الصغيرة ـ خاصة في قطاع الخدمات وقطاع جهاز الدولة الحديث ، .وهن وتائر نمو طبقة عمالية راقية الوعي والتنظيم . ويؤدي ذلك ـ ضمن أشياء كثيرة أخرى . الى ضعف فرصة تكون معارضة اجتماعية سياسية نشطة وحيوية ومن ثم حرمان السينما من امكانية بروز بديل حقيقي للانتاج التجاري السائد .

٣ ـ إعادة إنتاج شروط إستهلاك السينما التجارية

لم يتم حتى الآن دراسة العلاقة بين المتفرج العربي والفيلم التجاري بصورة علمية من خلال تقنيات التعرف وقياس الرأي العام . ويصعب في إطار هذا الغياب لإطار علمي واضح استخلاص تفسير مقنع وشامل لتواطؤ الجمهور العربي مع السينما التجارية . والواقع أن المشكلة لا تتمثل في تواطؤ بسيط . فالغريب أن الجمهور ليس عاجزاً عن الحكم السليم على السينما التجارية . ويدلل على ذلك العديد من التعليقات الساخرة على هذه الافلام في دور السينما . وكثيراً ما نسمع ، في مقابل تعليق المنتجين « الجمهور عايز كده » أو مبدأ « شباك التذاكر » ، تعليقاً معاكساً يوضح عدم الاقتناع وهو « المخرج عايز كده » . ومع ذلك فإن هذا الجمهور نفسه يقبل على هذه السينما التجارية ويكاد يقاطع السينما الجادة .

وعلى الرغم من غياب تفسير علمي شامل لهذا التناقض فإننا نستطيع ان نخاطر بإبداء بعض الآراء الرامية الى تفسيره . فيمكن القول بأن هناك عوامل تتصل بالحالة أو الموقف الاجتماعي للجمهور نفسه ، تستغله وتكثفه تقاليد المشاهدة التي رسختها السينما التجارية .

ويمكن تشخيص حالة جمهور المشاهدين بأنه يعكس العملية الاجتماعية العامة التي تمر بها

المجتمعات العربية والتي تتمثل في تدهور وانهيار المؤسسات الاجتماعية الناظمة التقليدية وتأخر ظهور مؤسسات اجتماعية ناظمة جديدة . فمع زيادة معدلات التحول الرأسمالي تم طرد أقسام واسعة من الطبقات الفلاحية الى المدن ، كما أن أقساماً أخرى من البرجوازية الصغيرة تعاني من حالة تدهور ملموسة كما ينعكس ذلك في الأنماط السكنية الجديدة في الدوائر المحيطة بالمدن الكبرى في الوطن العربي . وقد تصاحب مع ذلك تدهور القوة الرقابية للجماعة الريفية ، كما اضمحل المفهوم التقليدي للحي كما عرفته المدن العربية في القرون السالفة . وفي مقابل ذلك لم تتبلور طبقة عمالية ذات مؤسسات نقابية ومهنية وسياسية ناظمة وقادرة على استيعاب العناصر الاجتماعية الجديدة التي نزحت بعيداً عن المؤسسات التقليدية . وقد ترتب على ذلك أيضاً أن تحولت أقسام واسعة من الطبقات الاجتماعية التقليدية الى جماهير مبعثرة لا تربطها أطر ايديولوجية ـ ثقافية أو اجتماعية سياسية قوية .

وقد التقطت السينما التجارية هذا الجمهور المبعثر وقامت بتكثيف حالة التبعثر هذه . فقد رسخت هذه السينما تقاليد للمشاهدة تقوم على وجود دور عرض يدخل اليها الجمهور باعتباره أفراداً لا يجمع بينهم رابط موحد غير شاشة دار العرض . ويمثل بالتالي مجال العرض السينمائي مركزاً لما يسمى في علم النفس بتكون الجمهور المتدني . أي أن هذه التقاليد للمشاهدة (والمستمدة من التقاليد الغربية اساساً) تقوم على تفتيت الطبقة وتحويلها الى جمهور سوقي . ويفتح هذا التكون التلقائي الباب واسعاً أمام إطلاق الغرائز الضالة والمكبوتة والتي لا يتاح لها فرصة للتعبير العلني المنظم . ومع أن هذا التقليد للمشاهدة ذو طابع عالمي فإن الجمهور في المجتمعات العربية يتسم بخصائص متميزة . فهو من ناحية جمهور متأزم يعاني من مشكلات هائلة وذات طابع حاد ، وهو من ناحية أخرى جمهور محروم من مؤسسات التعبير المنظمة والتي توفر أسساً لمواجهة حقيقية وفي الواقع لهذه المشاكل بصورة جماعية . وتؤدي هذه الخصائص الى أسر الجمهور في دور العرض وهو في حالة يستعد فيها لإفراغ طاقته والتطهر من انفعالاته الزائدة بطرق شتى تتفق جميعها في غياب أدنى معايير وأسس الضبط الجماعي . ويزيد على ذلك أن السينما التجارية لا تدعو المشاهد للتأمل والانخراط في عمل جمالي ـ فكري وإنما هي تدعوه الى موقف التسليم والاستهلاك المتحلل لمادة لا تجهد ذهنه . وفي هذا السياق ، تتسم تقاليد المشاهدة بالعوامل التالية :

أ ـ **الهروبية** : فالسينما ليست دعوة لتأمل ومواجهة المشكلات الاجتماعية وبصورة جماعية وإنما هي مجال للهروب من الواقع الذي لا يستطيع المتفرج أن يواجهه أو يتجاوزه بصورة مباشرة . والسينما نفسها تبدو بالنسبة للمتفرج كممارسة سحرية أو خرافية . وتعمل السينما على إعادة التوازن للمتفرج لا عن طريق تمكينه او تمليكه لوسائل الوعي ومواجهة مشاكله وإنما من خلال تمكينه من تفريغ عواطفه ولو بإطلاق صرخاته في الفضاء ، وتعزيته عن واقعه بنقله الى عوالم سحرية .

وتمثل الهروبية كما ذكرنا من قبل التعبير الملموس عن عقدة العداء أو التعصب ضد الواقع المعاش وما يحتويه من جدل اجتماعي ، وهو يؤدي إما الى حل المشاكل بطريقة وهمية او تجنبها تماماً .

ب ـ **الانفعالية والاندماج** : ان القهر وانعدام مشاعر الأمان وطغيان الاحساس بالدونية وما يتولد عن ذلك من قلق عات ومزمن يؤدي الى تراكم مفرط للانفعالات . وتمثل السينما التجارية مجالاً لتعريف هذه الانفعالات إما من خلال الاندماج التام للمشاهدمن خلال الأساليب « الميلودرامية » للسينما التجارية أو من خلال توفير إمكانية الصياح والتعليقات الساخرة والتفاعل مع النكات او الحركات الفجة للممثلين في الفيلم(وهو أمر يتزايد بصورة رهيبة في دور العرض بالقاهرة حتى أصبح

يشكل أحدى الظواهر السوسيولوجية الأساسية للمشاهدة في السنوات الأخيرة) .

ج - الانسلاخ أو الانفصام النفسي : ويترتب على ذلك أن المشاهد يسلم نفسه في دور العرض وأمام الافلام التجارية الى حالة قد لا تتفق مع طبائعه قبل وبعد مشاهدته للفيلم . وكثيراً ما ينتاب بعض المتفرجين حالة من الندم على مشاهدة فيلم كانوا يعتقدون بعدم جدارته قبل ان يشاهدوه ، ومع ذلك فهم يشعرون بأنهم مدفوعون لمزاولة ذلك عدداً من المرات في السنة . ويزيد من إيلام هذا الانسلاخ او الانفصام في الشخصية ان الجمهور لا يستطيع ان يضع يده على المشكلة ولكنه يسلم نفسه لها . والى جانب كل ذلك فإن الجمهور يعاني من حالة من فقدان الثقة في السينما البديلة لانها لا تشكل من حيث حجم الانتاج ما يكفي لاعتباره منظومة بديلة تستطيع جذبه بقوة دفع مناسبة بعيداً عن السينما التجارية .

ويمكن تلخيص العوامل السابقة جميعها في الشكل التالي :

شكل رقم (٢)

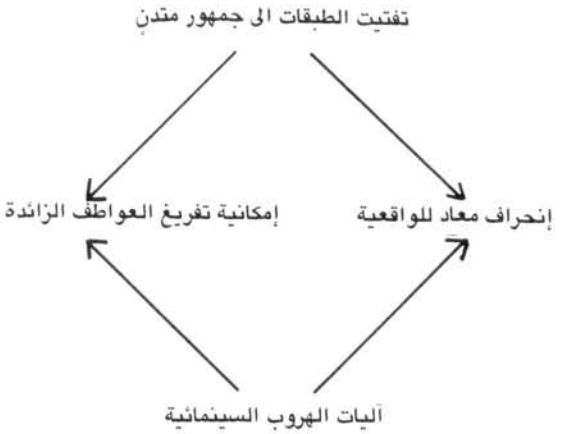

٤ - الاسلوب الفني للسينما التجارية

لا تتوقف محاولة السينما التجارية عند مجرد استغلال الأوضاع النفسية والفكرية للانسان المسحوق من أجل تسريب إيديولوجية الطبقات السائدة . إنها تحاول أيضاً الحديث الى هذا الانسان باستخدام قوالب فنية تجد بعض أسسها في الموروث الشعبي ذاته . ونستطيع أن نسرد بعض الملامح المهمة لهذه القوالب فيما يلي[١٠] :

أ - القالب الحكائي : يستمد هذا القالب من تقاليد « الحدوتة » التي تأخذ شكلاً صاعداً متنامياً تقطعه سلسلة من الازمات والانفراجات تجعل المتفرج تحت السيطرة الكاملة للفيلم ثم تنتهي بضربة ختام تعطي الاحداث نهاية سعيدة في صالح البطل غالباً . وتتكون الحكاية من ثيمات (مدارات) بسيطة خالية من الدراما كصراع معقد داخل الشيء او الفكرة ذاتها ، وتتأسس بصورة كاملة على وجهة النظر الذاتية للبطل نفسه وتنحاز له منذ البداية .

---

(١٠) انظر : سيد سعيد ، « نظرة على الوضع السينمائي المعاصر في مصر » ، **السينما والعالم** (القاهرة) ، العدد ١ (تشرين الأول / اكتوبر ١٩٧٨) .

ب ـ التقاليد « الميلودرامية » لروايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في أوروبا والوطن العربي . وتعتمد هذه التقاليد على المبالغة في إضفاء الصفات وعلى الافراط في وصف الظروف المعادية وبحيث تبدو العقدة وكأن لا حل لها وتتطلب بذلك إما حلاً قدرياً أو قدرة اسطورية للتغلب على الظروف .

ج ـ الالتقاء في منتصف الطريق مع الحكمة الشعبية على الأقل في بعض جوانبها ، وبحيث يمكن في معظم الأحوال اختصار مضمون الفيلم التجاري في أحد الأمثلة الشعبية أو أحد المنطوقات الناظمة للسلوك الفردي .

د ـ إستخدام الحوار الشعبي ودلالاته وصياغاته اللفظية بما تحفل به من ثوريات ورموز واستعارات والتي لا مجال لها في الأدب المكتوب ولكنها تجد صدى واسعاً بين الجماهير .

هـ ـ الاستخدام المكثف لتقنيات الاثارة وشد الانتباه التي تلتقي مع الأطر الانفعالية للجماهير .

و ـ الاستخدام الميكانيكي للزمن ، فحتى لو تم الرجوع الى الخلف كاستثناء فهو من أجل خدمة التطوير الميكانيكي للأحداث . أما عناصر المكان فإنها تتحول غالباً الى جمادات سياحية لا تعطي حساً إنسانياً بالاشياء وتتحدد وظيفتها في ابهار العيون حتى لو خلت من أية طاقة تعبيرية .

ز ـ الاستخدام المكثف لفكرة البطل النجم كتعويض عن عجز الجماهير . والبطل لا يوازي فقط الزعيم او المخلص ، وإنما أيضاً المثل الأعلى لما ينبغي أن يكون عليه الرجل وفقاً لمفاهيم البرجوازية أيضاً .

ويمكن تقدير فعالية هذه الميكانيزمات (الآليات) بالمقارنة مع إنتاج السينما الجادة . فالمخرجون الجدد ذوو الثقافة والتمرس السينمائي ـ الجمالي الرفيع غالباً ما يلجأون الى استخدام تقنيات وقوالب معقدة . وليست المشكلة بالضرورة في كون هذه القوالب غريبة الى حد كبير على الجمهور العربي ، وإنما في كونها تتطلب تحويلاً كيفياً لهذا الجمهور . أما التقنيات والقوالب المستخدمة في السينما التجارية فهي تتفق وتتكاتف مع تقاليد المشاهدة وخصائص الجمهور العربي في اللحظة الحالية كما سبق أن أسلفنا .

ثانياً : أزمة السينما البديلة

المشكلة المحددة إذن ، والتي هي على درجة من الضخامة بحيث يمكن أن ندعوها أزمة هي أوضاع السينما البديلة . وتتمثل هذه الاوضاع بعدم توفر شروط تخلق مجموعة من التيارات السينمائية الديموقراطية والراقية في مجتمعات تحكمها بصفة أساسية أنظمة تتسم كما أسلفنا القول بالهيمنة السياسية والفكرية .

وأول ملامح أزمة السينما البديلة تتمثل في غموض هذا المصطلح ذاته الذي اتخذ طبيعة هلامية منذ تم طرحه في مهرجان السينما بدمشق في عام ١٩٧٢[١١] . فمصطلح السينما البديلة لا يشير الى

---

(١١) انظر العدد الخاص عن السينما البديلة من مجلة **الطريق** اللبنانية لعام ١٩٧٢ .

تيار سينمائي محدد لا على الصعيد الفكري ولا على الصعيد الجمالي . إذ يتراوح المقصود من هذا المصطلح بين المعنى العام الذي يتمثل في الرغبة في تأسيس سينما جادة وجديدة ومختلفة من حيث النوعية والشكل ، والتيار المنادي بسينما ثورية نضالية تقوم بالاطاحة بالسينما التجارية السائدة . ومن ناحية أخرى فإن هناك تبايناً بين الظروف المحلية المختلفة للمشتغلين بالسينما من بين النخب الثقافية المتقدمة فكرياً في البلاد العربية ، وذلك لأن الطبيعة المحددة لمشكلة السينما ليست واحدة في جميع هذه البلاد . ومن ناحية ثالثة فإن شعار سينما بديلة لم يأت كنتاج لتغير محسوس في موازين القوى السياسية والفكرية بين الجماعات المتصارعة في البلاد العربية بقدر ما يمثل نداءات وتشوقات الكوادر السينمائية المثقفة والتي تتعدد انتماءاتها الايديولوجية والجمالية ، وبالتالي تتعدد مفاهيمها وأهدافها السينمائية .

ورغم هذه التباينات المهمة فإن هناك واقعاً مشتركاً[١٢] يترتب على أوضاع « الكوادر » السينمائية المتقدمة فكرياً وجمالياً وهو يتمثل في الحصار المحكم المضروب على هذه الكوادر والذي يحرمها من الممارسة الفعلية للانتاج السينمائي ومن فرصة التواصل مع الجماهير المشاهدة للسينما . على أن أزمة هذه الكوادر ليست مشكلة شخصية وإنما تتعلق بمجمل مشروعها السينمائي .ويمكن القول بأن غموض هذا المشروع المرتبط بسينما بديلة يمكن تبديده على ثلاثة مستويات وهي مستوى التوجه ومستوى المضمون ومستوى التواصل مع الجماهير ، ونعرض لكل من هذه المستويات كما يلي :

١ ـ توجهات السينما البديلة

يمكن القول بأن المشروع السينمائي البديل يتعرض لمشكلة هوية ، فأول ملامح هذا المشروع يتمثل في رفض نموذج سينما هوليوود الذي ينسخ بصورة مشوهة في السينما التجارية العربية . على أن البدائل المتصورة تتراوح بين مفهوم سينما تحررية خاصة بالعالم الثالث ، ومفهوم سينما عربية متحررة من التبعية .

فهناك كثير من الكوادر السينمائية في البلاد العربية ممن ينادون بتحرير سينما العالم الثالث من التبعية للنموذج السينمائي الشائع في الغرب . ولا تشتق هذه الرغبة فقط من الأخذ في الاعتبار للطبيعة الخاصة للمشكلات الاجتماعية والظروف (الايكولوجية)والموروثات والانساق الثقافية النوعية للعالم الثالث ، وإنما أيضاً من ضرورة أن تحتل السينما في هذا العالم موقعاً متقدماً في النضال ضد الامبريالية ومن أجل استكمال التحرر الاقتصادي والسياسي والثقافي للعالم الثالث . ولا يأخذ هذا الاتجاه في حسابه البعد العربي النوعي ، اذ يمكن أن تنشأ سينما بديلة في كل من البلاد العربية وتلتقي مع الملامح العامة المرغوب توافرها في السينما البديلة للعالم الثالث .

على أنه مع الاعتراف بمشروعية الرغبة في تأسيس سينما أصيلة وتحررية في العالم الثالث[١٣] ككل فإنه لا يمكن للسينمائي العربي المتقدم أن يتجاهل الشبكة المعقدة وذات الخصائص النوعية من مشكلات الوطن العربي والتي لا يمكن حلها إلا على صعيد عربي جماعي مما يحتم الاتجاه نحو تأسيس

---

(١٢) انظر : سيد سعيد ، « سينما وطنية وبديلة : مناقشة حول اطروحات الناقدَيْن قيس الزبيدي وعدنان مدانات ، » **السينما العربية** ، العدد ٢ (تموز / يوليو ١٩٨٠) .

(١٣) انظر : سيد سعيد ، « السينما الثالثة وأزمة البحث عن بديل ، » **الأقلام** (العراق) ، العدد ١١ (آب / اغسطس ١٩٧٧) .

سينما عربية التوجه والهوية . وهذا التوجه العربي لا يقتصر على مجرد جغرافية الانتاج وانما يجب أن يشتق من البناء الاساسي التحتي للثقافة العربية مأخوذة ككل وبحيث يعطى لهذا البنـاء مضمونـاً تحررياً . ومن هنا فإنه يمكن القول بأن سينما بديلة حقيقية تشترط التوجه الى الجمهور العربي برصيد الثقافة العربية الذي يساعد على تحقيق تواصل حقيقي بين الجماهـير العربيـة في اتون ممـارستها الجماعية لعملية التحرر . ويمكن ان نترجم ذلك من ناحية أخرى في ضرورة تقويض الشوفينية المحلية والتي ترتع بمفاهيم تجزيئية والكامنة في صلب السينما المنتجة في بلاد عربية مختلفة ، خاصة مصر .

٢ ـ مضمون السينما البديلة

وهناك مستوى آخر لمناقشة معنى السينما البديلة وهو يتصل بمضمونها . فهناك اتجاه يقصر مضمون السينما البديلة على مجرد وجود تيار قومي من الافلام التي تعالج موضوعات جادة يتـرك تحديدها لحرية الفنان ، فالافلام التي تعالج الاغتراب الفردي ، او التجربة الحسية والوجودية لأنماط بعينها من الشخصيات او مشكلة جزئية ذات طبيعة أصيلة كلها يمكن أن تضم الى مفهوم السينما البديلة ، كما يرى هذا الاتجاه . إن تبرير هذا الاتجاه يستمد من واقع أن السينما التجارية العربية على نقيض مثيلاتها الأوروبية والأمريكية لا تترك هامشاً ملموساً للسينما الجادة من حيث المضمون مما أدى بالمشايعين لهذا المفهوم العام للسينما للانتقال الى مواقع المعارضة . على ان سينما بديلة حقيقية لا تستطيع ان تكتفي بمجرد الجدية في المعالجة النوعية لقضايا متنوعة ، بل عليها أن تحاول الالتقاء مع الجماهير الشعبية بحيث تعالج المشكلات الاجتماعية والتي يعانيها قطاع واسع من الناس وبهدف ان يتم دفع الجماهير الى المشاركة وهزم اغترابها واستلابها الاجتماعي والسياسي والثقافي ، ودعوتها الى مواجهة وتحدي واقعها في إطار مشروع عربي للتحرر السياسي والاجتماعي . وان يتم ذلك بصورة تجعل الجماهير نفسها قادرة على تمثل هذه المهمات وتدخل ذلك الى صلب الايديولوجية الشعبية . أي أنه على حين تسعى السينما التجارية الى تعميق اغتراب الجماهير العربية ، فإن سينما بديلة حقيقية يجب ان تشارك في تحرير هذه الجماهير من استلابها الثقافي والاجتماعي .

ويبقى مع ذلك أن السينما البديلة هي حقل لالتقاء تيارات متعددة من الناحية الايديولوجية والجمالية ، بشرط أن تأخذ في اعتبارها هذا المجال العام لمضمون العمل السينمائي .

٣ ـ التواصل مع الجماهير

ونقصد بذلك على وجه التحديد أن السينما البديلة تؤسس على مشروع متكامل يقتضي تغيير قواعد واصول المشاهدة بحيث يعاد تكوين الجماهير نفسها وتحويلها من حالة التفتت والتبعثر الى حالة تكسب فيها قواماً اجتماعياً له هيكل اجتماعي وتوجهات واستعـدادات فكريـة وجماليـة وأخلاقيـة وسلوكية . وتفرض مهمة التواصل على الجماهير عدداً من المهمات الفرعية وهي خلق منافـذ بديلـة للمشاهدة وأشكال جديدة لها ، دعوة الجماهير للمشاركة بفعالية اثناء عملية التلقي ، تحقيق عملية تعلم حقيقية وإطار لاستيعاب الواقع المعاش والجمالي .

وبديهي أن هذه الملامح والأهداف للسينما البديلة ليست أمراً سهلاً ، فهنـاك أولاً درجة من التعارض بين هذه الأهداف على الصعيد العربي المحدد . فقد يقتضي التواصل مع الجماهير درجة ما من التضحية بالقوالب والتقنيات الجمالية التي تمثل أحد مجالات تميز الكادر السينمائي الراقي في البلاد العربية . وهناك من ناحية اخرى جملة المشاكل المتصلة بالتغلب على الحصار المضروب على

السينما البديلة بكل تياراتها . ويؤدي تعدد حلقات المشكلات التي تصادف مشروع السينما البديلة الى تعدد المداخل التي اقترحها مفكرو السينما البديلة في البلاد العربية .

ويمكن رصد **ثلاثة مداخل أساسية** لحل المشكلات العملية للسينما البديلة .

أ - مدخل السينما الثورية : ينظر البعض الى السينما البديلة على أنها بالضرورة سينما سياسية ثورية ، ويقصد بهذا المصطلح أن تتخذ النخب السينمائية المتقدمة موقفاً محدداً من استخدام وتوجهات ومضمون العمل السينمائي كأداة لتنوير المجتمع أو تواكب تطوره الثوري . ويقوم هذا المنظور على تشخيص لوضع السينما يعتبرها تعكس ايديولوجية وعلاقات الانتاج والتوزيع القائمة في مجتمع رأسمالي ، ويعتبرها أيضاً - حتى في غياب ملكية الدولة لوسائل الانتاج السينمائي - أحد أجهزة الدولة الايديولوجية وهي تكتسب شروطها وخصائصها المحددة من الطبيعة الخاصة للدولة ومجمل علاقات الانتاج . والدولة في الوطن العربي تتسم بأنها دولة متخلفة وسلطوية . ومثلما تعمل علاقات الانتاج الرأسمالية التابعة على الاستبعاد المنظم وشبه الكامل لاستخدام ديموقراطي للسينما ، فإن اجهزة ومؤسسات الدولة المتخلفة تقوم على حماية الاحتكار الايديولوجي لهذا الوسيط التعبيري عن طريق العنف المادي اساساً والعنف المعنوي والادبي بصورة تكميلية من اجل تصفية تامة للمعارضة في هذا المجال الحيوي للاتصال الجماهيري، اي ان مشكلة السينما هي بالاساس سياسية اكثر منها اقتصادية[١٤] .

ويؤدي هذا التشخيص لمشكلة السينما البديلة في الوطن العربي الى تصوّر محدد لحلها . ففي مقابل سينما القمع السياسي لابدمن ان تكون هناك سينما التثوير السياسي .وتتخذ هذه السينما اشكالاً متعددة مثل سينما الواقع وسينما التحرير . والمبادىء التي تعتمد عليها هذه السينما هي : (أ) الاطاحة التامة بمجمل المنظومة السينمائية التجارية القائمة على الانتاج الكبير وسلاسل التوزيع ونظام النجوم ... الخ . فهي سينما قليلة التكاليف يفضل أن يقوم على إنتاجها إخراجاً وتمثيلاً عناصر من الشعب نفسه بحيث يتحطم التمييز بين الانتاج والمشاهدة، وهي أخيراً لا تعترف بالضرورة بالقيود الاجرائية واللائحية التوجيهية التي تفرضها الدولة : (ب) (ب) عدم القيام بقطع نظيف وكامل مع السينما السائدة ، وإنما اعتماد مبدأ كفاحي في المضمون والاسلوب ووسائل التنفيذ .

والمشكلة في هذا المدخل هي أنه يتجاهل عدداً من الأمور . أولاً : يتجاهل هذا المدخل ان السينما الثورية لا تستطيع ان تنشأ وتتطور كبديل إلا في شروط ثورية ، وهو أمر يصعب معه وصف الحالة التي تمر بها المجتمعات العربية . والثاني : أن هذا المدخل يتجاهل ان هناك اشكالاً وتوجهات للابداع السينمائي قد لا توصف بالثورية السياسية ولكنه يؤدي الى تراكمات مهمة في الاتجاه طويل المدى نحو تثوير المجتمعات العربية او تحريرها ، والثالث أنه في غياب تأييد واسع النطاق لمثل هذه السينما فإنها لن تشكل بديلاً للسينما التجارية السائدة ، بل مجرد ممارسة نقيضة لها وعلى هامشها ، إذ لا تستطيع هذه السينما الثورية أن تزيح السينما التجارية من على عرشها ، بل إنها تترك الجماهير المشاهدة للسينما على اتساعها لبراثن هذه السينما التجارية .

ب - مدخل « البراغماتية » السياسية : ينظر هذا المدخل الى السينما البديلة باعتبارها وعاء

---

(١٤) انظر : يسرى منصور ، « كلمات ليست هادئة نحو السينما البديلة ، » **سينما - الفن السابع** ، (كانون الثاني / يناير ١٩٨١) .

لكل التيارات السينمائية الجادة الهادفة الى تحقيق تراكم طويل في وعي الجماهير السينماني بحيث ينقلها تدريجياً من التواطؤ مع السينما التجارية الى رفضها . ويعتبر هذا الاتجاه أن مشكلة السينما تحتوي على جانب اقتصادي وجانب سياسي ، ولكنه ينظر الى الجانب الاقتصادي باعتباره أكثر خطورة وفعالية في مجال استبعاد وتضييق الخناق على السينما الجادة وذلك لأن هذه الأخيرة لا تستطيع أن تمثل منافسة فعالة للسينما التجارية ، ناهيك عن مقاطعتها مالياً وفي الانتاج والتسويق . وفي المقابل يرى هذا الاتجاه أن المشكلة السياسية التي تعوق تطور سينما جادة أخف وطأة . فعلى حين أن للنظم العربية القائمة جانباً قمعياً وتجهيلياً، فإن لبعضها جوانب إيجابية في المجال القومي وفي مجال التغيير الاجتماعي . ولهذا يطرح هذا الاتجاه إمكانية التعاون مع بعض النظم العربية التي تنشىء وتدعم قطاعاً سينمائياً عاماً بحيث تستغل هامش الحركة الذي تتيحه هذه النظم من أجل النفاذ الى الجماهير . وعلى الرغم من ان هذا الاتجاه لا يستبعد الأشكال المختلفة للسينما التجريبية ، فإنه يتصور أن تكون السينما البديلة منافسة من حيث اسلوب الانتاج الكبير للسينما التجارية وبحيث يتركز الفارق في التوجهات والمضمون والاسلوب الفني[١٥] .

والمشكلة مع هذا المدخل أنه يتجاهل تجربة التعاون مع القطاع العام في عدد من الاقطار العربية . فلقد انتهت هذه التجربة الى حصيلة بائسة العدد من الافلام الراقية ، ضاعت ملامحها المتميزة في سيل الافلام الهابطة التي أنتجها القطاع العام أو أشرف وشارك فيها بصورة او أخرى . كما يتجاهل هذا المدخل أن السلطات العربية لا تسمح الا بهذه النوعية من الافلام الجادة التي تصب في النهاية في طاحونتها والتي قد تنتهي الى تكريس دكتاتوريتها السياسية ، كما أن ازدياد الطابع الدكتاتوري والديماغوجي لعدد من النظم العربية التي كان التعاون معها ممكناً في نهاية الستينات واوائل السبعينات يجعل إمكانية استمرار التعاون على أسس نقدية ومستقلة أمراً يقترب من الاستحالة . وفوق ذلك كله فإن التعاون مع هذه الانظمة من خلال القطاع العام يظهر السينمائي كأحد عملاء السلطة ويحرمه من مصداقيته أمام الجماهير ويجعل من ثم تواصله معها من الصعوبة بمكان .

ج ـ مدخل « البراغاماتية » الاقتصادية : يتفق هذا المدخل مع المدخل السابق في تحديده لطبيعة السينما البديلة كوعاء يضم التيارات المختلفة من السينما الجادة ، كما يتفق مع التشخيص السابق لأزمة السينما البديلة باعتبارها أزمة اقتصادية وسياسية ، ولكنه يختلف في تحديد أن الجانب الأساسي هو المشكلة السياسية وليست الاقتصادية . ويعتبر هذا المدخل أن ضمان حرية الفنان السينمائي واستقلاله هو الوسيلة الأساسية لضمان اتصاله مع جماهير المشاهدين والمستهلكين للسينما . وعلى نقيض التوصيف السابق ، فإن تيار البراغماتية الاقتصادية يشدد على الجانب المعادي لحرية التعبير في البلدان العربية ويعتقد بأن السوق التجاري للسينما ليس مغلقاً تماماً أمام الانتاج السينمائي الجاد ، بل ويسمح بهامش حقيقي لهذا الانتاج ، ويمكن أن يتسع هذا الهامش اذا ما أحسن استغلاله . ويوصي هذا المدخل بالتالي بأن تدخل السينما البديلة كمنافس تجاري قوي للسينما السائدة . ويقوم هذا الاعتقاد على ان الجماهير سوف تختار في النهاية جانب السينما الجادة وسوف تنعطف بعيداً عن السينما الهابطة كلما توسعت رويداً رويداً مجالات نفوذ السينما الجادة[١٦] .

---

(١٥) انظر : عدنان مدانات ، « من السينما البديلة الى السينما الوطنية » ، **السينما العربية** ، العدد ١ (تموز / يوليو ١٩٧٩) .

(١٦) انظر : احمد الحفناوي ، « السينما البديلة خطوة نحو المجتمع البديل » ، **سينما ـ الفن السابع** ، (كانون الثاني / يناير ١٩٨١) .

والمشكلة أيضاً مع هذا المدخل أنه يتجاهل القضايا المعقدة الخاصة بتمويل وإنتاج السينما البديلة . فلو أنها عملت على أن تكون بديلة حقاً من حيث التوجهات والمضمون والاسلوب الفني فإنها سوف تخنق عمداً ولن يترك لها موطىء قدم . وقد بدأ عدد من المخرجين الجادين مهنتهم بهذا الفهم ثم انتهوا الى تكريس السينما الهابطة نتيجة يأسهم من نجاح الافلام الراقية تجارياً . وفوق ذلك فإن هذا المدخل لم يقدم أي تحليل للمشكلة السياسية وكيفية تجاوزها . ويتجاهل هذا المدخل أخيراً مهمة السينما البديلة في مجال تأسيس تقاليد مستقلة للمشاهدة ، ولاسلوب الانتاج .

د ـ ما هو الحل إذن لأزمة السينما البديلة في الوطن العربي ؟ إننا نقدم ـ في مواجهة المداخل السابقة ـ مدخلاً يقوم على مفهوم سينما الجدل الاجتماعي . ونقصد بهذا التعبير أن السينما تشتق مهمتها من أرضية الجدل الاجتماعي الأشمل . ويتسم الجدل الاجتماعي بأنه يتدفق في شكل منظومة تاريخية وفي مراحل لكل منها تناقضاتها الخاصة والامكانيات الموضوعية والذاتية المحددة التي يمكن استخدامها لحل هذه التناقضات حلاً تقدمياً . والقضية الأساسية هي ان تحتل السينما موقعها كأحد أدوات الجماهير العربية المضطهدة وفي سياق تحريرها في اطار الشروط الموضوعية (والمتصلة بتطور التكوين الطبقي والاجتماعي العام) والذاتية (يا المتصلة بتطور الوعي والتنظيم الجماهيري ومجمل الممارسة السياسية) . وهناك عدد من المبادىء العامة التي تسجد مفهوم سينما الجدل الاجتماعي ، يمكن ذكرها بايجاز كما يلي :

(١) **إستقلالية الفنان السينمائي عن اجهزة الدولة** : ويقصد بالاستقلال هنا الجانب الفكري والمؤسس للفنان السينمائي الراقي . ولا ينفي هذا المبدأ إمكانية التعاون مع القطاع العام السينمائي في بعض البلدان العربية كلما تضمن ذلك إمكانية محددة لخدمة أغراض الفنان النقدية والجمالية وكلما انتفى أن يستخدم الفنان لتبرير الأمر الواقع . ويجب دراسة إمكانية التعاون في كل حالة على حدة . ومن ناحية أخرى فعلى الفنان السينمائي ان يشيد هياكله الجماعية المستقلة والتي تضمن لموقفه النقدي أساساً ملائماً لتجميع الموارد والامكانيات وتنظيم الحركة وحماية الحقوق والحريات .

(٢) **الموقف النقدي والكفاحي** : ويعني هذا المبدأ ان يقف الفنان دائماً في طليعة مجتمعه وبحيث لا يؤدي احتلاله لموقف متقدم من القضايا الاجتماعية والسياسية لبلاده الى انعزاله عن الجماهير المتلقية لدعوته الثقافية والجمالية والسياسية . إن الفنان لا يستطيع ان يقدم ويحقق مجمل برنامجه للتغير الثقافي والاجتماعي في لحظة واحدة ومهما كانت الأسس المادية للتغيير ولكن عليه ان يمسك بالحلقات الأساسية للتطور الممكن موضوعياً ، وأن يحاول حل التناقضات المحددة لصالح الجماهير والمشروع الاجتماعي ـ السياسي العربي ككل من اجل التحرر والتنمية ، وبهذا يصير الموقف النقدي موقفاً تاريخياً في الوقت نفسه.

(٣) **تعددية الأساليب والأشكال المؤسسية** : ويعني ذلك ان يستغل الفنان المتقدم جميع الامكانيات والأشكال المتاحة موضوعياً سواء من خلال السوق التجاري او القطاع العام أو من خلال تطوير هياكل مؤسسية خاصة ، وبحيث تكمل هذه الاشكال بعضها البعض . إن إزاحة وإحلال السينما التجارية سوف يستغرق مرحلة تاريخية كاملة وينبغي ان يتم النضال ضدها بجميع الأشكال والأساليب شرط الا يهدد ذلك بالتخلي عن المضمون والتوجهات التي تميز السينما البديلة . ويعني مبدأ

التعددية أيضاً إتاحة الفرص لجميع التيارات الجمالية والفكرية التي تتفق على الشروط العامة للتوجهات والمضمون التي ذكرناها سالفاً .

ومع ذلك فإن وضع مبادىء سينما الجدل الاجتماعي لا يحل بحد ذاته المشكلات الضخمة التي تعيق نشأتها وتطورها . ويمكن القول بأن هذه المشاكل تنقسم الى جانبين هما جوهر المناقشة : مشكلة التواصل مع الجمهور المتلقي ، ومشكلة الهياكل المؤسسية للسينما البديلة ، وسوف نتحدث بإيجاز شديد عن كل من هذين الجانبين .

(أ) **مشكلة التواصل مع الجماهير** : ينظر بعض السينمائيين الى عملية ترقية الوعي الثقافي والجمالي للجماهير كما لو أنها عملية ملء لرؤوس فارغة بأفكار حديثة . ويكتمل مع هذا الفهم اعتقاد بأن العمل الجمالي والفن هو عملية تتصف بانعزالية الانتاج عن التلقي . وينظر لعملية التلقي ذاتها كما لو أنها استراحة كسولة . كل هذه الاعتقادات تستند على رؤية خاطئة للجمهور المتلقي . فالجمهور يذهب الى السينما ولديه ايديولوجية كاملة تتسم بدرجة متفاوتة من عدم الانسجام والتناقض ، وهو يعكس هذه الايديولوجية على العمل السينمائي فيتعاطف معه او ينفر منه أو يستخدمه كمادة او نقطة ارتكازية لسخريته . وتتناول الايديولوجية الشعبية كلا من المضمون والشكل ، وقد نجحت السينما التجارية الهابطة كما أسلفنا في التقاط بعض عناصر هذه الايديولوجية وتضمينها بوجهة نظر البرجوازية او الطبقات السائدة المستغلة . وليس ثمة ما يمنع من ان يقوم الفنان السينمائي المتقدم من استعارة او استخدام بعض القوالب الشعبية والاستعانة ببعض الثيمات الشعبية في عمله التعبيري بحيث يضمنه وجهة نظره المتقدمة . والبديل لهذا المدخل هو أن يحاول الفنان المتقدم ان يوصل مجمل رغباته الفكرية والجمالية دفعة واحدة ، وهو امر ثبت ان الجمهور غير قادر على التعاطف معه . وكثيراً ما يقوم الفنان السينمائي العربي المتقدم بالانتاج وهو يضع نصب عينيه لا جمهوره القومي وإنما آراء ومعايير المهرجانات العالمية ، وينتهي ذلك الى فشله داخل بلاده . وفي رأينا أنه لا بد من قطع نصف الطريق الى الجمهور سواء من ناحية الشكل أو من ناحية المضمون .

ويتوقف على نجاح السينمائي العربي المتقدم في التواصل مع الجماهير حل جملة من المشكلات الاقتصادية والمؤسسية للسينما البديلة ، فلو تمكن هذا السينمائي من اطلاق جدل التلقي الشعبي للعمل الجمالي فسوف ينجح أيضاً في النفاذ من حصار السينما التجارية له ، وسوف يمكنه ذلك أيضاً من النجاح التجاري الذي هو شرط جوهري لمواصلة الانتاج في مجتمع رأسمالي . ومن ناحية ثالثة فإن قدرة السينمائي المتقدم على التعلم المتبادل مع الجماهير سوف يوفر درجة ملموسة من الحماية السياسية لانتاجه الجمالي ولذاته .

ب ـ المشكلة المؤسسية والاقتصادية : لن يستطيع الفنان السينمائي المتقدم ان يعطي قوة دفع كبيرة للسينما البديلة إلا إذا نجح في حل مشكلة التواصل مع الجماهير . على ان المبادرة بتأسيس هياكل مستقلة هي الخطوة الأولى على هذا الطريق . ويمثل النضال من أجل خلق مؤسسات مستقلة للسينما البديلة أحد فروع النضال الديموقراطي العام وخاصة في مجال حرية التعبير . وليس هناك شكل واحد فقط لهذه المؤسسات ، اذ يمكن أن تشمل اتحادات النقاد وكتاب السيناريو واتحادات او نقابات المخرجين وخريجي معهد السينما والمشتغلين بالمهنة في كافة فروعها ، وكذلك المنتديات القائمة على تعميق الثقافة السينمائية . غير أن أهم صيغتين للمؤسسات المستقلة للسينما البديلة هما **الجمعيات التعاونية للانتاج السينمائي واصدار مجلات سينمائية من خلال مؤسسات**

مستقلة. ويمكن للمجلات المستقلة ان تصير ليس فقط منبراً للتعبير والثقافة السينمائية وإنما أيضاً محاور منظمة للحركة السينمائية في عمومها . أما الجمعيات التعاونية للمنتجين والفنانين السينمائيين فهي الشكل الذي تقترحه لتجميع الامكانيات المتاحة واستثمارها في مجال انتاج السينما البـديلة . ويمكن لهذه الجمعيات ان تعتمد على تعبئة المدخرات الصغيرة للمشتغلين بالسينما البديلة وأن توسع من مواردها من خلال اعادة استثمار عائد الانتاج المربح ومن تبرعات العاطفين على اهداف السينما البديلة من خارج نطاق جمهرة المشتغلين بالسينما .

والأمر الجوهري أيضاً هو أن **تكتسب حركة السينما البديلة بعداً عربياً بارزاً** . فلقد نجحت السينما التجارية الهابطة في تكتيل ودمج الطبقات المستغلة في الوطن العربي بأسره في شبكة انتاجها ، وقد ساعد ذلك كما سبق شرحه ، على التسميم المتبادل للانتاج والمشاهدة السينمائيـة بين البـلاد العربية . ويمثل الطريق المعاكس ، اي تكتيل المهتمين بالسينما البديلة والعاطفـين عليها في الـوطن العربي بأسره ، تحدياً هائلاً أمام الكوادر السينمائية المتقدمة من مختلف اقطار هذا الوطن . ويعد هذا التكامل التقدمي العربي بحلول خلاقة ليس فقط لمشكلات تمويل السينما البديلة ، وانما أيضاً لمواجهة غير مسبوقة لمشكلاتها السياسية والنقابية □

السينما المصرية ..السينما العربية ..السينما البديلة: بحث حول حصاد سينما السبعينات

ابراهيم الدسوقي

ناقد سينمائي من مصر .

- ١ -

لم يكن احد يتصور ان ما طرحه واعلنه كل من «فرناندو سولانس» و«اكتافيو جيتينو» عمّا سمي بنظرية «السينما الثالثة» يمكن ان يصبح هدفاً يسعى اليه بعض الشبان من المخرجين العرب، بل انهم يحاولون تحقيق تلك النظرية في ظل الاوضاع الراهنة ـ اقتصادياً ، سياسياً ، واجتماعياً ـ على الرغم من سيطرة السينما التجارية ـ على المستوى التوزيعي والحرفي ـ على السوق العربية .

ونظرية «السينما الثالثة» التي نشرت في بحث تحت عنوان «السينما والثقافة والتحرر من الاستعمار في كانون الاول/ ديسمبر ١٩٧٣»، ثم ما قدمه كل من «سولانس وجيتينو» في الملتقى الدولي الاول في السينما الجديدة الذي انعقد في كندا ـ حزيران / يونيو ١٩٧٤ ـ تحت رعاية وتنظيم الناقد الكندي «اندريه باكيه»، تطرح تصوراً أمثل لما يمكن ان تكون عليه السينما في العالم الثالث ، والدور الذي يجب ان تلعبه كي تصل بالجماهير الى لحظة تنوير يمكن من خلالها ان تقوم السينما ، بتوجيه الشعب الى اهدافه القومية بعيداً عمّا خلفته رواسب وميراث الاستعمار من موروث ثقافي يؤثر على النواحي السياسية والاجتماعية، لذا فتعريف السينما الثالثة كنظرية يسبقه تحليل لنوعية «السينما الاولى».. و«الثانية».. وصولاً الى «السينما الثالثة».

فالسينما الاولى ـ كما جاءت في بحث ـ سولانس وجيتينو» ـ هي سينما وظيفتها ترفيهية تماماً، وهي تقدم لهذا الانسان الذي يشقى طوال نهاره، وعليه ان يرى شيئاً مختلفاً في المساء ينسيه عناء تعبه وكده! فتقوم بتقديم كل ما هو مسلٍ .. ومشوق من خلال شريط ملون يبهر هذا الانسان ويمتعه، وفي الوقت نفسه يلبي احتياجاته الغريزية من خلال الاستمتاع البصري، وتلك خصائص السينما الهوليودية بأنماطها المتعددة .

اما السينما الثانية فهي تهدف الى التعبير عن هذا الانفصال الذي يصيب المثقف البرجوازي الصغير بينه وبين مجتمعه الحافل بالتناقضات، وهو لا يستطيع ان يتجاوز او يتخطى تلك التناقضات بل انه يستسلم لها من خلال محاولته التعبير عن الرفض والقلق اللذين يجتاحانه، ولا يجد في النهاية

سوى تقديم بعض الاعمال السينمائية ذات الدلالات الفكرية، ولكنها تبقى في اطار ما تقدمه السينما الاولى فيالكثير من الحالات ومن داخل دوائر الانتاجالمسموح به.لذا فالسينما الثالثة تمثل مرحلة رفض الاستمرار في التعبير عن النفس تعبيراً مشوهاً من داخل دوائر نظم الانتاج السائدة والتحول الى نوع آخر من الانتاج اكثر استقلالية، يتم بوسائل سمعية/ بصرية مبسطة كاستخدام كاميرا ١٦ ملم، والاستغناء عن النجوم، وذلك بتحويل عناصر الموضوع الى شكل سينمائي يطرح مضمونه، مثلما فعل كثيرون امثال «جودار» في فرنسا، والاندر جراوند سينما في امريكا، وما يفعله مخرجو سينما شعوب (لاحكومات) العالم الثالث لتقديم شكل المجتمع كما هو دون اضافة «رتوش» اليه ومناقشة واقعه من اجل الاصلاح في شكل سينمائي مميّز، وما هو مأمول من هذا المجتمع .

- ٢ -

تلك النظرية، ومحاولة بلورتها هي جزء من محاولة ادراكنا العميق لدور السينما في المجتمعات النامية، حيث لا بد من تجاوز ما قدمته السينما التقليدية كحرفة تجارية لا تستهدف سوى التجارة والربح فقط، اي صنع سينما استهلاكية او ما أطلق عليه الناقد الكندي «اندريه باكيه»: «سينما فائض القيمة». ولتجاوز تلك السينما لا بد بالضرورة من ان يكون هناك مناخ ثقافي صحي يسمح بحرية الحركة الى جانب البحث عن مصادر استقلالية في عمليات التمويل، واقامة سينما بديلة جادة، ومختلفة عن الشكل السائد، وهذا التمويل المادي هو ما يمثل حجر الاساس الى جانب مشكلة التوزيع وخلق السوق. لذا كان هناك اكثر من تساؤل: هل شهدت السبعينات محاولات لصنع سينما جادة او بديلة على الساحة العربية والمصرية، والى اي مدى تأثر صانعو الفيلم بتلك النظرية؟

للوهلة الاولى بعد قراءة ما قدم خلال السبعينات نجد ان الانتاج السينمائي قدم العديد من المحاولات الجادة وان ظلت هناك اعمال لا ترقى الى الكمال من الناحية الفنية كحرفة، ولكنها حاولت ان تقدم سينما جديدة مختلفة وفي ذات الوقت قدمت السينما المصرية اعمالاً مهمة وجادة تم انتاجها في السبعينات بجهود فردية ـ حيث شهدت السبعينات تراجعات كبيرة في شكل انتاج القطاع العام وانحساره تماماً ـ وهي اعمال متميزة في محاولتها ترجمة الاوضاع المصرية والعربية التي شهدتها المنطقة، وسط هذا الكم الهائل الذي تخرجه «ستوديوهات» ومعامل القاهرة من اعمال القطاع الخاص الذي يدخل هذا الميدان من باب الاستثمار السريع لرأس المال في ظل شروط السوق وتحكم الموزع .

والإمل في خلق السينما المصرية الجادة، ظل متوقفاً على ما يمنحه القطاع العام ـ خلال الستينات ـ لمجموعة من المخرجين الشبان الجدد لمحاولة نقل الواقع المصري ـ كمجتمع ـ من افلام الهزل وهز البطن و«الاكشن» الى محاولة مخاطبة العقل واحترام المتفرج لصنع سينما جادة، على الرغم من سلبيات المناخ السينمائي في تلك الفترة، من حيث تواجد القطاع الخاص بما يقدمه من نوعية رديئة، وتقلص دور القطاع العام وتسليم عمليات الانتاج في القطاع العام الى منتجي القطاع الخاص الذين افلحوا في الاجهاز على التجربة، والاستيلاء عليها مادياً .

نجد ان هناك اعمالاً مهمة تم انتاجها خلال تلك الفترة تعتبر من انضج الاعمال السينمائية في تاريخ السينما المصرية والعربية، هذه الاعمال لم تكن تبغي تقديم سينما بديلة، بل هي محاولة من اجل استخدام الممكن والمتاح في السينما التجارية السائدة ـ لتقديم سينما جادة لكنها لم تستمر طويلاً، بل اصيبت بالركود في اعقاب ما احدثته هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧ من تحولات سياسية واقتصادية،

اثرت على شكل التفكير في المجتمع العربي ككل، بل ان هناك من توقفوا في اعقاب هذه الفترة؛ وبالتالي ظل الانتاج يتأرجح بين المفهوم السائد من اجل صنع سينما استهلاكية ارقى نماذجها «خلي بالك من زوزو» وبين صنع سينما جادة تنقل هموم المواطن والاوضاع التي تمر بها المنطقة العربية، وان ظل هذا التفاوت بعيد المنال في لحظات كثيرة، فالانتاج غير المنتظم.. يتم بجهود ذاتية .

وعلى المستوى المصري، قدمت «جماعة السينما الجديدة» بمساعدة مؤسسة السينما، فيلمين في اوائل السبعينات، وهما يتحدثان عن الاوضاع التي مرت بمصر قبل وبعد هزيمة حزيران / يونيو ١٩٦٧ ، التمزق الذي يصيب مجموعة من الشباب قبيل حزيران / يونيو ، ورؤياهم للواقع المصري والعربي في « الظلال في الجانب الآخر » لغالب شعث ، والصمود في مواجهة تقدم العدو الاسرائيلي فوق ارض سيناء المصرية ، وكيفية استشهاد هؤلاء الشباب ـ ابناء البلد ـ في « اغنية على الممر » ، لعلي عبد الخالق ، بينما قدم اشرف فهمي فيلم « ليل وقضبان » وبحث عن القهر الاجتماعي الذي طوّق فترة من حياتنا ، وطرح محمد بسيوني قضية يناقشها بموضوعية حول مفهوم الشرف في المجتمع الشرقي في « الرجل الآخر » ، وقدم كل من علي بدرخان وسعيد مرزوق قضية المرأة ومدى قدرتها على الاختيار لشكل حياتها في ظل اوضاع اجتماعية وقوانين رجعية في « الحب الذي كان » ، و« اريد حلاً » ... بينما تأخذ القضية الاجتماعية والسياسية مساحة كبيرة في اعمال يوسف شاهين خلال السبعينات ، ومحاولاته مستمرة في خلق حوار بينه وبين جماهيره ، فهو يقدم سينما يحاول من خلالها تناول شريحة من انسان هذه المنطقة في اعقاب هزيمة حزيران / يونيو بحثاً عن السمات المشتركة التي يمكن ان تؤدي الى فهم كيفية ضياع الارض .. وازمة المثقفين .. وجذور الهزيمة والامل في الاجيال القادمة ، اي منذ « الارض » .. ومروراً بالثلاثية « الاختيار ... العصفور .. عودة الابن الضال » .

- ٣ -

الا ان المتتبع لانتاج السينما العربية في السبعينات، سوف يجد مؤشرات نحو صنع سينما عربية ذات مستوى فكري وفني لا بأس به، حاولت من خلاله ان تقدم صورة شكل جديد من السينما التي نأمل ان تتسع دائرتها خارج تيارات السينما السائدة، فهناك مجموعة من السينمائيين العرب الذين حاولوا ان يقدموا السينما الجادة او البديلة. منهم من حاول من خلال شكل الانتاج السائد ان يقدم اعماله ليصنع سينما جادة، وكما يقول رضا الباهي: «.. للوصول الى سينما بديلة يجب ان يكون هناك توزيع وانتاج بديلان..» ،بينما يرى برهان علوية: « .. انه لا خلاص للسينما العربية الا من خلال السينما البديلة..»، وهو لا يقدمها للمتفرج العادي بل الى «.. المتفرج الثائر على السينما السائدة بكل مواصفاتها، الايديولوجية والفكرية والجمالية..» بل يذهب بعيداً مطالباً وملحاً، «.. على ايجاد سينما بديلة، وفيلم بديل، بمضامين وايديولوجية واحاسيس واشكال روائية مختلفة..» .

والنماذج السينمائية كثيرة ترسم خطاً بيانياً تصاعدياً نحو صنع سينما عربية مميزة، الهدف منها اذكاء الشعور بوحدة وهموم العام والخاص في المجتمع العربي، وبالتالي لا يمكن فصل هذا عن ذاك، وان الانتاج سواء أكان في المشرق العربي او المغرب العربي، لا بد بالضرورة من ان يعبر عن انسان هذه المنطقة بشكل او بآخر .

- ٤ -

السينما السورية، قدمت العديد من الاعمال السينمائية ذات الصبغة الجادة والمتميزة

والشابة ـ في السبعينات ـ تعكس هموم الحياة الاجتماعية والوضع الاقتصادي مثل «اليازرلي».. و«الحياة اليومية في قرية سورية»، وتطرح القضية الفلسطينية بشكل واعٍ وواضح في «المخدوعون» الذي يتناول القضية من خلال رؤية سياسية واضحة لا تتوفر لدى العديد من السينمائيين العرب، كما يطرح جوانب القضية من خلال سرد روائي مدعم بالوثائق الخاصة بظروف القضية .

والقضية الفلسطينية، عندما تناولها توفيق صالح، لم يكتف فقط بادانة الانظمة العربية التي تريد ان تستثمر هذه القضية دون الخوض في كيفية حلها، وانما قدم صورة واضحة وصريحة لما يمكن ان تنتهي اليه هذه القضية، فهو يقدم المأساة ومحنة الضياع لهذه القضية ككل على يد قادة وحكام عرب! ومن خلال رسمه لرؤياه في ثلاث مراحل لثلاثة من الفلسطينيين من اعمال مختلفة، ثلاثة اجيال من شعب، ثلاث مراحل من المأساة، من شاهد ضياع الارض، من ناضل من اجلها، ومن ولد غريباً وبعيداً عنها ولا يعرفها!

توفيق صالح يستخدم عوالم هؤلاء بما فيها من كآبة تخنق الضمير الانساني، هؤلاء الذين يحاولون الوصول الى الجنة والحلم اللانهائي.. الى تلك البقعة المسماة «الكويت» والبحث عن مصدر رزق، يقودهم رجل ـ صار سخرية وملهاة بين من يملكون المال والاختام ـ فقد رجولته، وهو في الوقت نفسه يحيا على بؤس الآخرين وآمالهم، عبر الصحراء ـ ينقلنا توفيق صالح ـ الى ذلك الموت البطيء بعذابات الحاضر المستمر ومرارة الماضي التي تدفعهم لاجتياز الممنوع، وهذا التمزق الذي يجيش بداخلهم، مدفوعين بالعوز المادي: فهم بلا وطن ولا جوازات ولا اوراق رسمية، لكنهم يموتون داخل صهريج النفط ـ اختناقاً ـ اثناء عبورهم الصحراء ليصلوا جثثاً محترقة .. مكانها الوحيد «مقلبٌ «للقمامة على جانب احد الطرق، ويتبقى قول احدهم «ابو القيس» وهو يستعيد ذكرى استشهاد المعلم سليم اثناء المقاومة الاولى لغزو الصهاينة لفلسطين عالقاً في اذهاننا «.. يا استاذ سليم يا رحمة الله عليك، لا شك انك كنت ذا حظوة عند الله حين جعلك تموت قبل ان تقع القرية في ايدي الصهاينة فبقيت هناك، أتوجد نعمة الهية اكبر من هذه؟» .

توفيق صالح ينسج تلك الهموم معاً في اطار سينمائي جيد، بعيداً عن اي ابتذال فكري، يطرح المأساة باسلوب روائي بسيط، حاول فيه ايصال هدفه الى الجماهير العربية من خلال لمسات انسانية دقيقة يملؤها الشجن، ويدين بها المجتمع العربي ككل.

واذا كانت السينما السورية قد قدمت العديد من الشبان الجادين: نبيل المالح في «الفهد» و«السيد التقدمي»، مروان حداد في «الاتجاه المعاكس» و«حبيبتي يا حب التوت» الا ان هناك عملين من اهم الاعمال السينمائية . الاول «الحياة اليومية في قرية سورية» من اخراج عمر الاميرلاي، ينقلنا الى الواقع السوري المعاصر من خلال شريط تسجيلي طويل، حاول فيه تسليط الاضواء على بعض المشاكل الرئيسية التي تعترض تجربة الاصلاح الزراعي الذي تم تطبيقه، ومدى الجدوى منه في حالة عدم الانتفاع سواء أكان ذلك للارض او للفلاح بعيداً عن «البروباجندا» .يقدم الاميرلاي عملاً يحمل وجهة نظر فنية وفكرية واضحة، يختلف عن الفكرة السائدة في صنع فيلم تسجيلي، فهو يذهب الى احدى القرى على الحدود السورية / العراقية ـ في محافظة دير الزور ـ ليقدم تحليلاً سياسياً للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لأهل هذه القرية، عبر لقاءات ومقابلات طويلة حية بين اهل القرية ـ الفقراء ـ وموظفي بنك التسليف.. اغنياء القرية الذين يملكون الآلات ـ وطبيب المستوصف.. والمدرس.. ومندوب القوافل الثقافية.. والعمدة.. وضابط البوليس.. وامين الحزب او وحدة الحزب .

يتضح لنا مدى التزييف الذي يصرح به هؤلاء عند ربطه بالواقع ـ عبر الصورة المرئية ـ كحالة اجتماعية. فالتناقض ليس فقط في تصريحات المسؤولين، ولكن يبدو اكثر وضوحاً من خلال المدلولات ذات الاثر العميق والشديد، في البساطة التي ترسمها وقائع الصورة على الشاشة لمعاناة اهل القرية من الفقر، فغذاؤهم الرئيسي كسرة الخبز الجاف والشاي الاسود، وملامحهم واضحة الهزال، وامكانيات المستشفى محدودة، بالاضافة الى هروب الاطباء من تلك المناطق، بينما نجد المدرس يقوم بتعليم صبية اهل القرية قواعد الاستحمام والوسائل الصحية.. كغسيل اليد قبل الاكل وبعده، بينما لا توجد بالقرية سوى «طلمبة» مياه وحيدة يتجمع حولها البشر والحيوانات!! ويجيد «الاميرلاي» استخدام المونتاج في كشف الغرور في احاديث رجال ـ كبار ـ البلدة من خلال تلك الاقوال الانشائية التي توضح مدى عزلتهم مع متناقضات الصورة ـ الحقيقة ـ التي تفضح الجهاز ككل، و«الاميرلاي» يعتمد على اللقطات الطويلة التي تتيح الفرصة الكاملة لسماع ومشاهدة الاوضاع البائسة الى الدرجة التي تجعل فلاحاً عجوزاً يشق جلبابه بعد ان يحدثنا عن احواله المعيشية من فقر وجوع، وطرده من ارضه وبلدته «.. الحياة ايام الترك افضل..!»

اما العمل الثاني فيقدمه قيس الزبيدي «اليازرلي»، وهو شكل سينمائي متميز استخدم فيه تقنية مختلفة يطرح من خلالها هموم مجتمع يعيش على الهامش، ظفل صغير يخوض عالم الكبار وهو في سن المراهقة. انه يحدثنا عن الواقع الاجتماعي بابعاده الحياتية وتأثير الواقع الاقتصادي على التكوين الفكري لهذا الطفل الذي يتعرف على شكل الحياة عبر تجاربه العديدة التي يمر بها، حيث تختلط فيها الاحداث الواقعية بذكرياته.. وبتصوراته الخيالية التي تمثل ردود الفعل بداخله تجاه الواقع الذي يعيشه.. الاب الغائب وانتظاره الطويل.. الابنة التي خرجت بحثاً عما يسد احتياجات الاسرة المادية، فلا تعود.. بل تنساق الى الطريق الآخر لتصبح نكسة تلك الاسرة.. ولكنه الفقر! الام الصابرة التي تحاول ان تلملم الابناء، وهذا «اليازرلي» بهموم واقعه اليومي ورحلته الطويلة بين العمل وقيادة عماله وامله في الوصول الى غاية ترضيه ذاتياً.. الى تلك الفتاة «صبيحة»، كل هذا حاول الزبيدي ان يعكس من خلاله عالم الطفل الحقيقي ورؤياه وتصوراته الخيالية واقاصيص قاع المدينة بعيداً عن شكل الحدوتة التقليدية في سرد الاحداث، حاول اثارة المتفرج وايقاظ ذهنه منذ البداية بحثاً عن مخرج لعدم اندماجه، مستخدماً الشكل التسجيلي، وهو لا يخفي ذلك بل يوضحه ـ قيس الزبيدي ـ بقوله: «.. ان الشكل الادبي لهذا الفيلم الروائي يتمسك بكثير من مبادىء المنهج التسجيلي، هذه المبادىء التي تستطيع ان تعطي لهذا العمل جمالية خاصة... واذا استطعنا ان نرسخ تقليداً سينمائياً في مجابهة الواقع وعكس مشاكله بصدق فني، فإن هذا يؤدي الى انضاج عملية المشاهدة لدى الجماهير، او بتعبير آخر، ان الفيلم التسجيلي سيبرهن على امكانية نقل الواقع على الشاشة، وجعل عملية المشاهدة ـ على الرغم من ذلك ـ عملية جمالية ممتعة، وهذا ما عجزت السينما الروائية عن تحقيقه بشكل عميق حتى الآن..».

ـ ٥ ـ

السينما اللبنانية حاولت خلال السبعينات ان تتجاوز مرحلة الميلودراما والتقليد التجاري لصنع سينما، والا تكون تابعة بشكل او بآخر لذلك التيار من السينما السائدة التي اعتمدت على المغامرات الساذجة والمواقف الطريفة، بل حاولت من خلال مجموعة جادة من الشباب ان تعمق وتطور التيار الجاد الذي صنعه جورج قاعي وجورج ونصر وجوزيف فهري، فهي ترى ان محاولاتهم كان لا ينقصها الاخلاص للفكر الذي تحمله، ولكن كان ينقصها القدرة على التعبير عن الفكرة، وايجاد سوق قادرة على استيعاب هذا الفكر.

والجيل الجديد في السينما اللبنانية صقلته الحرب الاهلية والنزعات الفكرية والعصبيات القومية، وان كان هناك ارضية مشتركة فهي الاستنارة والجدية يحاول من خلالهما تقديم الوضع الراهن بجميع ابعاده او كما يقول ابراهيم العريس في كتابه **رحلة في السينما العربية** عن هذا الجيل: «.. كانت مقدماته خطوات ارهاصية على طريق طويل، ولكنها سينما لبنانية في نطاق الممكن..» ، وقد يكون اهم مخرجي هذا الجيل برهان علوية الذي قدم «كفر قاسم»، وهو بداية هذا الجيل اللبناني.. حاول فيه تقديم القضية الفلسطينية من خلال شكل صعب المعالجة، فهو يمهد للمجزرة التي اقترفها الجيش الصهيوني المحتل عام ١٩٥٦ وقبيل الاعتداء الثلاثي على مصر راسماً صورة لتلك القرية الآمنة خلال ثلاثة ايام. اهل القرية.. العمدة.. الرعاة والفلاحون.. المقهى برجاله وشبابه.. دوريات الامن الصهيوني.. المتعاونون معه.. عودة العمال الى القرية وانتظارهم لخطاب «عبد الناصر» ومناقشاتهم بعد ذلك، ليأتي الفجر الرابع مفجراً المأساة حيث يحيط الجنود بالقرية ويتم قتل كل من ليس في داره ، ليسقط الرجال والاطفال والنساء والشيوخ في مجزرة ، لارهاب اصحاب الارض الفلسطينيين .

برهان علوية، يتعدى التأثيرات العاطفية عند تقديمه لتلك المجزرة كي يصل الى قلب المأساة وبشكل بارد يجعل الصور المرئية اكثر دموية ليقدم اتهاماً عقلانيوموضوعياًمن خلال رصد المحاكمة في بداية العمل والاسلوب التسجيلي في احصاء اهل القرية الذين استشهدوا، وهو ـ علوية ـ لم يلتزم بقوانين البناء الدرامي عند كتابة السيناريو على الرغم من التزامه الصرامة في عرض تفاصيل المجزرة دون ان ينزلق الى نزعة ميلودرامية، بل انه يجنح الى الجانب الروائي كي يصل في النهاية الى كسره من خلال الشكل التسجيلي ليقدم من خلاله مضمونه الفكري ولايصاله الى جماهيره .

في الجانب التسجيلي نجد ان هذا الجيل ضم الكثيرين، فجورج شمشوم قدم «لبنان لماذا؟» ومعه قدم تساؤلاً كبيراً حول كيفية حدوث الانقسام داخل المجتمع اللبناني، وحول اسبابه، ويطرح القضية من عدة زوايا مختلفة باختلاف اللقاءات الطويلة حول الازمة اللبنانية والحرب الاهلية اللعينة. والحوار يقدم شخصيات من اقصى اليسار ومن القوى الوطنية الاخرى، مقدماً وقائع وبشاعة تلك الحرب، وكذلك وثائق تدفع اليمين الفاشي وتفضح تعامله مع الدولة الصهيونية، فالمشكلة ليست صراعاً طائفياً او فلسطينياً .

بينما تقدم جوسلين صعب تحليلاً سياسياً يلمس اطراف القضية في فيلم «لبنان في دوامة» بموضوعية شديدة، بين لبنان الماضي.. المباني الشاهقة.. الشوارع الواسعة باضوائها المبهرة، الى بيروت ذات البيوت الصفيح.. الازقة الضيقة بوجوه هؤلاء الفقراء.. مسيحيين.. مسلمين.. فلسطينيين، تقدم صورة هذا الواقع المرير من خلال ربط الوضع الاجتماعي بالصراع الطائفي.. والقضية الفلسطينية، متنقلة بين زعماء لبنان من اقصاهم يسارية الى اكثرهم ليبرالية مروراً برجال الدين، لتقدم وجهات نظرهم تجاه تلك الاوضاع. جوسلين تعتمد على الشكل «الريبورتاجي» كي تدفع المتفرج الى استمرارية المتابعة لهذه القضية بابعادها الكاملة والتي ما كان منتظراً ان تنتهي الى ما انتهت اليه .

« بيروت .. يا بيروت » فيلم مارون بغدادي رسم صورة المجتمع اللبناني قبل حدوث الحرب الاهلية. قصة شاب مسلم وفتاة مسيحية، وعلاقة حب، نتعرف من خلالها على شكل الحياة الطائفية في ظل دولة شعارات علمانية ـ ديمقراطية لنرى الى اي مدى كان البناء هشاً، وانه لا بد في النهاية من الصدام، ولا تقف تجربة مارون عند فيلمه الروائي الاول، بل هو يحاول من خلال اعماله التسجيلية اللاحقة ـ « كلنا للوطن » .. « تسعون » .. « كمال جنبلاط » ـ ان يتناول القضية من خلال

تحليل كامل لابعاد الصراع الاجتماعي وعرض لرؤية سياسية دون الانزلاق الى نـزعات حـزبية او استخدام الشعارات .

الى جانب هؤلاء، هناك رندة الشهال التي حاول من خلال فيلمها «خطوة.. خطوة» ان تقدم تحليلاً آخر لضياع لبنان عن طريق سياسة ـ كيسنجر ـ الخطوة خطوة! بالاضافة الى مدى استعداد المجتمع اللبناني لتفجير الازمة المترسبة بداخله، وهي ايضاً كزملائها تعتمد على الشهادات الواقعية والمقابلات الطويلة لتكشف ابعاداً اخرى معتمدة على وثائق الارشيف، تستخدم وجهة نظرها الملتزمة والمحددة سلفاً من خلال استنادها الى اقوال القوى الوطنية والمتعاطفة مع الوجود الفلسطيني .

ـ ٦ ـ

لم تقدم السينما العراقية في تاريخها الممتد منذ عام ١٩٤٥ حتى اواخر السبعينات سوى بعض الافلام التي يمكن ان تذكر على اصابع اليد الواحدة «سعيد افندي ١٩٥٧» ـ الذي يتناول فيه كاميران حسن الحياة اليومية لمدرس فقير ببغداد ومشاكل الفقر والجهل والمرض، «الحارس» ١٩٦٨، قدم فيه خليل شوقي قصة حب حارس ليلي يعيش وحيداً ويعمل من اجل ارملة يحبها.. ثم «التجربة» لفؤاد التهامي وهو فيلم قريب من فيلم «جفت الامطار» للمخرج المصري سيد عيسى، ولكن تبقى تجربة محمد شكري جميل ـ صاحب «الظامئون» ـ في «الاسوار» الذي كتبه عبد الرحمن الربيعي واعد له السيناريو صبري موسى، حيث تدور الاحداث في الفترة التي اتخذ النضال السياسي فيها اشكالاً متقدمة لاخراج المستعمر عام ١٩٤٨/١٩٥١، وهي قصة شاب يتدرج في مراحل التعليم المختلفة حتى يصل الى المرحلة الثانوية، لتبدأ افكاره في الاستقرار على اتجاه سياسي محدد، الا ان السيناريو قد اختار مرحلة اخرى اكثر فاعلية يمكن التعبير من خلالها عن مأساة ومشاكل الوطن وقضاياه السياسية، فكان عام ١٩٥٦ ، الذي شهد تأميم قناة السويس والاعتداء الثلاثي على مصر، ليقدم كفاح الجماهير في العراق ابان تلك الفترة .

وليست تجربة محمد شكري جميل فقط هي الاهم في السينما العراقية، بل هناك محاولات اخرى تقع في دائرة الاهمية كما في «يوم آخر» لصاحب حداد، و«النهر» لفيصل الياسري، و«بيوت ذلك الزقاق» لقاسم حول، وهي اعمال اقل ما يمكن ان يقال عنها انها التزمت بموقف ايجابي تجاه دور السينما في المجتمع النامي.

ـ ٧ ـ

لم تقدم الكويت في السبعينات سوى ثلاثة اعمال، الاول «بس يا بحر» حول انسان الكويت قبل النفط وهو يصارع البحر من اجل اللآلىء في شخصية «مساعد» الشاب الذي يحمل على كتفه محاولة الانتصار على البحر ذلك ان انتصاره يعد انتصاراً على شروط الحياة القاسية، ولكن مخرجه خالد الصديق بعد تجربته الاولى يترك الكويت ويذهب الى السودان ليقدم فيلمه الثاني «عرس الزين»، بينما قدم هاشم محمد فيلمه الاول «الصمت» الذي يدور في اجواء الثلاثينات حيث الكويت قبل ظهور النفط .

ـ ٨ ـ

من الساحل الشرقي حيث الخليج العربي بما فيه من تجارب سينمائية تحاول ان يكون لها شكل متميز، الى المغرب العربي. ومع اهم معقل سينمائي في هذه الرقعة، نجد السينما الجزائرية.. هي

السينما الوحيدة التي بدأت في تكوين جهاز كامل لعمليات الانتاج السينمائي من خلال «الاونيسك» : الديوان الوطني للصناعة والتجارة والسينماتوغرافية، وقد ظلت فترة طويلة تنتج اعمالاً تمجد حرب التحرير، الا انه بعد سينما المقاومة التي رصدها السينمائيون الجزائريون عبر العديد من انتاجهم «رياح الاوراس» و«وقائع سنوات الجمر» للاخضر حامينا و«الافيون والعصا» لراشدي . بدأت السينما الجزائرية تتجه الى المشكلات التي تواجه المجتمع بعد التحولات الاشتراكية والثورة الزراعية، ومحاربة العمال الزراعيين للاستغلال كما في «الغولة» لمصطفى الكاتب، او محاولة تحليل الدور المزدوج الذي لعبته النماذج الاقطاعية في بدء حرب التحرير الجزائرية في «نوه» لعبد العزيز طوليى، بيد ان هناك جيلاً سينمائياً جديداً بخلاف الرعيل الاول: فالامين مرباح يقدم تحليلاً سياسياً من خلال تساؤل حول قيمة الارض ومن يملكها، ومن اصبح يملكها ولماذا؟ وكيف استولت عليها السلطات الفرنسية من خلال مساهمة كبار الملاك من الجزائريين في اغتصاب الاراضي المملوكة لصغار الفلاحين الذين كانوا لا يتمتعون بحماية السلطات الفرنسية.. في فيلمه «المغتصبون»، بينما يقدم في فيلمه «الشبكة» صورة اخرى لحياة الصيادين وصراعهم اليومي. ومن ناحية اخرى نجد بوعماري من خلال فيلمين «الفحام» و«الارث» يرصد صراعاً آخر من صراعات التحول الاقتصادي. فنجد «فحامه» يفقد القدرة على مواصلة الارتزاق بعد دخول الغاز الى المدينة، فيقرر البحث عن عمل آخر، بينما يرسم «الارث» صورة لتلك العراقيل التي تواجه قرية تم تدميرها بفعل المستعمر الفرنسي؛ ومحاولة اعادة تنظيمها وبنائها مرة اخرى .

ليست فقط تلك المشاكل هي التي عالجتها السينما الجزائرية، فهناك «العرق الاسود» الذي قدمه سيد علي مازيف ويتعرض فيه لكيفية استغلال العمال الجزائريين في احد مناجم «الوئزة» في «كولون» الفرنسية. والبعض منا قد لا يدرك ان الكثير من هذه الاعمال كانت التجربة الاولى لعمل سينمائي حقيقي بالنسبة لمخرجيها، وقد يكون هؤلاء من انضج الرعيل الثالث الذين حاولوا تناول الواقع والتاريخ وربطهمابتطور المجتمع الجديد. مما ينم عن مدى تعلقهم بالثقافة الوطنية ومن تطور الرؤية الفكرية لتناول الموضوعات المعاصرة لديهم .

لكن قد يكون اهم ظاهرة في نهاية السبعينات بالنسبة للسينما الجزائرية مرزاق علواش الذي قدم «عمر قتلته الرجولة» ثم فيلمه الثاني «مغامرات بطل»، حيث تعرض في الاول الى المشاكل اليومية لشاب ـ عمر ـ يعيش وسط عائلته التي تسكن منزلاً ضيقاً يزدحم باخواتهوالى الشارع الذي يسكن فيه ونوعية الاصدقاء من الشباب، والعمل الذي يؤديه في رتابة، وعالمه الخاص المحصور بينهما المليء بالجفاف، ومدى ارتباطه وارتباط عالمه بجهاز التسجيل الذي يقتنيه، «عمر».. اذن يفتقد الى شريك يؤنس وحدته التي يعاني منها وبالتالي يلتقط علواش تلك الخيوط ويقدم صورة عن المجتمع الجزائري الذي يحيا فيه «عمر» وعن فقدانه الاتصال الانساني باقرانه، والتمكن من اقامة علاقة ما مع فتاة سمع صوتها ذات مرة عبر جهاز التسجيل الذي يملكه وهو صوت مليء بالشجن ولكنه لا يدري ولا يعرف كيف يمكن ان تكون البداية رغم علمه بصاحبة الصوت، انها مأساة الشباب العربي في اي مكان .

بينما نجده في «مغامرات بطل» يقدم اسلوباً آخر اقرب الى الميثولوجي»، فبطله المهدي بن حسن ـ لاحظ اسمه المهدي ـ ابن فلاح فقير في احدى القرى ، يجلب له ابوه مدرساً يعلمه معارف العصر ليطلقه في مهمة سامية.. رحلة طويلة عبر البلاد، بين الكفور والنجوع فوق دراجته البخارية كي يحلّ مشاكل تلك البلدان الصغيرة، يجتمع بالثوار ويناقشهم حول تكتيك الثورة واستراتيجيتها، ويلتقي

بجنود السلطة ليشي بمكان الثوار! ويلتقي باهالي قرية يخشون وحشاً خرافياً يقدمون له التضحيات فيخلصهم منه، وينتقل مع فتاته الى مدن الصفيح ومنها الى المدينة الكبرى ليبدأ بتحريض العامة على الثورة من حمام عام.. الى سجن الى.. .. الى مطعم، يواجه البطل مشاكل وانظمة حكم مختلفة ونظريات سياسية مختلفة ومتنوعة، ومجموعة ريفية تعيش في فاقة تنتظر حلاً سحرياً لكل المشاكل الموجودة لديها، ولكنه يجد نفسه في نهاية المطاف مرفوضاً من قبل الجميع، فقد تعوّد الا يناقش وبالتالي اصبح عليه ان يصحح خطاه حتى لا يعدو وراء خيال، فيذهب الى اجتماع سياسي - شعبي ويتعلم لاول مرة ان يستمع ويناقش، وان يكف عن بطولاته الواهية .

علواش يكسر - من خلال اسلوبه - شكل الفيلم ذي البناء الكلاسيكي، فهو يدفع المتفرج الى ان يفكر معه من خلال المواجهة المباشرة بين بطله وجماهيره، فليس هناك حاجز بينهما، فتأتي مشاهده بطيئة الحركة.. تتوالى في تراخٍ ولا تصل بالمتفرج الى ذورة الاندماج مستخدماً التراث الشعبي في سرد وقائعه ووقائع فيلمه .

- ٩ -

على الرغم من وجود نشاط غير عادي لنوادي السينما في تونس واصدارها لمطبوعات سينمائية عديدة، وتقديم مهرجان «قليبة» لافلام الهواة، وانتشار حركة التذوق للثقافة السينمائية، واقامة اهم مهرجان سينمائي دولي في المنطقة العربية مرة كل عامين - الايام السينمائية بقرطاج - الا ان سنوات السبعينات لم تقدم لنا افلاماً تونسية بالشكل الكافي الذي يتناسب وحجم الثقافة السينمائية الموجودة، ولكن القليل من المخرجين قدموا اعمالاً ترقى الى مستوى فني وفكري مرتفع، وفي ذات الوقت طرحوا القضية الوطنية بشقيها السياسي والاقتصادي .

عبد اللطيف بن عمار في فيلمه «سجنان» يتناول كيفية انطلاق الحركة الوطنية - ابان الاربعينات - ضد المستعمر الفرنسي، من خلال قصة شاب مجاهد اغتالت والده بواسطة «اليد الحمراء» ويكتشف من اوراقه ان هناك اشياء لم يكن يعرفها فينضم الى حركة عمالية بعد اصطدامه بقوى البوليس ويطرد من المدرسة، ومن خلال عمله في المطبعة يتعرف على بنت صاحب تلك المطبعة، يقيم بن عمار علاقة حب متوازية مع احداث الفيلم، ويكشف عبر تلك العلاقة الكثير من القضايا الاجتماعية، إذ ينهمك الشاب في العمل السياسي السري والاشتراك في مناهضة الاستعمار. وينتهي الفيلم بمجزرة يموت فيها الشاب وزملاؤه وهم يدافعون عن انفسهم ضد مجنزرات ورشاشات المستعمر، بينما تعزف الموسيقى المصاحبة لزفاف فتاته لحناً يختلط فيه اصوات الفرح والطلقات، لتتحول الموسيقى في النهاية الى طلقات ويثبت الكادر، «سجنان» ،حاول فيه بن عمار ان يحافظ على تقديم تلك الفترة التاريخية دون ان ينزلق الى مستوى دعائي او انتهازية سياسية، وهو يقدم كيفية نشأة الوعي السياسي الوطني لدى الشباب التونسي خلال تلك الفترة، وصورة للواقع الاجتماع بنضج، وخاصة صورة الفتاة العربية التي تحب ولكنها تعجز عن الصمود، بل تستسلم ازاء الضغوط الاجتماعية .

رضا الباهي، واحد من السينمائيين العرب الذين لم يدرسوا السينما، بل تعلمها كسينمائي هاو، قدم عملاً يعتبر من اهم الاعمال العربية «الشمس والضياع» وفيه محاولة جيدة لاقتحام الواقع الاجتماعي التونسي من خلال قضية من اهم قضايا المجتمع من زاوية معاصرة، تؤثر بشكل مباشر على حياتنا الاقتصادية والاجتماعية، وهي في الوقت ذاته احدى القضايا التي تمس الوطن العربي والعالم

الثالث ـ النامي ـ فهو ينقلنا الى احدى القرى التي يسكنها مجتمع من الصيادين الذين يعيشون في تلك البيوت الصدئة المتآكلة، بما فيها من عادات وتقاليد متوارثة، بطرقاتها الترابية الصغيرة الضيقة، بين حديث السمر والسياسة، نجد هؤلاء ذوي الوجوه السمراء الخشنة.. التي صقلتها الشمس ومياه البحر، واعتمادهم الدائم عليه في الرزق. هذه الشريحة من المجتمع، يحدث لها غزو من نوع جديد.. مختلف، فالوافدون الجدد ـ الغزاة ـ اختاروا تلك البقعة لتحويلها الى قرية سياحية، مشروع استثماري لبيع الشمس والهواء والماء ليستمتع القادمون من الشمال، وتتحول القرية الهادئة الى خلية نحل، لتشييد المباني وتعبيد الطرق، وتتحول طبقة الصيادين الى طبقة عمال لايام معدودة، ثم سرعان ما يعودون من حيث أتوا، ليقام سور بين هؤلاء البؤساء ـ ابناء الارض ـ وبين القادمين الجدد، وتتمزق حياة القرية، وعندما يقف الشاب طاهر وحده يعترض، يجد نفسه معتقلاً في سجن القرية، ويتحول معلم القرية ـ من تكلم عن الوحدة العربية والثورة والمناضلين في جلسات السمر ـ الى مشارك في الانفتاح يبيع الانتيكات!

يطرح الباهي قضيته بصورة اكثر شمولاً وعمقاً في محاولة للنفاذ تجاه القضية الكبرى، قضية المجتمع العربي من خلال توافق زمني محدد، لتشريح صورة هذا المجتمع وما يحدث فيه من مؤثرات وتناقضات بين القول والفعل. والاحداث تأتي الينا عبر خلفية واضحة المعالم، سواء أكانت سياسية ام اجتماعية، وتؤثر على الناحية الاقتصاية او تتأثر بها، وقد حاول الباهي الا يغرق في لحظات «ميلودرامية»، وانما حاول ان يرسم صورة صادقة لمشاكل السياحة في تونس وتأثيرها على ما يعاني منه هؤلاء البسطاء في صورة تنفذ الى الحاضر، ومن خلال معادلة سينمائية ترسم رؤية لما يعاني منه مجتمعنا العربي بصفة عامة والمجتمع التونسي بصفة خاصة، فدور السينما الجادة كما يقول رضا الباهي: «... هو التطرق الى كل ما يحيط بحياة مجتمعنا من مشاكل..» .

ـ ١٠ ـ

بعد حميد بناني صاحب «وشمة»، وسهيل بن بركة صاحب «الف يد ويد» و«حرب البترول لن تقع» نجد ان السينما المغربية قدمت شابين كانت اعمالهما الاولى من انضج ما قدمته السينما المغربية خلال السبعينات ، الاول مؤمن السميحي في فيلمه «رياح الشرق» الذي قدم صورة من مجتمع المغرب الشرقي بصفة عامة، بما يميزه من موروث فكري يؤثر على ايجاد شكل آخر لبناء حياة افضل، «رياح الشرق» مأساة تلك المرأة الشرقية التي تدفع حياتها ثمناً من اجل الحفاظ على زوجها كي لا يتزوج ثانية، السميحي يقدم رؤية شاملة لاشياء الحياة في المجتمع الشرقي، حيث لا تتورع الزوجة عن استخدام كل السبل اليسيرة او الصعبة .

اما الثاني احمد المعنوتي فقد قدم «الايام.. الايام» وهو فيلم وثائقي روائي طويل يتسم بشاعرية لا يمكن تفسيرها، بل هي تجعل هناك ترابطاً بين مشاهديه وبين النماذج الفطرية التي يقدمها بشكل عفوي، «المعنوتي» يقدم قصيدة عن الارض واهلها، وهو لا يرتحل بعيداً، بل يذهب اليها حيث يعاني من بؤس اقتصادي شديد ليقدم شخصيات نتعرف عليها من خلال واقع حياتهم البسيطة، ليس هناك قصة بالمعنى المفهوم، او تسلسل درامي تصاعدي، وانما الكاميرا تدور تلتقط صوراً عديدة، هذا الفتى عبد الوهاب الذي يأمل بالسفر الى الخارج، كحلم ينقذه من تلك الوضعية التي يدور فيها، بينما ترفض ذلك امه ـ ذات الشخصية القوية ـ وتريده الى جوارها، فهو الابن الاكبر.. ومجنونة القرية التي يطاردها الاطفال بلا هوادة، الرجل العجوز الذي اعتلت صحته ذات يوم فجلس ارضاً وظهره الى احد الحيطان

وكأنه انعزل عن العالم، تلك المرأة التي جلست تغزل وتتكلم مع جارتها، وذلك العجوز الذي يموت ذات يوم وتدفن جثته تحت التراب، الريفية الشابة التي ارسلت الى المدينة لتخدم في البيوت.. فتهرب ولا يعلم احد شيئاً عنها ! جميعهم نماذج لشخصيات تعيش لحظات حياتها اليومية في ارض طيبة، قد تكون في اي ريف.. في اي بلدة عربية، ينقلها المعنوني مستخدماً ادوات الحياة اليومية في اسلوب سينمائي ذي ايقاع بطيء نوعاً، ولكنه يجسد هذا الواقع بعيداً عن البهرجة او التزييف .

- ١١ -

الناصر قطاري واحد من هؤلاء الذين قدموا صورة اخرى للمجتمع العربي بشكل مختلف، فهو ينتقل الى اوروبا مع «السفراء»، ليقدم هؤلاء العرب الذين يعملون في ارض فرنسا، يطرح هموم ومشاكل العمل والعمال والبيئة التي يعيشون فيها حيث الغرف الضيقة.. ودورات المياه الجماعية. عرض بائس لنوعية الوحدة والمنفى الاجباري الذي يختاره هؤلاء من اجل لقمة العيش، تأملهم مع رجال البوليس ضمن العداء العنصري من قبل الوسط الذي يتعاملون معه، «السفراء» هؤلاء من خرجوا لا يبتغون سوى لقمة العيش الشريفة، بعد محاضرة طويلة قبل السفر «.. سلوككم يعطي لأهل البلد الصورة الحقيقية لوطنهم.. فيكفي ان يرتكب احدكم هفوة حتى يصبح مواطنوكم كلهم مجرمين، كل واحد منكم سفير.. ونحن واثقون بأن كل واحد منكم سيكون احسن سفير لبلادنا..» هؤلاء السفراء بدون سفارات يواجهون المجتمع الغربي - الاوروبي - الذي لا يتورع عن استفزازهم .

الناصر قطاري يقدم موضوعه دون ان يأخذ شكلاً من اشكال الانحياز بل هو يعرض تلك الصور من حياة العرب في احيائهم الفقيرة رهن المذلة، بعيداً عن اي حماية من قبل دولهم، ومطلوب منهم ان يكونوا سفراء!

وبعد... لم تكن تلك سوى ملامح سريعة لسينما السبعينات في البلدان العربية ونحن لم نقم بعرض شامل لمعظم الانتاج، بقدر ما حاولنا التركيز على نوعيات مختلفة لسينما تحاول ان تعالج قضايا شتى من قضايا المجتمع العربي الذي نعيش فيه، وهي بؤرة اهتمام المواطن العربي خلال فترة التحولات التي يعيشها سواء أكانت اقتصادية ام سياسية طالما انها تحكم طبيعة العلاقات والبناء الاجتماعي بوجه عام، رغم ان معظم هذه الاعمال هي بعض التجارب الاولى لمخرجيها، الا انها اتسمت بنضج فني ذي مستوى جيد، الى جانب ما تحمله من مضمون فكري مرتبط بالواقع المعيشي.. فقضية فلسطين تأخذ ابعاداً كثيرة في اعمال مختلفة «المخدوعون».. «كفرقاسم».. «سنعود»، بينما تأخذ قضايا الحياة الاجتماعية مساحة كبيرة في طرح الهموم التي تواجه المواطن العربي ومحاولة بلورة افكاره في ظل حركة التاريخ الذي يمر به وكشف المتناقضات الاجتماعية في ظل محاولات ذات صيغة تنزع الى «البروباجندا».. ثلاثية يوسف شاهين «الحياة اليومية في قرية سورية» و«الايام»، وكشف الوهم الكبير الذي يغلف حياة الطبقة الدنيامن خلال نظرة فوقية، وضرورة التحول الى الانفتاح على الغرب، «الشمس والضياع» .

- ١٢ -

هل اثمرت السبعينات بوادر سينما بديلة في المنطقة العربية؟

المؤشرات السابقة تقول ان هناك شيئاً مهماً الا وهو وجود تيار لصنع سينما مختلفة عن تيار السينما السائدة وان كانت هذه الاعمال منتجة من داخل الانظمة العربية. انها في احسن حالاتها يمكن

ان تكون الوجه التقدمي لهذه الانظمة وفي حدود ما تسمح به، وهي في افضل صورها تستخدم امكانيات السينما الثانية في محاولة التحرر من براثن السينما الاولى «الهوليودية»، لذا كثيراً ما تحاول هذه السينما ان تعبر عن الرفض والتمرد كشخصية طاهر في «الشمس والضياع»، وعلي في «عودة الابن الضال» ونوعاً ما عبد الوهاب في «الايام.. الايام»، الا ان كل هذه النماذج يتم امتصاص ردود فعلها من قبل النظام، واذا كنا نتفق مع قول رضا الباهي في ضرورة انتاج سينما جادة يمكن من خلاله نقل المتفرج العربي الى السينما البديلة التي نريدها، فإن ذلك يطرح علينا تساؤلاً واحداً نردده: كيف يمكن ذلك؟!

ان عملية الاستمرار في صنع هذه الافلام في الوقت الذي تكلف صناعة اي فيلم الالوف من الجنيهات لا بد بالضرورة من ان يتم تجميع السينمائيين العرب الجادين لبحث كيفية خلق قنوات وشبكات توزيع وعرض لهذه السينما حتى تتمكن من الوصول الى المتفرج في الوطن العربي كله. هذا اولاً. ولا بد من ان نبحث معاً كيفية التواصل مع الجماهير التي تعتبر العصب الرئيسي والممول لصناعة الفيلم، اي خلق عملية احلال في عقلية المتفرج العربي للسينما الجادة مكان السينما السائدة لنصل الى ما يمكن ان نسميه سينما بديلة ، ويمكن خلق هذه الجماهير من خلال انتاج افلام مقاس ١٦ ملم قليلة التكلفة، فقد ساعدت الانجازات والتقنية الحديثة على تبسيط الكاميرا السينمائية واجهزة التسجيل وتحسين الشرائط الفيلمية، وخرجت صناعة الفيلم من كهنوت الصنعة السحرية.. السرية.. في فترة كنا نظن ان هذه الافلام تصنعها العباقرة.

بدون التحرك والترابط بين السينمائيين العرب لن نستطيع خلق سينما بديلة.. او متفرج بديل.. او ناقد بديل □

المراجـع

كتب

الجمهورية الجزائرية، وزارة الاعلام والثقافة. **الانتاج السينمائي الجزائري 1957-1974** . الجزائر: الوزارة، ١٩٧٤ .

العريس، ابراهيم. **رحلة في السينما العربية ودراسات اخرى**. بيروت: دار الفارابي، ١٩٧٩ .

دوريات

حديث مع برهان علوية في: جريدة **الشرق الاوسط** (لندن) .

حديث مع رضا الباهي في: جريدة **الشرق الاوسط** (لندن).

«دراسة حول السينما الفلسطينية.» **الموقف الادبي** (دمشق): السنة ٤، العدد ٨، كانون الاول / ديسمبر ١٩٧٤ .

«دراسة حول السينما الفلسطينية: الادب الفلسطيني.» **الاقلام** (العراق): العدد ٥، شباط / فبراير ١٩٧٥.

«مهرجان الافلام السورية.» **نشرة النادي العربي** (بيروت): ٣ / ١ / ١٩٧٤ .

ملاحظات حول أقطار الخليج العربي والمشرق العربي(*)

د . خلدون النقيب

استاذ الاجتماع في كلية الآداب بجامعة الكويت

في أوقات التجزئة والانحلال كالتي يمر فيها الوطن العربي اليوم ، نميل ، نحن العرب ، الى الاعتقاد بأن الوحدة العربية هدف ضعيف الصلة بالواقع ، أو ربما هي أقرب الى اليوتوبيا بمفهوم كارل ماينهايم .

ولهذا ، فان اي مجهود يبذل في اطار الوحدة العربية على مستوى جميع الاقطار العربية او على المستوى الاقليمي ، كالمغرب الكبير او مجلس التعاون الخليجي ، يلاقي ـ في حقيقة الأمر ـ ترحيباً ، بالاضافة الى أنه باستطاعة المرء ان يجد في هذه الامثلة مبعثا على التفاؤل الحذر .

والسبب في توخي الحذر ، هو انه على الرغم من ان هدف الوحدة العربية لم يغب عن تصور مجلس التعاون الخليجي من بداية نشأته ، الا انه لم يتحرك حتى الآن في هذا الاتجاه بسرعة أو بجدية . هذا بالاضافة الى ان مجلس التعاون الخليجي كان ـ عند تأسيسه ـ مشغولا بشكل واضح ، بقضايا الامن الداخلي والبناء السياسي ، وكانت اهتماماته أقرب الى التعاون الاقليمي الضيق منها الى التعاون في اطار الوحدة .

وأحب أن أؤكد في هذا المجال بأن مجلس التعاون الخليجي يمتلك فرصة تاريخية في ان يتطور الى مشروع تعاون جدي واكثر فعالية في اتجاه الوحدة ، وان يصبح في الوقت ذاته أداة لتحقيق المصالح وتأمين الوسائل التي تحمي هذه المصالح .

وأول خطوة اساسية في هذا الاتجاه ، هي ان يدرك اعضاء مجلس التعاون الخليجي انهم لن يكون بمقدورهم ان يعتمدوا ، الى الابد ، على « النوايا الحسنة » في حماية وجودهم السياسي ناهيك عن رفاهيتهم . كما لن يكون بمقدورهم ، أيضاً ، ان يحققوا هذه الاهداف بتجميع مواردهم البشرية

(*) دراسة قدّمت الى : معهد اكسفورد لدراسات الطاقة ، ندوة « الخليج : الاقتصاد ـ السياسة ـ والامن » ، اكسفورد (انكلترا) ، ٥ ـ ٦ نيسان / ابريل ١٩٨٤ .

والعسكرية المتواضعة سوية . ولذلك فانه من المفيد لمجلس التعاون الخليجي ان ينضم الى كيان اكبر يتمثل في اقطار المشرق العربي والعراق وسوريا والاردن .

اما كيف تتم عملية الانضمام هذه فهو امر غير واضح في الوقت الحاضر ، لانها ليست موضع نظر او حتى تصور من قبل القادة السياسيين ولكن هناك اسبابا اقتصادية واستراتيجية سياسية وجيهة تدعو لدراستها والنظر فيها ، وعلى الاقل كخيار يعمل به في خطة عمل طويلة الامد . وسيجد مجلس التعاون الخليجي اسبابا وجيهة من اجل عقلنة هذا الانضمام ، خاصة وان معظم مؤسساته الاجتماعية (كالعائلة والقرابة ونظام الحكم والتنظيم) مرتبطة عمليا بمثيلاتها في المشرق العربي برباط راسخ من التراث والثقافة والتاريخ المشترك .

وأحد جوانب هذا الاندماج بين مجلس التعاون الخليجي واقطار المشرق العربي هو ايجاد حلف استراتيجي عسكري بينهما ، بحيث يكون اكثر قدرة واحسن تجهيزا ليواجه بجدية قضايا الامن والمصالح على صعيد محلي واقليمي وقومي . وانني على ثقة من خلال تجارب الماضي ، والتزام الغرب باسرائيل ، بانه في حالة نشوب حرب فان مجلس التعاون الخليجي سيجد نفسه ليس مضطراً للدفاع عن نفسه ضد سوريا او العراق وانما ضد القوى الاعظم والغرب .

وهناك مظهر آخر من مظاهر هذا الاندماج وهو ان يتجاوز مجلس التعاون الخليجي سياسة القروض التي يقدمها الى أقطار المشرق العربي ، الى الاستثمار المكثف في تنمية قطاعات الموارد البشرية والزراعية في أقطار المشرق العربي نفسها . اما الرساميل المطلوب توافرها من اجل تحقيق هذا الاستثمار ، فيمكن سحبها تدريجيا من المصارف الغربية ، طالما انها تعتبر رساميل زائدة تتآكل باطراد بفعل التضخم العالمي .

ومن المهم جدا ان نشير الى انه في حالة عقد العزم على البدء في هذا الاستثمار ، فانه يجب ان يتم استبعاد اعتبارات الربح السريع وبتوجه مختلف معيار الكلفة ـ النفقة عن التوجه السائد . اما سبب ذلك فيكمن : **أولاً** : في ان مثل هذا الاستثمار يجب ان يتم على ارضية سياسية في اتجاه تعاون اكبر في اطار الوحدة . **وثانياً** : يجب ان يصمم هذا الاستثمار من اجل افادة الطرفين ، وان يهدف الى تحريرهما من الاعتماد على الدول الاجنبية في المجالات كافة، وبأقصى ما يمكن تحقيقه في هذا المجال . **ثالثا** : ولان اقطار مجلس التعاون الخليجي تحصل في الوقت الحاضر على نسبة جيدة من القوى العاملة والاحتياجات الزراعية من هذه الاقطار ، فلماذا لا تبادر اقطار مجلس التعاون الى تحسين نوعية ما تحصل عليه الآن ؟

ويجب ان لا ننسى ان نشير الى ان على مجلس التعاون الخليجي واقطار المشرق العربي أن يعيدوا تصميم برامج التنمية لديهم باتجاه تعاون وتكامل اكثر فعالية مما هو الحال عليه اليوم .

واخيراً ، يمكن القول بقدر من اليقين بانه ما لم يحدث تطوير اطار واسع من التعاون بهدف التحالف والوحدة بين مجلس التعاون الخليجي واقطار المشرق العربي ، فان اقطار مجلس التعاون الخليجي ستبقى ، الى الابد ، في مصيدة بين الصحراء وبين البحر الازرق العميق □

فلســـطين .. والسينمـــا

د . فاضل الاسود

كـاتب سينـاريـو وبـاحث سينمـائـي ، بكـالـوريـوس المعهـد العـالي للسينما اخـراج سينـاريـو ، رئيس قسم المستحضرات المساعدة والاجهزة الطبية ـ سكويب مصر .

« **أنا لست مسيحيا ولكن هذا لا يعني أنني ضد المسيحية . كما أنني لست مسلماً وهذا لا يعني أنني ضد الاسلام ...** »

(حوار مع **كوستاغافراس** في مجلة **بريمير** الفرنسية في أيار / مايو ١٩٨٢ ، **نشرة نادي السينما** ، السنة ١٦ ، العدد ١٩ ، ص ٢٩٦) .

« **اودّ أن اقول ـ والكلام لغافراس ـ بأنني صهيوني مزدوج ..** »

(حوار مع كوستاغافراس ، أجرته الناقدة خيرية البشلاوي ، **جريدة المساء** ، ٨٣/١٢/٤) .

مقدمـــــة

فلسطين .. همّ القلب الدائم ، وشاغل عقولنا المستمر . فلسطين .. تحدي مصير أمتنا .. وقدر أطفالنا في مواجهة مشاريع الاستعمار .

فلسطين صحوة الإرادة في شتات المخيمات ، وبين صفوف شعبنا العربي الكبير . ومن أجل كل ذلك .. اكتب هذه الدراسة .

ولأن الصراع العربي الاسرائيلي مستمر وطويل ، فلقد تعـددت ساحـات المعارك ، وتنـوعت أساليب الصراع وشحذت كل الاسلحة . ولم تكن السينما ـ بوصفها أهم وأخطر أداة في حقل وسائل الاتصال الجماهيري ـ بمعزل عن زخم المعارك أو جوهر الصراع . « فلا توجد اداة أخرى تستطيع ان تدّعي انها تجذب انتباه مثل هذه الملايين**العديدة** من الناس . لتلك الفترات المتصلة كل اسبوع او كل شهر مثل السينما[١] .

كما تتضح خطورة السينما كسلاح ايديولوجي في تربية ، وإعداد وتوجيه المتفرج من ذلك النص

---

(١) جون هوارد لوش ، **الفيلم في معركة الافكار** ، ترجمة أسعد نديم (القاهرة: دار الكاتب العربي ، [د.ت .]) ، ص ١١ .

الذي أورده (مارشال ماكلوهن) في كتابه **محاولة لفهم وسائل الاتصال** . كل شيء يدخل في إطار بناء تنظمه القواعد والمونتاج . الى حد ان المتفرج لا يصبح أمامه عمليا ، شيء يتعين عليه اكتشافه أو اضافته او اكماله ، وانما يكون عليه أن يستسلم لإيقاع او حبكة روائية يتقدم بها الى الامام من تلقاء ذاته »[٢] .

إن النضال في سبيل الحق الضائع المُضَيّع يستوجب كفاحاً مستميتاً على طول الجبهة الثقافية . وهو أيضا يستلزم رصدا ، ودراسة ، وتحليلا لكل الاعمال التي انتجتها ستوديوهات السينما فيما يخص القضية الفلسطينية . وهدف هذه الدراسة هو متابعة هذه الأعمال ، وإلقاء مزيد من الضوء على فكرياتها في مراحل الصراع المختلفة . كما تعنى هذه الدراسة برصد الظواهر السينمائية المشاركة في ساحة الصراع الايديولوجي لقضية فلسطين .

وكمنهج مبسط في تناول الموضوع ، فإن الباحث يعتقد ان المخرج هو منشىء الفيلم ، وهو سيد الموضوع . أو كما يقول (الكسندر أستروك) « إن المخرج المؤلف هو رجل يستخدم الكاميرا مثلما يستخدم قلمه الحبر »[٣] . لذا فإن استخراج الدلالات المتضمنة داخل سياق الفيلم هو الطريق الامثل للامساك بالمحتوى الحقيقي للفيلم ومن ثمة فهمه ومناقشته .

ولسهولة متابعة سينمائيات قضية فلسطين رأينا تقسيمها على النحو التالي :

١ ـ سينما من داخل الصراع : أ ـ فلسطين بعيون إسرائيلية : ب ـ فلسطين بعيون عربية : ج ـ فلسطين بعيون فلسطينية :

٢ ـ سينما من خارج الصراع : أ ـ فلسطين بعيون أوروبية .

ولأن فيلم (حنة ..ك) هو احدث وافد الى ساحة الصراع العربي الاسرائيلي ، وهو في رأي الباحث من أهم واخطر الاطروحات في مجال رصدنا للظاهرة السينمائية لقضية فلسطين . فلقد رأينا تقديمه في أول الصف متخطين غيره من الافلام .

لأنه (كوستاغافراس) فنان السينما المرموق وصاحب الشهرة الكاسحة ، منذ فيلمه المميز « زد » الذي أخرجه عام ١٩٦٩ ، ضد الحكم العسكري في اليونان :

ولأنه (كوستاغافراس) صاحب الحظوة لدى الكثيرين من المثقفين المصريين؛ ولأنه صار جزءاً من عقل ووجدان كل المهتمين بفن السينما ـ ليس فقط في قطاعات عريضة من العالم ـ ولكن ، أيضا ، وعلى وجه الخصوص ، في طول البلاد العربية وعرضها .

ثم لأنه هو (كوستاغافراس) وليس شخصاً آخر ، فإنني أسوق هذا الحديث .

وأيضاً لأن فيلم (حنة ..ك) والذي يقال إنه قد استقبل ببرود من الصحافة الفرنسية الموالية للدوائر الصهيونية ، كما يقال أيضا إنه قد أثار زوبعة من الهجوم من داخل الأوساط اليهودية

---

(٢) بول وارن ، **السينما بين الوهم والحقيقة** ، ترجمة علي الشوباشي (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢) ، ص ٩٠ .

(٣) James F. Scott, *Film, the Medium and the Maker* (New York:Saint Louis University, Holt Rinehart and Winston, [1975]), p. 2.

والصهيونية ، عقب عرضه مؤخرا في مهرجان (فينيسيا) ، وكما يروّج البعض أن شركة التوزيع (يونيفرسال) التي اشترت حق توزيعه ما زالت تحجم عن عرضه خوفاً من ردود الفعل المعاكسة ـ والتي يؤكد البعض أنها ستحدث ـ حال عرض الفيلم ، بشكل تجاري ، في دور العرض ؛ ثم لأن فيلم (حنة .. ك) والذي صور اكثر من ٨٠ بالمائة من مشاهده داخل فلسطين المحتلة ، وكبديهية نقول وبأذن ومباركة وتحت ملاحظة ورعاية السلطات الاسرائيلية[٤] ، بل وتحت المراقبة اليومية الدقيقة من قبل مستشار اسرائيلي تقوم بتعيين مستشار عسكري [٥] من العاملين في صفوف الجيش لمراقبة إذا كان الفيلم يحوي أيّ مشاهد عسكرية ، او يتعرض ولو بأي صورة ، لقضايا الأمن . كما تفرض اسرائيل رجلاً آخر على العاملين في أي فيلم وتطلق عليه المستشار الفني [٦] . وطبقا للوثيقة الصادرة من وزارة الدفاع الاسرائيلية رقم (MN/4/217) بتاريخ ٣ شباط/ فبراير سنة ١٩٦٨ ، فإنه يعمل مع طاقم الفيلم طول الوقت ، لتذليل الصعوبات الخاصة بالجيش والادارة .

ثم هي تخترع وظيفة أخرى لمراقب ثالث يعمل مع طاقم الفيلم نصف الوقت فقط ، وتطلق عليه المستشار التاريخي[٧] للفيلم . وبالرغم من كونه من العاملين في صفوف الجيش ، إلا أن وظيفته كما يقول مؤلف كتاب **كيف تصنع فيلماً يهودياً هي** ان يُعطي للفيلم مذاقاً ونكهة يهودية[٨] .

كما أن الفنّان (كوستاغافراس) قد كفانا مشقة التدقيق وصعوبة البحث حول الشروط التي تفرضها الدولة العبرية على من يذهب لعمل فيلم هناك . حيث قال (غافراس) في مؤتمره الصحفي الذي عقده (بالقاهرة) صباح اليوم التالي لعرض فيلم (حنة .. ك) . من أنه قد استشار اثنين من رجال الدين اليهودي حول شرعية تصويره لوقائع حفل الختان لابن (حنة .. ك) والذي حملته الأم من علاقة غير شرعية مع غير زوجها في الفيلم .

ولقد سقنا هذا المثال والذي جاء على لسان المخرج نفسه ، كبرهان على مدى تصلب السلطات الاسرائيلية في مدى شرعية او عدم شرعية لقطة سينمائية واحدة قد لا يستغرق عرضها على الشاشة دقيقة واحدة . غير ان التدقيق في هذه التفاصيل يوضح لنا حجم تصلب السلطة كما يبين مساحة هامش الحرية التي يمتع بها كل من يريد تصوير فيلم داخل اسرائيل . ويتعرض فيه لمشكلات الواقع اليومي للمجتمع الاسرائيلي . ثم آخر ذلك الترحيب المبالغ فيه بالفيلم وصاحبه . فليس من المفترض ان نهلل لكل فيلم يزعم أنه يتعرض لقضايانا ، طالما انه غير واضح المقاصد . أو أنه لا يطرح وجهة النظر بالطريقة الصحيحة او قريبا منها . ولقد كان من الممكن ان نقف مع مخرج الفيلم في منتصف الطريق طالما أنه يحمل النية الصادقة والهدف النبيل بغضّ النظر عن عثرات الطريق . لكن نغمة اصدقاء الفيلم كانت لا تسمح حتى بمجرد قبول الحوار حول مضمون الفيلم ودلالته .

وفي رأيي ان هذا القدر من المعلومات ـ والذي يتصل عضويا ومباشرة بموضوع الفيلم ـ يوفر

---

(٤) Melville Shavelson, *How to Make a Jewish Movie* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice - Hall, 1972).

(٥) المصدر نفسه .

(٦) خطاب وزارة الدفاع الاسرائيلية بتاريخ ٣ شباط / فبراير ١٩٦٨ في : المصدر نفسه .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) خطاب الجنرال شالوميت للمخرج اليهودي ملفيل شافلسون في : المصدر نفسه .

للقارىء القدر الكافي من أدوات بحثه في رصد واستخراج الدلالات والمضامين الفكرية من وثيقة الفيلم ذاتها . وكبداية نقول ان الفن اختيار ، وهو اختيار واضح وصريح . ويأتي فن السينما على رأس كل وسائل الاتصال جميعا ، في صوغ اختياراته ودقة مواقفه وصرامتها ، حتى يصبح الأمر ، ان كل حركة وسكنة داخل اطار اللقطة الواحدة ذات دلالة بالغة ، بل ان زاوية التصوير وحجم اللقطة ومدى اتساع منظور الرؤية ، وكمية الاضافة ، ونوعيتها وحجم حبيبات الفيلم الخام ، وشكل الاكسسوارات ... الخ ، كلها تصبح ذات أهمية فائقة في تشكيل مفردات اللغة السينمائية ، وعناصر الاجرومية الفيلمية .

ويتضاعف بالطبع حجم تلك الدلالات مع اولئك المخرجين الذين يتسمون بقدرات مميزة في التعبير وحساسية او شفافية في عرض موضوعاتهم . و(غافراس) هو احد اولئك بكل تأكيد .

وهو ما يوضح مدى المشقة والحساسية التي يتطلبها اخضاع مثل ذلك الفيلم لقواعد التحليل السينمائي الدقيق .

ولنبدأ بكشف الدلالة المتضمنة في اسم الفيلم . ذلك أن اسم العمل الفني ، اي كان هو جزء من نسيج العمل ، بل هو بمنزلة جملة الاستهلال في بناء اي موضوع . ثم هو أيضا دلالة معرفية ، يصوغها المؤلف في كلمة او كلمات ، كي تصير مع الزمن بمنزلة كود شيفري في الاستدلال على العمل ، بل وعلى صاحبه أيضا . إذن ماذا يعني لنا اسم (حنة .. ك) ؟

والاجابة السهلة والسريعة أنه اختصار لاسم (حنة كوفمان) ، وسوف نغض الطرف تماما عن كل الدلالات الفكرية والتراثية المستمدة من (التوراة) حول اسم (حنة) ، ونهتم فقط بما أورده الفيلم حول شخصية (حنة .. ك) . وحسب رواية الفيلم فإنّ(حنة .. ك) هي سيدة يهودية تجري في عروقها الدماء البولندية . ولقد هاجرت عائلتها الى الولايات المتحدة .

ولأن الفيلم لم يوضح لنا وبشكل صريح أسباب أو كيفية هجرة أسرة (حنة .. ك) او زمان تلك الهجرة ، فان القصد والتعمد واضحان في تلك الصياغة المجهَّلة عمداً ، من قبل المخرج وكاتب السيناريو .

والهدف من ذلك هو الافادة القصوى من اسطورة (الهلوكوست) ودعاوى تعرض اليهود للاضطهاد في كل مكان . ثم هو أيضا محاولة للاستفادة من التداعيات الذهنية التي لا بد من أن ترد الى عقولنا، لدى سماعنا كلمة (بولندا) نظراً للموقف الملتهب هناك كما تصوّره اجهزة الدعاية حول التضامن والاضطرابات والاضرابات ... الخ .

ولأن اسم (حنة كوفمان) يظهر لنا دائما وطوال مدة عرض الفيلم بالطريقة المختصرة (حنة .. ك) ، مما يعني ان اصحاب الفيلم لا يعرضون فقط قضية (حنة كوفمان) بعينها ، كشخصية فردية لإنسان بذاته ، ولكن ، كشخصية نمطية ذات مدلول رمزي . وهكذا تتحول (حنة .. ك) الى أي (حنة) ، وتتسامى بأكبر مما تحتمله المعاني الفردية لشخص محدد . وتصبح ذات مدلول عرقي يعود على شخص المدلول بأوسع المعاني والدلالات . وتصير تلك الدلالة بمثابة كودا شفريا يفصح عن قضية اليهود في كل مكان وربما في أي زمان .

ولقد حرص اصحاب الفيلم أن يجعلوا بطلتهم تقرر بأنها تبلغ الخامسة والثلاثين . وهو اختيار غريب بعض الشيء ذلك ان الممثلة (جيل كلايبورغ) والتي تقوم بأداء دور (حنة .. ك) تملك من ملامح الوجه والتركيب الجثماني ما يجعلها تجاوز الخامسة والاربعين بكثير .

وهنا يثور التساؤل حول دلالة عمر البطلة ، واصرارها على تقرير ذلك . ولأن الفيلم تدرر أحداثه في الزمن الحاضر أي عام (١٩٨٣) فإن عملية حسابية غاية في البساطة تجعلنا ندرك أن (حنة .. ك) من مواليد سنة (١٩٤٨) .

وان كان عام (١٩٤٨) هو عام النكبة ، فانه أيضا هو تاريخ قيام الدولة العبرية .

وبمعنى آخر يكون ميلاد (حنة .. ك) هو نفسه ميلاد الوطن القومي لليهود وإنشائه على أرض فلسطين .

وهكذا تصبح (حنة .. ك) هي الدلالة .. والمعنى ، وليست مجرد عظام ولحم لشخص محدد . وتظل (حنة .. ك) وكما يصورها الفيلم ، أسيرة ، بل محاصرة بردود الافعال ، وبالاحداث التي تدور من حولها .

ويختزل الفيلم كل ارادة (حنة .. ك) في فعل ايجابي وحيد يجريه المخرج على لسانها عندما تقول « انها اختارت بمحض ارادتها الذهاب الى اسرائيل والعيش فيها » . وتكثيف ارادة الفعل لدى (حنة) في صورة عمل ايجابي مفرد ووحيد بالذهاب الى اسرائيل ، هو تكرار[٩] مألوف لأساليب الدعاية التي تلجأ اليها الصهيونية . وسوف يتضح لنا بجلاء اكثر ، قيمة هجرة (حنة) الى اسرائيل . فمن داخل ارادة الفعل لدى (حنة .. ك) بذهابها الى اسرائيل نراها وقد قصرت دلالة تلك الهجرة داخل خصوصية واضحة ومحددة ، عندما يأتي الحوار واضحا على لسانها حيث تقول « واخترت ان اعيش حياة (الكيبوتزات) »[١٠].

ان تأكيد (حنة .. ك) لقيمة اختيارها ان تعيش وتتربى على نمط حياة الكيبوتز له ما يبرره عندها وان كانت لم تفصح عن ذلك صراحة . وبغضّ النظر عن الدلالة الدينية للكيبوتز فانه الرصيد الاستراتيجي للجيش الاسرائيلي . وهو نواة كل منظمات الارهاب العسكري الاسرائيلي . وهو العمود الفقري[١١] لقوات الهاجاناه[١٢] ، والبالماخ والناحال . كما ان الكيبوتزات ذات صبغة عسكرية[١٣] وخلفية دينية واضحة[١٤] .

---

(٩) محمود اللبدي ، « جولة في العقل الاعلامي الصهيوني » ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ٩٤ (ايلول / سبتمبر ١٩٧٩) .

(١٠) عبدالوهاب المسيري وآخرون ، **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية** (القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ١٩٧٥) .

(١١) عبدالوهاب الكيالي ، **الكيبوتز أو المزارع الجماعية في اسرائيل** ، دراسات فلسطينية ، ٤ (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، ١٩٦٦) .

(١٢) المصدر نفسه .

(١٣) بسام ابو غزالة ، **الجذور الارهابية لحزب حيروت الاسرائيلي** ، دراسات فلسطينية ، ٥ (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، ١٩٦٦) .

(١٤) داني روبنشتاين ، **جوش امونيم** ، ترجمة غازي السعدي (عمان : دار الجليل ، ١٩٨٣) .

وأخيراً فإن الفيلم اختار لـ (حنة .. ك) أن تدرس القانون لكي تصبح في النهاية محامية . وهو توازن متقن ومدروس من جانب السيناريو . فأساس مهنة المحاماة هو نجدة المظلوم وجوهر الدراسة القانونية هو سيادة الحق والقانون . وهو توازن اراد به اصحاب الفيلم ، التخفيف من صورة فتاة الكيبوتز ذات التربية العسكرية الخشنة ، والخلفية الدينية الصارمة والمعتقدات التراثية الاسطورية لدلالة فتاة الكيبوتز . ثم ان دراستها للقانون تتيح لها التعامل مع (سليم بكري) ذلك الفلسطيني الذي جاء يطالب بمنزله .

وهكذا تكتمل ملامح شخصية (حنة .. ك) كما صورها كاتب السيناريو ومخرج الفيلم . فهي النموذج المثالي للفتاة الاسرائيلية المقاتلة . وهي مصبوغة حتى النخاع بطلاء الصهيونية . دفعها الشوق والحنين الى مجد صهيون الى ترك الحياة الرغدة في الولايات المتحدة ، والهجرة الى اسرائيل وهي استجابت لكل اساطير ودعاوى الوعد الإلهي[١٥] ، ومزاعم الشعب المختار ، عندما تصرّ على اقامة الطقس الاحتفالي الخاص بمناسبة ختان طفلها (دافيد) بالرغم من أنه ابن زنى . ثم هي صهيونية متصلبة كأكثر ما يكون العنف والتشدد ، عندما تصرّ على ان تعيش حياة الكيبوتز في عمق الصحراء وفي الظروف الامنية الصعبة ، خاضعة لبرامج التدريب العسكري القاسية . قابضة على السلاح ، دفاعاً عن الأرض المسروقة من عرب فلسطين .

وهي أيضاً متعصبة ضيقة الأفق مهما حاول السيناريو ان يدس في فمها من عبارات حول حقوق الآخرين . إن مجرد أيمانها « بفكرة الشعب المختار ، وهي فكرة إجرامية من الناحية السياسية ، لأنها هي التي اضفت دائما صفة القداسة على كل الوان العدوان والتوسع والسيطرة » كما ان فكرة الشعب المختار من الناحية اللاهوتية فكرة لا يمكن احتمالها ، فوجود (مختارين) معناه وجود (مبعدين) غير مرضيّ عنهم »[١٦] .

ثم في النهاية نجدها محامية نشطة قبلت دون تردد تكليف أستاذها (البروفيسير ليفنثال) بالدفاع عن (سليم بكري) . ولكن هل يسترُ روب المحاماة الذي ترتديه الكتف التي طالما امتشقت المدفع الرشاش ؟ والسونكي ؟ وهل تخفي دراسة القانون المزعومة على دعاوى التراث المحفور في عقل (حنة .. ك) ؟ وكل اساطير اللاهوت السياسي الذي يستند اليه قيام الدولة العبرية .

ولأن (حنة .. ك) هي الشخصية الرئيسية في الفيلم ، فإن نسيج السيناريو نراه مغزولا من خيوط كلها مستمدة من حياة (حنة .. ك) رغم وجود شخصيات اخرى داخل الفيلم تلعب أدوارها بجوار شخصية البطلة ، إلا أنها جميعا تأتي في مستوى اقل من مستوى بناء شخصية (حنة .. ك) . ورغم ان هذه الشخصيات تتشابك علاقاتها مع شخصية البطلة وتكون معها نسيج الفيلم (علاقات تصادمية ـ جدلية أو موازية) . إلا انها وحسب منطق السيناريو توظف ادوارها بما يسمح فقط بإلقاء مزيد من الضوء على شخصية (حنة .. ك) . وكل هذه الشخصيات تكثف لدينا كمتفرجين شحنة الفهم والتعاطف ، بل والاعجاب وربما الحب لتلك البطلة المحورية . وينسج السيناريو خيوطه بدقة حتى يكسب تلك الشخصية ذلك القدر من التعاطف الذي يجعلنا نقترب من تضاريسها بشكل عاطفي

---

(١٥) « لنسلك اعطي هذه الأرض ... » **الكتاب المقدس** (العهد القديم) ، سفر التكوين ، الاصحاح ١٥ : السطر ١٨ والاصحاح ١٣ : السطر ١٤ .

(١٦) روجيه غارودي ، **ملف اسرائيل** (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٣) ، ص ٨٤ .

وإنساني ، وننسى تماما حكاية ايمانها المطلق بكل مزاعم ودعاوي الصهيونية. وهو نجاح لا بدمن ان نذكره لكاتبي السيناريو ولمخرج الفيلم .

وعلى ذلك فإننا سنلمس بقية شخصيات الفيلم من خلال قربها او بعدها عن (حنة .. ك) ، ومدى تصادمها او توافقها معها . ونوعية الدلالات التي تمثلها تلك الشخصيات . وأول هذه الشخصيات هو **فيكتور بونيه** وهو زوج (حنة .. ك) وهو رجل أعمال فرنسي الجنسية لكنه محاصر داخل مصالحه الضيقة ، وطموحاته الفردية . دائم السفر والترحال جرياً وراء أعماله وصفقاته . لاهث دائما ، لا يستقر في مكان . وقد تتسع دائرة همومه لكي تضم زوجته التي لا يكاد يتذكرها . وهو أيضا لا يهتم بالمشكلة اليهودية أو ، لنكن اكثر تحديدا ، فهو لا يحسها أصلا .

وهو لا يريد الحياة داخل اسرائيل ولو بدافع الشوق الى زوجته ، بل انه لا يهتم باسرائيل الا بالقدر الذي يسمح به وقته المشغول دائما في ان يقتطع بضع ساعات لكي يذهب هناك ويستعيد زوجته ، ويصل ما انقطع بينهما . ولأن مسافة البعد بين الاثنين شاسعة ، والتوافق شبه مستحيل بينها وبينه ، فان الانفصال بينهما يأخذ مستويات متعددة . فهو انفصال مكاني ، وعاطفي ، ثم روحي وجسدي . حتى تلك اللحظات الخاطفة التي يجمعهما فيها سقف واحد نراهما كُلاً في سرير منفصل . ولأنه غير قادر على التوافق مع معتقدات وفكريات (حنة .. ك) ، فهو أيضا غير قادر على التواصل معها . واخيرا هو غير قادر على اخصابها .

وعلاقة كتلك محكوم عليها بالفشل ، وهي ايضا لا يمكن ان تصبح علاقة مثمرة في يوم من الايام . وهي على المستوى الفعلي لاحداث الفيلم علاقة مستحيلة لا يمكن ان تتوج يوماً بميلاد طفل يمد حبل المودة بين طرفي العلاقة ، ويحمل الى المستقبل اسم (حنة .. ك) مقروناً باسم (فيكتور بونيه) .

وهكذا تصبح علاقة الزوج بـ (حنة .. ك) مثل علاقته باسرائيل سواء بسواء . فهي سطحية دائما ، ومن الخارج ، ويراها فقط بعيون السائح : بل نراه لا يتسع وقته حتى لسماع شرح (حنة .. ك) وهي تقف بجواره مطلّةً على حائط المبكى وكنيسة العذراء والحرم الابراهيمي .

وحتى عندما نراه وقد تقبل من (حنة) حكاية حملها سفاحاً من غيره ، فانه يذهب معها الى المحكمة ، لكنه لا يطيق صبراً حتى تنتهي من دفاعها عن (سليم بكري) . ونراه يخرج مهرولا من المحكمة بعد ان يدس في يد أحد المحامين تذكرة سفر بالطائرة ، وهو يقول له على عجل . اعطها للسيدة كوفمان وقل لها انها صالحة للسفر في مدى سنة . فأي نموذج من البشر ذلك الذي كان (لحنة .. ك) أن ترتبط معه بعلاقة زواج يوما ما ؟

وتأتي الشخصية الثانية على نحو اكثر حيوية ودفئا وهي شخصية : **جوشو هيرتزوغ** : وملامح تلك الشخصية اكثر وضوحاً وتحديداً واكثر قرباً من الشخصية الرئيسية . فهو يقوم بدور المدّعي العسكري الاسرائيلي ويمثل دور الادّعاء في قضية (سليم بكري) وفي مواجهة (حنة .. ك) . ثم هو من ناحية الشكل والهيئة اكثر وسامة وشباباً من نظيره (فيكتور بونيه) . كما أنه يتفوق على نظيره من الناحية الفكرية والروحية، طبقا لمنطق (حنة .. ك) ، حيث انه واحدٌ من جيل (الصابرا) [١٧] حيث ولد على (أرض الميعاد) . وعاش أيضا حياة (الكيبوتزات) التي تعشقها (حنة) . ولأنه ايضا احد

---

(١٧) المسيري وآخرون ، **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية** .

رجال الجيش فهو في نظر (حنة) ويقينها احد حراس الدولة وابطالها . تقع على اكتاف أمثاله مسؤولية استمرار دولة اسرائيل وبقائها . حلم العودة القديم[١٨] والدائم (لحنة .. ك) .

وتتلاقى (حنة) مع (هيرتزوغ) عاطفيا ، بعد أن تطابقت بالقطع مواقفهما الفكرية والسياسية . كما ان (هيرتزوغ) ليس فقط رجل العسكرية وربيب السلاح ، ولكنه ايضا مثل (حنة .. ك) ممثلٌ للقانون . وهي دلالة لا تخفى على القارىء . فالعسكرية هنا كما يمثلها (هيرتزوغ) لا تحمل طابع الهجاء أو الازدراء كما في معظم افلام (كوستاغافراس) السابقة . فدلالة (هيرتزوغ) العسكرية ليست مرادفا للقتل والحرب او المؤمرات ، كما في فيلم (مفقود) . ولا تحمل بصمات الديكتاتورية الفاشية كما في فيلمه (Z) زد . وهي لا تحمل شبهات القهر او التسلط الارهابي كما في فيلمه السابق (الاعتراف) .

إن نموذج العسكرية هنا ، هو القدرة التي تضمن سريان القانون والنظام . وهي القوة العاقلة التي تتحرك طبقا لمواد القانون لكي تحمي نصوص اللوائح والقوانين . وهكذا تستطيع (حنة .. ك) أن تثق في قدرات (هيرتزوغ) على العطاء والحب . وتوفير الحماية والأمن والاستقرار ، وفي ظروف الأمن والاستقرار يزيد عطاء العاطفة والحب ، ويتوفر مناخٌ مناسبٌ من الافكار والمواقف السياسية لمزيد من تطور علاقة الحب بين (حنة) و(هيرتزوغ) ، والتي تعطيه راضية طفلا ، هو رمز للاستمرار والامل . وهو ايضا رمز لذلك التوافق والاندماج الكامل بين احلامهما المشتركة في مستقبل الايام .

ولعلها ليست مجرد مصادفة أن يجعل السيناريو من ثمرة هذا اللقاء الفكري والعاطفي بين كل من (حنة .. ك) و(هيرتزوغ) على صورة طفل جميل . يحمل اسماً ذا معنى لا أحسبه يخفى على القارىء . حيث يطلقان على الطفل اسم (داوُد)[١٩] . ذلك أن (داوُد) في التراث العبري هو اول ملوك اليهود . وهو الذي صرع بدهائه وخفة حركته[٢٠] العملاق الفلسطيني (جوليات) او جالوت . ثم هو محارب شديد البأس . وهو من بعد ذلك شاعر[٢١] عذب العبارة ، وعاشق متيم ، رقيق الفؤاد[٢٢] ، وقاضٍ يحكم بالعدل[٢٣] والقسطاس .

وآخر شخصيات الفيلم الرئيسية هو : **سليم بكري** : والذي يؤدي دوره في الفيلم الممثل (محمد بكري) وهو احد ابناء الأرض المحتلة من الجليل . ولا توجد لدينا أي دلالة لحكمة تغيير الاسم الأول (لمحمد بكري) طالما انه ظل يحتفظ في الفيلم باسم عائلته (بكري) سوى ان يكتسب الاسم صفة حيادية أوسع . أما المعنى القاموسي لاسم سليم[٢٤] فيأتي بمعنى سلام ، واستسلام وسَلْمَ ... الخ . وجميعها من مصدر (س ل م) . ولا نعتقد أن لذلك قيمة كبيرة في تفسير وتحليل الفيلم .

---

(١٨) قدري حفني ، **تجسيد الوهم** (القاهرة : مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية ، ١٩٧١) .

(١٩) المسيري واخرون ، المصدر نفسه .

(٢٠) **الكتاب المقدس** (العهد القديم) ، سفر صموئيل الثاني ، الاصحاح ٨ : السطر ١ .

(٢١) احمد حماد ، « البطل التاريخي في الشعر العبري المعاصر ، » (اطروحة دكتوراه ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٨١) .

(٢٢) **الكتاب المقدس** (العهد القديم) ، سفر صموئيل الثاني ، الاصحاح ٨ : السطر ١٥ .

(٢٣) المصدر نفسه ، سفر صموئيل الثاني ، الاصحاح ١١ : السطر ٤ .

(٢٤) **قاموس مختار الصحاح** (القاهرة : دار نهضة مصر ، [د . ت .]) ، باب السين : مصدر سلم ، ص ٣١١ .

والمفترض أنه يقوم بتمثيل دور الفلسطيني العربي الذي هاجر او أجبر على الهجرة من وطنه الفلسطيني ـ كلمة فلسطين هي من وحي خيال كاتب هذه السطور ـ ذلك ان مخرج الفيلم وكاتب السيناريو قد تحاشيا تماما وطوال مدة عرض الفيلم ذكر كلمة فلسطين او فلسطيني ، بل كان حرصهما بالغاً الى درجة التحريم من ان تسقط تلك الكلمة عفوا من فم اي فرد من اشخاص الفيلم بطريقة مباشرة او غير مباشرة، وتلك علامة استفهام كبيرة سوف نعود اليها لاحقاً . غير أن تقديم سليم بكري في الفيلم ومنذ المشهد الأول لظهوره على الشاشة ، يكون محاطاً بالغموض ، مغلفاً بعوامل الشك ، بل والاتهام المستتر ، او الصريح ، أحيانا . فنحن نرى الدورية الاسرائيلية وهي تفتش المكان في بداية الفيلم . بحثا عن عناصر يسميها الفيلم (بالارهابيين) . نراها وقد القت القبض فعلاً على أربعة فدائيين ،ثم هي تواصل التفتيش عن شخص آخر . ثم نجدها وقد عثرت على (سليم) وبعثورها على سليم تنتهي مهمتها وترحل بعد ان تضع الديناميت وتنسف المنزل الفلسطيني . وبهذه الصورة يحاول ان يربط الفيلم بين (سليم) الشخص المسالم بالفعل وبين آخرين يطلق عليهم صفة الارهاب والتخريب .

وإذ كان هذا الربط بين سليم ومجموعة الفدائيين قصد منه بذر الشكوك حول شخصية سليم ، فان الكيفية التي قدم بها (سليم) للمشاهد للمرة الأولى ذات أثر كبير في فهم الفيلم . وهي تعكس ايضا رؤية (كوستاغافراس) لشخصية البطل العربي ، والفلسطيني على وجه خاص .

ومن المعروف ان هناك عشرات ، بل مئات من الطرق التي يمكن من خلالها رواية حادثة واحدة . غير ان الفرق بين طريقة واخرى ، يكمن في زاوية رصد الحادث . وفي أي جانب يقف الراوي. وهل هو مع او ضد ؟ ولأن ذلك المشهد الذي يظهر فيه (سليم بكري) للمرة الأولى امام اعين المشاهدين على جانب كبير من الأهمية ، فإننا ننقله للقارىء بالسياق نفسه الذي اورده (كوستاغافراس) في فيلمه على النحو التالي :

ـ لقطة لدورية اسرائيلية تجوب المنطقة .

ـ لقطة لافراد من الدورية تصاحبهم الكلاب البوليسية .

ـ لقطة لكلب ينبح .

ـ لقطة لأحد الكلاب وهو يشدّ الجندي في اتجاه البئر .

ـ فوهة البئر .

ـ الكاميرا من أعلى حيث نرى شخصاً في اسفل البئر .

ـ لقطة القبض على (سليم) .

وملخص هذه اللقطات السينمائية بطريقة الكتابة السينمائية هي : « الدورية الاسرائيلية تفتش المنطقة وتعثر على شخص مختبىء داخل البئر ويتضح ان اسمه سليم » .

وهنا يطرأ على الذهن سؤال . ماذا لو تم ترتيب اللقطات السابقة نفسها ، على نحو مختلف لكن مع المحافظة التامة على المعنى الخبري نفسه للحادث ؟

وسوف نضع الترتيب على النحو التالي :

ـ سليم بكري يستشعر الخطر .

ـ سليم يختبىء داخل البئر .

ـ الدورية تقترب وتواصل التفتيش .

الكلاب تنبح عند فوهة البئر .

ـ القبض على سليم بكري .

والفرق بين الطريقتين في رواية حادث إلقاء القبض على (سليم) ، أن الطريقة الثانية كانت سوف تتيح للمشاهد فرصة الاقتراب والتعرف على (سليم بكري) بطريقة إنسانية لا تخلو من الدفء ، ثم تتصاعد مشاعر الخوف والقلق لدى المشاهد على مصير تلك الشخصية . وتعلو شحنة الإثارة في وجدان المشاهد وهو يرى الكلاب الوحشية ، وهي تنبح وتزمجر لدى ادراكها بحاسة الشم مكان (سليم) ... الخ .

ولكن لأن (كوستاغافراس) مخرج متمكن من أدواته . ويعلم جيدا ، أن النفس البشرية مهما كانت لا تود رؤية المظلوم ، وهو يقع فريسة سهلة بين أيدي جلّاديه ، فاننا نرى المخرج وقد أقام حول (سليم) سياجاً رقيقاً وشفافاً لا يكاد يحسه المتفرج من فرط شفافيته ، وإن كان في قوة وصلابة الفولاذ : ذلك حتى يظل المشاهد على بعد خطوات محسوبة بدقة من شخصية (سليم) . ولا يتاح له التعاطف او التفاعل معها إلا بقدر .

كما يتعمد السيناريو أن تأتي بعض تصرفات سليم غير مفهومة او مبررة وتحيطها علامات الاستفهام . ولعل مشهد المطاردة بين (حنة .. ك) و(سليم بكري) أبرز مثال على ذلك . حيث نرى (حنة) تفتش البيت عن (سليم) ، الذي كنا نراه قد تسلل خارجاً ـ وهي التي كانت قد آوته في بيتها . ثم نراها تتعقبه في مشهد طويل نسبياً داخل مدينة القدس القديمة . وتظل الكاميرا تنتقل بين (سليم) و(حنة) . ثم في مشهد غاية في الذكاء نرى (سليم) في مشهد (Long Shot) بعيدا حيث يقف مع بعض الأشخاص الذين لا تمكننا الكاميرا من رؤية ملامحهم إطلاقا، حيث كان (سليم) يعطي ظهره للكاميرا ، ثم يستدير سليم عائداً وينتهي المشهد عند ذلك !!. ورغم الطول النسبي لمشهد تعقب (حنة) للمهمة الغامضة التي ينفذها (سليم) ، فإن حوار (سليم) مع أولئك (الغرباء) ، فضلاً عن أنه غير مسموع للمشاهد ، فان زمن عرضه على الشاشة لا يستغرق اكثر من ثانيتين فقط ! تُرى ماذا قال لهم سليم في ذلك الحوار الخاطف والذي تحيطه الشكوك ؟ ومن هم أولئك الغرباء ؟ وقد رَأينا أنه أنفق نصف النهار حتى يصل الى ذلك المكان !

وهناك زيارة اخرى اكثر غموضاً ، يقوم بها (سليم) حيث نراه وقد ذهب الى المكان الذي عاش فيه من قبل (معسكر للاجئين) والذي تحول الى مستعمرة يهودية جميلة ، تحيطها الحدائق ويمرح بين « فيلاتها » النظيفة وفي شوارعها الاطفال الصغار .

وتتضاعف دهشتنا عندما يقع اختيار المخرج وكاتب السيناريو على المستعمرة نفسها ، لكي تنفجر بين مبانيها الجميلة وشوارعها التي تزينها الاشجار قنبلة ناسفة . ويروح بالطبع ضحيتها اولئك السكان الابرياء وأطفالهم الملائكة !

ويكاد المخرج ان يشير بأصبع الاتهام نحو (سليم بكري) عندما يجعل سليم يغلق جهاز

التلفزيون والذي كان يتهيأ لبث نشرة الاخبار في منزل (حنة) .

وبالطبع يتساءل المشاهد عن سر اغلاق (سليم) لجهاز التلفزيون وهو التساؤل نفسه الذي كان يدور في عقل كل من (هيرتزوغ) وربما (حنة) التي كانت تقف بين الاثنين حائرة .

ترى ماذا كان يود سليم ان يخفي ؟ وتأتي الاجابة سريعا عندما يقوم هيرتزوغ بفتح الجهاز والذي كان ينقل على الهواء خبر تفجير العبوة الناسفة في مستعمرة (كفار ريمون) والتي رجع سليم من زيارتها منذ لحظات قصيرة . وتقترب الكاميرا اكثر ، فأكثر حتى لقطة (الكلوز) لكي نرى بشاعات العمل الاجرامي من جراء انفجار القنبلة .

ويظل مشهد الدماء والقتلى والجرحى الاسرائيليين ، هو آخر ما يتبقى في ذاكرة المتفرج ويصبح من المنطقي تماماً أن يوجه (هيرتزوغ) الاتهام ناحية (سليم) بقوله « اين كنت منذ ساعتين ؟ » وعندما يجيب سليم بأنه كان في (كفار ريمون) يصبح من المحتم ان يرفع هيرتزوغ سماعة التلفون ويتصل بالشرطة لكي يبلغ عن وجود ارهابي في منزل (حنة) . وصياغة المفردات داخل المشهد على هذا النحو . غاية في الذكاء فاتصال (هيرتزوغ) يأتي من داخل المشهد وليس مقحما على السيناريو ، وهو لا يعكس أي حقد او ضغينة ضد (سليم) ، ولكنه تصرف تمليه مقتضيات سياق الاحداث . كما يصبح مشهد العشرات من جنود الشرطة ينتظرون امام باب (حنة) هو الختام الطبيعي لأحداث ذلك المشهد ، بل للفيلم كله .

ملاحظات حول المنهج

لقد عُنينا في الصفحات السابقة بإخضاع الفيلم لمنهج موضوعي في التحليل . وذلك باستخراج الدلالات الفكرية والاجتماعية التي تَشَكَّلَ منها بناء الفيلم . وقد يظن البعض أن أهمية الفيلم تعود الى قيام مخرج عالمي مثل (غافراس) بالاقتراب بشجاعة من المنطقة الخطرة التي تحيط الصراع العربي الاسرائيلي . لكنه فرض تنقصه خصوبة الذاكرة . فلقد سبق (غافراس) العديد من اولئك (الشجعان) وقد تبدو في الافق مقولة ان (غافراس) قد عرض القضية بمنتهى الحياد والموضوعية . لكنه افتراض غير حقيقي ، حيث لا يوجد في الفن ما يسمى بالحياد . فالفن دائما منحاز وربما كانت حجة البعض فيما سبق مناقشته من افتراضات تعتمد على ما يرون أنه أقوى مشاهد الفيلم . وهو مشهد البداية . حيث يتم نسف منزل تقطنه اسرة فلسطينية . لكن ذلك المشهد لا يقف كدليل على بشاعة الممارسات الاسرائيلية الا بالقدر الذي يقوله من يتلو « ولا تقربوا الصلاة .. » ثم يقف عن التلاوة . ذلك ان المشهد هو جزء من نسيج كبير لا يمكن النظر اليه بمعزل عن بقية اجزاء الفيلم . فإن نسف المنزل يأتي بعد القبض على مجموعة من الفدائيين المختبئين بداخله ، وكان آخرهم هو (سليم بكري) وهنا يصبح موقف السلطة الاسرائيلية من نسف المنزل مبرراً ومفهوماً ، فَهُما في صراع دائم ضد المتسللين ، وهي تريد القضاء عليهم طالما انهم يستهدفون تفجير القنابل ونشر الذعر داخل الدولة .

ولنتمعنْ في المشهد بشكل اوضح. وسوف نجد ان الكاميرا وقفت في مكان بعيد ولم تحاول ان تقترب من المنزل . كما انها امتنعت عن ابراز تفاصيل الانفجار . وكمثال نقول ان جولة داخل اطلال وبقايا الانفجار كانت سوف تقوى من احساسنا بفداحة الجريمة ان رؤية كراسة طفل من سكان المنزل او بقايا ملابس أو قلة مهشمة او كوباً مكسوراً او اي شيء آخر من مفردات الحطام ... الخ ، كانت سوف تثري المعنى الخاص بتدمير المنزل . وهنا تصبح الكاميرا في موقعها البعيد انما ترصد

شكلا جماليا لانفجار المكان . ثم هي تظهر مقدرتها الفائقة على المكر والخداع حيث ننتقل الى المشهد التالي للانفجار بطريقة (البان) اي حركة الكاميرا أفقياً وليس بطريقة القطع .

وحكم اختيار الحركة الافقية هو تأكيد الاستمرار في المكان والزمان . حيث تبدو بقية بيوت القرية ساكنة هادئة مطمئنة وهو ما يعنى ان السلطة الاسرائيلية لا تعتمد في هذه الحالة العقاب الجماعي ولكنها فقط انزلت عقابها الرادع على من يستحق !! . اما على شريط الصوت فان صوت الاذان يأتي من اكثر من مئذنة جامع وبأصوات مؤذنين مختلفين وهو ما يعني أنه بالرغم من توقيع العقاب بحق تلك الاسرة ، الا ان الحياة مستمرة والصلاة قائمة . (منتهى الحرية !!) . وهكذا يكتسب ذلك المشهد مذاقا مختلفا . فهو وان كان يقرر حادثة تفجير المنزل كواقع ، لكنه يعطي المبرر الكافي لها في البداية . ثم هو يختتم المشهد بأقوى براهينه على ديموقراطية السلطة الاسرائيلية وسماحتها وانضباط عقابها حتى في أقسى الظروف . وقد يظن البعض ان مشاهد السوق ومشاهد القدس القديمة هي الشهادة بأن عرب فلسطين ما زالوا دليلا على الحق العربي . وهي مقولة تعكس الآمال والامنيات الطيبة لرؤية فلسطين المحررة ، ولكنها تعوق كثيرا القدرة على التحليل الدقيق للفيلم .

ان ظهور عرب فلسطين في مشاهد القدس القديمة والسوق . مع خلفية صوتية لموسيقى اغنية زهرة المدائن ودندنات الشيخ إمام وأغنيات ام كلثوم ، تأتي ايضا في إطار السياق الكلي للفيلم، وهي توضح مدى الحرية والسهولة التي يعيشها مواطنو الاقلية (حرية التجوال ـ حرية البيع ... الخ) وان السلطة الاسرائيلية لم تحاول محو الطابع الثقافي للأقلية رغم العداء الذي يكنه بعضهم للسلطة . كما ان حرية الاقلية مرهونة ايضا بنوع النشاط . وهنا يمكننا بكل وضوح الامساك بمضمون الفيلم من بين كل تلك الدلالات السابق الاشارة اليها .

وسوف يتضح لنا في التحليل النهائي للفيلم انه يطرح بوضوح قضية اليهود ، وليست قضية الشاب الفلسطيني او القضية الفلسطينية . وهو يتعمد تجهيل المشكلة الفلسطينية . ثم هو لا يُخفي مشاعر التعاطف مع الدولة العبرية وابداء الاعجاب بها .

ولكن اخطر مقولات ذلك الفيلم ، هو طريقة طرحه للحل الذي يراه من خلال الطفل (دافيد ـ عمر) وهو ما يعني ، ان الحل هو بالاندماج والذوبان الكامل للفلسطينيين داخل الكيان الاسرائيلي . وأنه لا حلَّ بديلٌ ولا أمل . فالقوة العسكرية وترسانة السلاح وجنود الجيش والشرطة في كل مكان . وحلم العودة هو الحلم المستحيل . فلا أمل سوى بقبول الامر الواقع داخل الدولة العبرية وبالشروط الاسرائيلية □

ندوة «المستقبل العربي»

السينما العربية الراهنة: الازمة ومحاولات التجاوز

عقدت هذه الندوة في مقر مكتب مركز دراسات الوحدة العربية بالقاهرة يوم الثلاثاء ٦ شباط / فبراير ١٩٨٤، وقد شارك فيها تبعاً للحروف الهجائية كل من :

د. سعد الدين ابراهيم

المنسق العام لمشروع استشراف مستقبل الوطن العربي الذي يعده مركز دراسات الوحدة العربية، واستاذ علم الاجتماع بالجامعة الاميركية بالقاهرة .

علي ابو شادي

ناقد سينمائي ـ سكرتير عام اتحاد نقاد السينما المصريين ـ مدير ادارة السينما بالثقافة الجماهيرية .

كمال رمزي

ناقد سينمائي ـ عضو اتحاد نقاد السينما المصريين .

د. ماجدة واصف

ناقدة سينمائية ـ محررة بمجلة المستقبل بباريس .

د. محمد سيد سعيد

رئيس الوحدة الاقتصادية، وخبير بمركز الدراسات الاستراتيجية بجريدة الاهرام .

د. مصطفى درويش

وكيل مجلس دولة ـ ناقد سينمائي .

نعمت جنينة

مندوبة مركز دراسات الوحدة العربية بالقاهرة .

هاشم النحاس

مخرج سينمائي ـ رئيس مجلس ادارة اتحاد نقاد السينما المصريين .

ادار الندوة: سيد سعيد

مخرج سينمائي ـ نائب رئيس مجلس ادارة اتحاد نقاد السينما المصريين .

المستقبل العربي: دعوة الى المبدعين العرب

سعد الدين ابراهيم : أُرحب بكم باسم مركز دراسات الوحدة العربية، الذي دعا الى عقد هذه الندوة، واحبّ ان اقدم لكم فكرة سريعة عن المركز، وطبيعة نشاطاته .

وُلدت فكرة المركز في ذهن مجموعة من المفكرين والسياسيين العرب، الوحدويين، الذين روعتهم هزيمة ١٩٦٧، والشرخ العميق الذي احدثته في الصف العربي، وخاصة انهم انفقوا زهرة شبابهم وجزءاً كبيراً من ثرواتهم في سبيل القضية العربية، ومع ايمانهم العميق بعدالة ما يكافحون في سبيله، الا ان واقع الهزيمة كشف لهم ان ثمة شيئاً خاطئاً في منهج حركة القومية العربية، في التعامل مع واقعها او مع التغيرات الدولية حولها؛ ومن هنا نشأت فكرة ضرورة ان تجري محاولة لفهم الواقع العربي، من دون رومانسية، او اغراق في تصورات مثالية، وضرورة تناول مشاكل الواقع العربي بشكل علمي وعملي، وانبثقت فكرة هذا المركز ليتولى هذه المهمة، على ان تتوفر له شروط الاستقلال، ومن دون ان يضطر للدخول في دهاليز السياسات العربية، او نفوذ الحكومات .

وقد استغرق الاعداد لهذا المركز وجمع الاموال اللازمة والتي تؤهله له ان يظل محتفظاً باستقلاله عدة سنوات قبل ان يبدأ عمله، ولقد استعاروا له فكرة الوقفية من التراث العربي الاسلامي القديم، ومن بعض تجارب مؤسسات مشابهة في العالم الغربي. ومن ريع هذه الاموال يقوم المركز بتمويل انشطة البحث العلمي .

ويصدر المركز مجلة شهرية هي مجلة **المستقبل العربي**، ويقوم بدراسات تُغطي جميع الميادين الخاصة بالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للوطن العربي ويصدر مطبوعات تحمل مضمون هذه الدراسات، هذا الى جانب عقد الندوات التي تُتيح الحوار المباشر بين المثقفين والمفكرين العرب .

والحقيقة ان المركز يقوم بتقويم نشاطاته، كل ثلاث سنوات، وفي آخر تقويم لنشاط المركز، لوحظ انه كان مركّزاً في مجال الدراسات السياسية والاقتصادية اكثر منها في المسائل الثقافية والابداعية. ومن ثم صدرت توصيات من لجنة المراجعة والتقويم بأن تعطى لهذا الجانب اهمية خاصة في السنوات القادمة .

ومن هذا المنطلق واستجابة لهذه التوصية، فقد دعا المركز الى عقد هذه الندوة، والخاصة بواقع السينما العربية، باعتبارها من اكثر الفنون انتشاراً وتأثيراً في الجماهير العربية، من ناحية، ومن الناحية الاخرى باعتبارها اكثر التصاقاً بالبنى الاقتصادية والثقافية والسياسية في الوطن العربي .

ومن هنا فإنني ارحب بكم باسم المركز، وارجو ان تكون هذه الندوة بداية لتعاون طويل ومثمر بين المركز وبينكم وشكراً لكم .

اوضاع السينما العربية

● **سيد سعيد**: في البداية احب ان اتوجه بالشكر الى مركز دراسات الوحدة العربية الذي دعا الى تنظيم هذه الندوة في اطار اهتماماته بدراسة قضايا واشكاليات الواقع العربي .

عنوان هذه الندوة ليس جديداً على ساحة النقد السينمائي العربي، اذ لا يكاد يخلو مقال او دراسة حول السينما العربية، الاّ ويتصدرها تعبير الازمة والتي تبدو في بعض ملامحها انعكاساً للوضعية التأزمية، التي يزرح تحت وطأتها الواقع العربي .

اقول انه رغم شيوع استخدام هذا العنوان في مجالات النقد والدراسات السينمائية الا انه يتسم بصورة تفتقر كثيراً الى التجديد . فمصطلح السينما العربية لا يبدو واضحاً بحد ذاته فهل يُقصد بها تلك السينما الناطقة باللغة العربية حتى لو تم انتاجها خارج الجغرافيا العربية، او برؤوس اموال اجنبية؟ ام يُقصد بها تلك التي يتم انتاجها داخل البلاد العربية وبرأس مال غربي حتى لو كانت موالية لايديولوجية التجزئة؟ ام تلك السينما التي تتبنى قضايا الوطن العربي، والعروبة، اياً كانت هوية التمويل، وجنسية المبدع، هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فإن مصطلح الازمة يطرح قضايا اكثر فأي خطورة ازمة نعني.. هل هي ازمة السينما السائدة، ام السينما المطروحة كبديل لها ؟

واسمحوا لى ان اقدم اقتراحاً في اربع نقاط نلتزم بأن يدور حولها النقاش :

- النقطة الاولى: تحديد مفهوم السينما العربية .
- النقطة الثانية: تحديد مفهوم الازمة واين تكمن.
- النقطة الثالثة: تقويم التجارب والمحاولات لتجاوز السينما السائدة .
- النقطة الرابعة: اقتراحات او مداخل لتأسيس سينما عربية التوجه والهوية، في اطار الشبكة المعقدة، وذات الخصائص العربية من مشكلات الواقع العربي.

معايير الهوية للفيلم العربي

○ **علي ابو شادي**: أعتقد ان ثمة مداخل لتحديد مفهوم السينما العربية :

- اللغة العربية.. فإنها تشير الى هوية الفيلم، وهذا هو الشائع عموماً فإن هذا المصطلح قد وُضع اصلاً لمواجهة الفيلم الاجنبي .

- هوية الانتاج وتحديد ما اذا كان الفيلم قد تم انتاجه وتمويله برأس مال عربي، داخل الارض العربية .

- السينما العربية كما نتصورها او نحلم بها، ان تكون عربية التوجه والهوية وناطقة باللغة العربية، ويتم انتاجها وتمويلها برأس مال عربي، وتهدف الى طرح القضايا العربية .

وقد لا تثير هذه المراحل خلافاً كبيراً ولكن يبقى انها لا تستطيع ان تضم في اطارها كل الافلام، التي يمكن ان تدخل في اطار الدراسات التي تتناول مشاكل السينما العربية، والتي قد تثير خلافاً حول هويتها . مثال: الموضوع العربي الذي يتم انتاجه برأس مال اجنبي، وعلى ارض غير عربية فأين مكانه على خريطة الهوية؟

الفيلم الذي يتم انتاجه برأس مال عربي، وعلى الارض العربية ويخرجه غير عربي مثل «ينابيع

الشمس» الذي اخرجه جون فبني وفيلم «والإسلاماه» الذي اخرجه اندرو مارتون، اين مكانه؟

الموضوع العربي الناطق بلغة اجنبية مثل فيم «عمر المختار» لو اعتمدنا اللغة كمعيار فلن يكون هذا الفيلم عربياً .

أتصور لكي نخرج من هذا المأزق علينا ان نُضيف الى كل هذه المعايير معيار التواصل مع الجماهير العربية، فإذا حقق الفيلم درجة ما من درجات التواصل مع الجماهير العربية، او كان معبراً عن الشخصية العربية، وفي مصلحة تقدمها الانساني والحضاري، فإنني اضعه في مصاف السينما العربية حتى لو كان تمويله اجنبياً او ناطقاً بلغة اجنبية .

○ **ماجدة واصف** : الحقيقة انه في واقع معقد ومتشابك في اشكالياته مثل الواقع العربي، يصعب تحديد معيار للهوية بدقة.. ففي ظروف تجزئة الوطن العربي وتفاوت اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والحضارية بالاضافة الى تشوه الهوية الثقافية في عدد من بلدانه وارتباطاتها بالثقافات الاجنبية كما هو الحال في الجزائر مثلاً، التي تجاوز الاستعمار فيها حدوده وتحولت فيها الجزائر الى ولاية فرنسية فقد فيها معظم الجزائريين على الاقل اللغة العربية الفصحى او جهلوها . بل استطيع - ونحن بصدد الحديث عن السينما - ان اؤكد ان معظم السيناريوهات الجزائرية مكتوبة باللغة الفرنسية يتم ترجمتها بواسطة مترجمين محترفين لتنطق باللغة العربية. هذا بالاضافة الى الاوضاع اللاديمقراطية في معظم البلاد العربية، والقيود الرقابية الشديدة على وسائل الاعلام، الامر الذي يدفع بكثير من الفنانين الى البحث عن جغرافيا اخرى لامكانية انتاج افلامهم بحرية. وكذلك يمكن الاشارة الى الظروف الاقتصادية المتردية في بعض الاقطار العربية، تدفع الفنان العربي للبحث عن مصدر للتمويل يوفر له تحقيق طموحاته.. كذلك تخلّف الكوادر الفنية ونقصها في بعض البلاد، مما يدفعها الى الاعتماد على كوادر فنية اجنبية.. على ان مشكلة المشاكل بالنسبة لقضية هوية الفيلم العربي، هي اوضاع ونتائج التجزئة العربية وعدم توافر عناصر المثاقفة بين البلاد العربية والتي خلقت مناخاً اقليمياً، وتلعب اللهجات المحلية دوراً كبيراً في صعوبة انجذاب وتجاوب الجماهير العربية للفيلم الجزائري او العراقي مثلاً الناطق بلهجة محلية، كذلك تفاوت الظروف الحضارية بين البلاد العربية يجعل ايضاً الفكرة العربية التي تصدر عن فنان عراقي مثلاً تجد صعوبة في استيعابها او التجاوب معها في مصر او الجزائر. ونضيف ان العروبة كمفهوم قومي يتمسك به العرب ويطمحون في تجسيده كهوية لا يزال يثير جدلاً لم يتم حسمه بعد. وارى ان الفيلم العربي كعمل ابداعي لا يزال مشروعاً سوف يتحقق بتبلور الهوية العربية ذاتها، وهو مشروع نضالي.. ومن خلال هذه النظرة وبما اننا بصدد دراسة الواقع السينمائي العربي مأخوذاً ككل فإنني اجد انه ليس امامنا الا ان نسلم بكل المعايير التي تم ذكرها .

○ **هاشم النحاس**: اتصور ان مصطلح السينما العربية يجب ان يكون من الاتساع ليشمل كل ما يتم انتاجه على الارض العربية او خارجها، وسواء أكان بفنانين عرب أم اجانب، برأس مال عربي أم اجنبي، باختصار السينما العربية بكل اشكالاتها وواقعها.. حتى لو كانت كما قيل - معادية للوحدة العربية او تهدف الى ناتج ايديولوجي معادٍ للجماهير العربية، او له اشكال ودلالات متناقضة مع الثقافة العربية، وحتى لو كان مشكوكاً في هويته - اقول ذلك في الحقيقة لسبب عملي، وهو معرفة هذه السينما وامكانية دراستها، والتعرف على ابعادها، ولأن هذا جزء من ازمتها؛ فإذا استبعدنا اجزاء منها استبعدنا اجزاء من الازمة، وبالتالي سوف تُغمض اعيننا عن مشكلتها الحقيقية.. لذلك فأنا اقول : إن

علينا اجرائيا، وعملياً ان نأخذ الواقع السينمائي العربي برمته، وكما هو حتى يمكن تدارسه والتعرف عليه من داخله وعلى جميع ابعاده وعيوبه، وحتى يمكننا توصيفه .

○ **سعد الدين ابراهيم**: أفضل ألا يستغرقنا التعريف، او نستنفد في مسائل تعريفية، ففي مشكلة التعريف لدينا جسم الظاهرة، ولا بد من ان يُغطي التعريف جسم الظاهرة. ثم هناك المناطق الرمادية، من الواضح انكم تريدون الالمام بالمناطق الرمادية. انا اقترح في اي عمل ثقافي ـ والفيلم عمل ثقافي واجتماعي ـ ان نبحث في عناصر انتاج هذا العمل، وهي متعددة.. مثلاً.. هناك التمويل والابداع والجمهور المُستهدف.. وهناك جمهور مُستهدف، ومقصود ولكن هذا لا يمنع من وجود جمهور فرعي. فإذا اعتبرنا ان عناصر الانتاج والابداع، والجمهور المستهدف هي عناصر لهوية الفيلم العربي فإن هذا قد يخرجنا من مأزق التعريف. وانا اقول ان صعوبة التعريف تنبثق من التشوهات الموجودة في الواقع العربي.. فلو كان الواقع العربي سوياً كما كنا نتمنى لما كانت هناك مشكلة منتَج عربي يتم انتاجه في الخارج على سبيل المثال. فجزء من صعوبة التعريف في المناطق الرمادية تنبثق من التشوهات الموجودة في الواقع العربي، وهذا جزء من الازمة فإذا كان لي ـ على سبيل المثال ـ ان اقترح تعريف السينما من خلال عناصر الانتاج التي ذكرتها، اعني ان تكون معظم هذه العناصر، وليست كلها عربية، وان الجمهور المقصود هو جمهور عربي، سواء أكان قومياً ام قطرياً يكون الفيلم عربياً.

● **سيد سعيد**: الدكتور سعد الدين ابراهيم محق فيماذكره بخصوص صعوبة التعريف، والتي ترجع الى التشوهات في الوطن العربي.. ولكننا فيما اعتقد بصدد التصدي لهذه التشوهات ـ فهي كما ذكر ـ جزء من الازمة. وعموماً فالمقصود من ضرورة التعريف هو تحديد وتوحيد لغة الحوار حتى لا تجرى المناقشة في اتجاهات متعددة.. اذ ان من جملة الاسباب التي قادت الفكر العربي كثيراً الى طرق مسدودة، هو استخدام لغة تفتقر الى التأسيس النقدي وتتسم بغياب التحديدات المنهجية، وبعدم التدقيق في المفاهيم المستخدمة، مما يؤدي الى تبعثر الحوار... هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى، فان اهمية التعريف لا تقتصر على الوصول الى تنميط شكلي وإنما الى تشخيص المشكلة اي ان التعريف يصبح مجموعة من العلامات التي تحدد حقل القضية . فهل نحن متفقون على التعريف الذي اقترحه د. سعد الدين ابراهيم؟

○ **هاشم النحاس**: نعم، لدينا الآن على الاقل ثلاثة شروط: الانتاج، والابداع ، والجمهور .

● **سيد سعيد**: علينا ان ننتقل الى النقطة الثانية.. وهي تحديد مفهوم الازمة واين تكمن .

ملامح الازمة في السينما السائدة

○ **كمال رمزي**: في البدء نطرح سؤالاً.. هل هناك ازمة؟ وازمة من؟ من وجهة نظري فالسينما العربية السائدة ليست في ازمة.. فهي تحقق رواجاً تجارياً، ودورة رأس المال سريعة، ومؤكدة الربح فهي من الناحية الاقتصادية رائجة تماماً.. بالاضافة الى انها تحقق وظيفتها الايديولوجية ولا تعاني من اي ازمة.. ولكن الازمة في التيار الذي يمكن ان نسميه تيار السينما الجادة.. والواقع انه ليس تياراً بل جزراً منعزلة يفصل بينها عدة سنوات، الازمة في هذه المنطقة التي نريد تنميتها، هذه هي منطقة الضعف، وما اريد ان اؤكده هنا ان ملامح الازمة لا تحدد في الصناعة كرواج اقتصادي ولكن في

القائم مع اشباع هذه الحاجات المادية والروحية، في وقت تكون فيه القوى الضرورية لاشباع هذه الحاجات اما غائبة عن الساحة، او غير قادرة على الاعتراض على الاوضاع القائمة. هذا من ناحية، ومن الناحية الاخرى يمكننا ان نشير الى تلك الحالة التي يُفترض وجود وعي اجتماعي لدى فئة او طبقة معينة بعدم التوازن، وبهذا المعنى يمكن ان نشير الى ان معنى الازمة هنا لا يمثل مصطلحاً مطلقاً، لأن صناع الفيلم السائد وليس الشرائح الاجتماعية التي يمثل مصالحها استمراره لا تشعر بوجود ازمة، ولكن منظور الازمة هنا يشير الى اوضاع هيكلية تجعل من وضع واستمرار السينما السائدة، وضعاً تأزمياً نسبة الى تخلفها التاريخي عن المتغيرات التي تحدث في الواقع العربي.

والواقع ان ازمة السينما العربية بهذا المعنى لا تمثل متغيراً طارئاً، ولكن **الازمة كامنة في شروط نشأتها وجدلية التراكم المتبادل في علاقتها بالجمهور العربي**، فعند ظهور السينما في نهاية القرن التاسع عشر، كانت معظم المجتمعات العربية خاضعة بشكل مباشر او غير مباشر للسيطرة الاستعمارية، وجاءت السينما لتكون هي الاخرى احدى مجالات الاستثمار الاجنبي الذي توجه لقطاع الخدمات، وهنا يكمن الفرق بين السينما السائدة في الوطن العربي والسينما السائدة في اوروبا وامريكا. فالسينما السائدة في امريكا نشأت من التقاليد الميلودرامية لروايات القرن التاسع عشر والظروف التاريخية لنشأة الولايات المتحدة الامريكية، بالاضافة الى مصادر الثقافة الشعبية الامريكية، ولكن هذه السينما السائدة سارت جنباً الى جنب سينما الصفوة والتجارب الجمالية والفكرية للسينما، ولكن السينما المصرية جاءت مسخاً مشوهاً للسينما السائدة الامريكية .

هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى جاء الانتاج المصري، وفي ظروف المنافسة مع الفيلم الاجنبي متفوقاً بميزة اساسية هي استخدامه للغة العربية، وهي لغة التفاهم والتواصل بالنسبة للجماهير العربية، وقد تعاطفت الجماهير العربية مع الفيلم المصري، باعتباره فيلماً عربياً، وساعد في ذلك تنامي الشعور الوطني والعداء للاستعمار، وقد ادى تفاوت الامكانيات بين اقطار الوطن العربي لتصنع سوقاً عربية للفيلم المصري.

وبعد الحرب العالمية الثانية، كانت البرجوازية تعاني من تحول مهم في طبيعتها وخلفيتها الاجتماعية والايديولوجية، اذ انتقل مركز الثقل الى الرأسمالية الطفيلية ووضعت في هذه المرحلة القوالب والانماط التي ظلت تتكرر حتى وقتنا هذا. ومنذ هذا الوقت تشكل مركب اقتصادي اجتماعي مسيطر من تحالف الممولين العرب والموزعين اللبنانيين، وقد تمكن هذا المركب من السيطرة بصورة ثابتة على جميع حلقات عمليات الانتاج السينمائي. وعندما بدأ القطاع العام السينمائي في مصر، بدأ حصار هذا التحالف له، بالاضافة الى ان الدولة لم تتدخل في قطاع السينما لكي تتمكن من تطوير السينما، وانما لغرض فرض الرقابة البيروقراطية على المركب الاقتصادي الاجتماعي،مما ادى الى توسيع مجال السيطرة في نطاق المنظومة نفسها من السينما السائدة. وفي بعض الاقطار العربية ادت سيادة الطبيعة الدعائية لانتاج القطاع العام الى حرمانه من فرصته في تجاوب حقيقي مع الجماهير العربية، وقد فشل القطاع العام في معظم الاقطار العربية في توفير شروط اعادة هذا الانتاج لتعثر او فشل سيطرته على دور العرض، وجزئياً لاعتماد هذا القطاع على الشروط المالية العامة للدولة، والهبوط الواسع المدى في قدرته على النمو، وجزئياً نتيجة عدم اقبال الجماهير على انتاجه سواء لطبيعته الدعائية كما هو الحال في العراق او لأسباب اخرى معقدة كما هو الحال في الجزائر. وهكذا تعود الهيمنة الرئيسية على سوق السينما في الوطن العربي لأيدي القطاع الخاص وشبكة التوزيع العربية التي تعتمد على التمويل النفطي والعقلية النفطية .

○ **نعمت جنينة**: اريد ان اسأل هل فعلاً الجمهور يرفض السينما الجادة؟ افلام يوسف شاهين مثلاً حصلت على جوائز عالمية، ولكنها فشلت في تحقيق نجاح في الداخل هل السبب هو تخلف الجماهير عن مستوى هذه السينما، ام ان ثمة شيئاً في هذه السينما يعوق عملية التواصل مع الجماهير؟

● **سيد سعيد**: سؤال جاء في حينه، ويدفعنا الى مناقشة الجزئية الخاصة بأزمة السينما في علاقتها بالجمهور. فكيف نجحت السينما السائدة في اقامة هذا التواصل بينما فشلت السينما الجادة في تحقيق ذلك؟

○ **ماجدة واصف**: الجمهور العربي في الواقع ليس نمطاً واحداً، ومشاكله النوعية والاقليمية مختلفة من قطر لآخر، والسينما السائدة تهرب من مواجهة هذه المشاكل النوعية الى موضوعات عائمة وعامة، ترضي كل الاذواق، فمشاكل الواقع المصري اليومية والصعبة لا تجد صدى لدى الجمهور العربي الذي لا يهمه كثيراً ازمات المجتمع المصري، ولا يعاني مثلها، وبالتالي فإن هذا يفرض طبيعة خاصة للفيلم الموجه الى جمهور من هذا النوع وهكذا يحدث نوع من الانفصال التدريجي بين السينما والواقع .

هذا من ناحية، ومن الناحية الاخرى فجمهور السينما الاساسي اغلبيته من الطبقات الشعبية وسكان المدن، هذا الجمهور الذي يملك ثمن التذكرة وهي مرتفعة نسبياً بالنسبة لمستوى دخل الفرد العام في مصر، وبالتالي فهو جمهور خاص، قادر على دخول السينما بانتظام، هذا الجمهور له ذوقه وثقافته، وقد تلقف الموزع، والمنتج هذه الحقيقة، وعبـرا عنها. وفشل السينما الجادة في التواصل مع الجمهور قد يرجع الى عوامل متعددة، منها ان قطاعاً من هذه السينما لا يتوجه الى جماهير الاغلبية، وانما يتوجه الى جمهور خاص، او ان هذه السينما تريد ان تخلق جمهورها الخاص... ومنها ان قطاعاً آخر من هذه السينما يتوجه الى جمهور الاغلبية ولكنه يفشل في التعبير عن رسالته وبالتالي يفشل في هذا التواصل مثله تماماً مثل بعض الافلام التافهة التي تفشل في التعبير عن فكرتها فتلاقي الفشل نفسه. ففشل السينما الجادة هنا ليس لأنها متقدمة عن جمهور متخلف.. او لأنها مختلفة عن الذوق العام ولكن لفشلها في اقامة حوار مع الجمهور. والمثال العكس ان هناك بعض الافلام الجادة لاقت نجاحاً جماهيرياً واسعاً لأنها استطاعت ان تحقق هذا المبدأ.. وهو مبدأ الحوار مع الجمهور .

ويبقى صحيحاً ان الذوق العام لمستهلك السينما ذوقٌ فاسدٌ الا ان الواقع يشير الى ان السينما تعكس في جانب منها بعض ملامح المجتمع، والقيمة السائدة فيه. وفي الفترة الاخيرة لاحظت ان السينما شكلت صورتها وموضوعاتها بما يتلاءم مع بعض المتغيرات الاجتماعية، سواء فيما يتعلق بنموذج البطل او التعبير عن بعض القيم السائدة. وفي مهرجان جمعية الفيلم الاخير، لاحظت ان سبعة افلام على الاقل تنتهي بنهايات تتسم بعنف دموي غريب .

○ **هاشم النحاس**: في البدء احب ان اقرر ان اعداداً غفيرة من الشعب العربي في مصر لا تذهب الى السينما، جزء منها لاسباب اقتصادية، وجزء لمحدودية دور العرض، وتركزها في مناطق معينة، بدليل ان السينما المصرية لا تستطيع ان تغطي تكاليفها من عائدها من السوق المحلي ، وتعتمد اعتماداً اساسياً على الاسواق الخارجية وبالتحديد السوق العربي.. فالجمهور الذي يدعم السينما المصرية هو جمهور محدود، وهو في رأيي جمهور مريض، ودليل مرضه استحالة رؤية فيلم مع هذا الجمهور، بأي مقياس اخلاقي او ثقافي، فهو جمهور يعاني من انحرافات نفسية واجتماعية معينة.. ومشاهدته لهذه الافلام هي جزء مكمل للدائرة المرضية.. وهذه الظاهرة في الحقيقة تحتاج الى دراسة متعمقة

ومخصصة. هذا من ناحية، وعلى الناحية الاخرى، اريد ان اشير الى تخلي المثقفين عن دورهم في التأثير على هذا الفن، والمثقفون المصريون والعرب ينظرون الى هذا الفن بتعال، وبالتالي ليس لهم تأثير فيه وهذا جزء اساسي في مشكلة علاقة السينما بالجمهور.. ومشكلة التدني الثقافي والفكري لجمهور السينما .

○ **نعمت جنينة**: اتساءل عما ذكرته د. ماجدة بأن السينما تشكل صورتها مع تغيرات القيم السائدة في المجتمع.. فهل هذا يعني ان هذه الافلام تقوم بتبرير قيم منحرفة موجودة فعلاً عند الجمهور؟

○ **كمال رمزي**: ليست مصادفة انه حتى في بعض الاعمال الجادة نسبياً في السينما المصرية ان البطل الذي يكون فاسداً او منحرفاً مثل بطل فيلم «اهل القمة» الذي نشاهده في صعوده من اسفل السلم الاجتماعي، من مجرد نشال الى احد عتاة التجار الانفتاحيين.. ان يخرج الجمهور وهو متعاطف معه تماماً، والتعاطف مع البطل المنحرف، يأتي اصلاً من صناع الفيلم الذين يقدمون صعوده على انه بطولة. ثم الجمهور وهو قطاع من سكان المدن يتمنى بينه وبين نفسه ان يحقق صعوداً على طريقة البطل المحبوب على الشاشة فهذا البطل منحرف.. نعم.. ولكن هناك بطولة في انحرافه. لدينا امثلة اخرى «السادة المرتشون» «العار» وغيرهما.. فهذه الافلام تقدم اوغاداً وثمة صراع بين البطل المنحرف او الذي يضطر الى الانحراف وبين من هم اكثر منه انحرافاً واجراماً، وقد ينتصر البطل او لا ينتصر، ولكنه يحظى في النهاية بعطف الجهمور .

ورغم هذه الحقيقة.. الا ان تحليل وتوصيف جمهور السينما لا ينسحب على الشعب المصري ككل، ولا على الذوق العام بمجمله، فجمهور السينما في مصر، وفي العالم العربي، لا يزال محدوداً ونستطيع ان نؤكد ان هناك قطاعاً ضخماً من الجمهور لا يشاهد السينما .

● **سيد سعيد**: الواقع ان العلاقة بين المتفرج العربي والسينما علاقة معقدة ومن الصعوبة الحكم فيها الا بصورة علمية، ومن خلال تكنيك التعرف وقياس الرأي العام. ويصعب في اطار هذا الغياب لاطار علمي واضح استخلاص تفسير مقنع وشامل لتواطؤ الجمهور العربي مع السينما السائدة. وهذه العلاقة لا تبدو بسيطة، فالملاحظ خلال العروض السينمائية ان الجمهور يتعامل احياناً مع الفيلم باهمال شديد. وكثيراً ما ينصرف عنه الى الثرثرة او سماع الراديو الترانزيستور اثناء العرض، وكثيراً ما نسمع التعليق الساخر المعبر عن عدم قناعة الجمهور بمنطق الفيلم «المخرج عاوز كدة» والجمهور بشكل عام لا يمثل انسجاماً طبقياً او ثقافياً، انما يتشكل من تكوينات اجتماعية مختلفة، وقد التقطت السينما التجارية حالة التبعثر هذه ورسخت تقاليد للمشاهدة تقوم على وجود دار عرض يدخل اليها الجهمور افراداً لا يجمع بينهم الا رابط الشاشة، وبالتالي يمثل العرض السينمائي مركزاً لما يسمى في علم النفس الجمهور المتدني. ويفتح هذا التكوين الباب امام اطلاق الغرائز المكبوتة، والتي لا تتاح لها فرص التعبير المنظم ومع ان هذا التقليد للمشاهدة ذو طابع عالمي الا انه في المجتمعات العربية يتسم بخصائص مميزة منها على سبيل المثال:

ـ الهروبية: اي محاولة الهروب من ثقله وضغوطه التي لا يستطيع الجمهور ان يواجهها .

الانفعالية والاندماج.. فالقهر الطويل المزمن يؤدي الى تراكم مفرط للانفعالات. وتمثل السينما التجارية مجالاً لتصريف هذه الانفعالات من خلال الاساليب الميلودرامية .

ومن ناحية الشكل التقطت السينما التجارية الاوضاع التعيسة للانسان المسحوق، واستخدمت قوالب فنية وجدت بعضها في الموروث الشعبي ذاته. مثل الشكل الحكائي من خلال ثيمات بسيطة خالية من الدراما كصراع معقد، واستخدام البطل النجم، وهو تجسيد لفكرة البطل الشعبي كتعويض عن عجز الجماهير وغيرها من القوالب التي حاولت بها السينما التجارية غزو الجماهير ومن داخلها .

○ **هاشم النحاس**: لا زلت ارى ان العلاقة بين الجمهور والسينما السائدة في حاجة الى مباحث مطولة..وربما نحتاج الى جهود علماء الاجتماع والنفس في هذا المجال .

● **سيد سعيد**: ننتقل اذن الى النقطة الثالثة من موضوعنا، وهي المحاولات التي تمت لتجاوز السينما السائدة.. وتقويمها للاسترشاد بها عند التفكير في مستقبل السينما العربية .

محاولات تجاوز السينما السائدة

○ **مصطفى دوريش**: لا يسع المرء عندما يتعرض لمحاولات التحرر من شروط السينما السائد الا ان يذكر دور القطاع العام في السينما. سواء في مصر او العراق بالاضافة الى انجح المحاولات في هذا المجال في الجزائر. ثم حدثت نكسة مصر، وكان من ارهاصاتها تجربة جماعة السينما الجديدة كتجربة متميزة في الوطن العربي. وربما كان الخوف من تطور هذا الاتجاه في السينما المصرية هو الذي دعا التحالف الفاسد الذي ذكرناه الى الاسراع في التطويق والاجهاز على القطاع العام في مصر. وبالطبع تم استغلال الاخطاء الادارية والتنظيمية، وعدم وضوح المنهج في الاطاحة به، ذلك ان دور العرض كانت غير مؤممة،فأصبحت قطاعاً عاماً اعرج ومعوقاً،وكوادره غير صالحة.رغم هذا فقد كنت ولا زلت ارى ان اي محاولة لعمل سينما بديلة وفي ظروف مثل ظروف بلادنا لا تتم من خلال قطاع عام مؤسس تأسيساً اقتصادياً وعلمياً وبشكل قوي فإن مصيرها الفشل، اذ انه لا يمكن من خلال البناء الاقتصادي الحالي للسينما، ومن خلال التكامل الفاسد، وفي ظل ظروف التجزئة العربية ان يقوم تيار جديد في السينما العربية، يفرض نفسه ليصل الى الجماهير العربية، وتكون له صفة الاستمرارية والتنامي.. وانما ستظل محاولات مبعثرة تحدث دوامة في الماء الراكد سرعان ما تنتهي ويعود الركود الى ما كان عليه. ان لم تتجمع السينما العربية في الوطن العربي، ومن خلال بناء اقتصادي قوي يوفره لها قطاع عام كامل متكامل.. فلا امل .

○ **هاشم النحاس**: الحقيقة ان المطالبة بعودة القطاع العام او الاعتماد على وجود قطاع عام في السينما كشرط لوجود سينما متحررة من شروط السينما السائدة امر يشوبه بعض الحذر.. ففي تجربة القطاع العام في مصر، ورغم انتاج عدد من الافلام الجيدة. الا ان القطاع العام في مصر، ساهم في تدعيم السينما السائدة، بل دخل السوق منافساً لها بكمية هائلة من الافلام الرديئة، وكلنا يعرف ما سمي بافلام حرف (ب)، (ج) هذا من ناحية، ومن الناحية الاخرى، فكلنا نعلم ان وجود قطاع عام سينمائي تحت سيطرة الدولة وفي ظل انظمة ذات طبيعة قمعية ومهيمنة، سوف يعرقل ويمنع اي تجربة ذات فاعلية في التحرر الفعلي للفنان، وانا بالطبع لست ضد وجود قطاع عام في السينما، ولكن يجب الاّ يكون المسؤول الوحيد عن الانتاج في السينما، فمن الممكن ان تكون الدولة مدعمة للانتاج بشكل او بآخر.. ولكن تترك الفرصة ايضاً لاصحاب المبادرات ان يشاركوا في تنمية هذا الفن، واعتقد ايضاً ان المسؤولية يجب ان تعود الى المثقفين في هذا المجال .

○ **كمال رمزي**: اريد ان اشير الى بعض التجارب او المحاولات الفردية لتجاوز السينما السائدة،

وعمل سينما بديلة خصوصاً في بعض بلاد المغرب العربي كتونس، ربما احالتنا الى المنطقة الرمادية التي تحدث عنها د. سعد الدين ابراهيم، ومع ملاحظة ان عدد من المبدعين، وهم يفكرون في هذه البدائل يفكرون في الناقد الاوروبي، وفي المهرجانات الاوروبية، لذلك يحاولون أن يصبغوا افلامهم، والقضايا التي يعالجونها بشكل من اشكال العالمية في الطرح. اقول انه رغم ذلك فإن ثمة مخرجين وافلاماً اخرى عبرت عن هموم شعوبها، وقدمت رؤية نقدية بناءة لواقعها، وهذه المحاولات الفردية مهمة جداً في تنمية السينما البديلة وحتى في مصر ثمة تجارب فردية، وتعاونية لم تأخذ الشكل الفردي ولكن الجماعة نفسها تأخذ شكلاً منفرداً. مجموعة من مخرج وكاتب سيناريو وممثل، يكونون جماعة انتاجية صغيرة تساهم في الخروج من الشروط المفروضة على السينما، مثل المجموعة التي انتجت فيلم «الحريف»، وثمة تجارب مماثلة هنا وهناك.. ولكنها مبعثرة ولم تستطع ان تكون تياراً او تيارات مؤثرة... ولكنها على اي حال تساهم في عملية التراكم.. لو تعددت هذه التجارب وتنوعت صيغها الانتاجية والابداعية.. فإنها على الاقل سوف تسهم باعتبارها تجارب يمكن الاستفادة منها عند التفكير في الصيغ البديلة.

○ **ماجدة واصف**: في الحقيقة، السينما البديلة في هذا الاطار تكاد تكون حلماً مستحيل التحقق لأن التمويل ليس عملية تجميع بعض الاموال لانتاج فيلم يحل مشكلة هذا المبدع او ذاك، عملية تمويل سينما بديلة يجب ان تتوافر لها شروط الاستمرار والا ستظل محاصرة ومبعثرة وغير ذات تأثير. ماذا نرى على الساحة في هذا المجال؟ الاخ كمال ذكر المحاولات الفردية في شمال افريقيا، تجارب من هذا النوع، يبذل المخرج جهداً كبيراً لانتاج فيلم وبأساليب فردية، يستطيع تمويله بشكل او بآخر، لكن عليه ان ينتظر عدة سنوات، ربما تطول ، لكي ينجح في تمويل فيلم آخر، وربما بمعجزة ذلك لأن الانتاج هنا ليس له قوام يسمح بعمل فيلم وتوزيعه ومن عائده يمكن تمويل فيلم آخر.. وهكذا.. واقصى ما يمكن لهذه الافلام من تأثير يتحقق من خلال المهرجانات، اذ لا تصل بعدها لأي مكان، ولدينا امثلة كثيرة، «كفر قاسم»، «شمس الضياع»، وغيرها. هذا بالاضافة الى انها لا تشكل سينما بديلة لا على المستوى الابداعي، ولا على مستوى الشكل الانتاجي. في الحقيقة السينما البديلة عبارة غامضة وهي غير موجودة على الساحة العربية .

○ **كمال رمزي**: لا .. هذه السينما البديلة موجودة من خلال المحاولات الفردية . لا استطيع أن اقول إن هذا ما نطمح اليه . ولكنها تستطيع ان تقوم بفعل التراكم الضروري للتغير نحو البديل الذي تتمناه . فنحن لا نستطيع ان ان نحقق البديل بقفزة .. وما أريد أن اضيفه هنا . ان الدافع العربي يفرز مخرجاً يبحث عن ابداعات جديدة مختلفة عن صياغات السينما السائدة. وكذلك كاتب سيناريو .. لدينا في الحقيقة كوادر تشكل مقومات إنشاء سينما مختلفة ولكن ينقصها **عنصران** ، عنصر التمويل ، وعنصر التوزيع ، اريد ان اقول ان علينا حل هذه الاشكالية . على سبيل المثال .. لو استطعنا ان نجد شكلاً من اشكال التعاون السينمائي . بين الطاقات البشرية الموزعة في الوطن العربي . يمكن ان تفتح نوافذ للتوزيع . فانها سوف تفتح ابوابا لجمهور جديد لهذه السينما .

● **سيد سعيد**: هناك تجربة مهمة حدثت في مصر في السنوات الاخيرة لم يشر اليها احد ، وهي انشاء اتحاد الفنانين **التعاونيين**. والذي استغل قانون التعاونيات في مصر . والتي لها طابع صناعي ومهني، اي الشكل التعاوني في الانتاج . وقد استثمر هذا الاتحاد التسهيلات التي تقدمها الدولة لمثل هذه الجمعيات التعاونية . كالاعفاءات من الجمارك على استيراد الخام والمعدات وغيرها .. وقد استطاعت الجمعية الوصول الى اتفاق بروتوكول مع العراق وتم انتاج فيلم رأفت الميهي « عيون لا

تنام » . الـذي اشترك في تمثيله ممثلون عراقيون . والجمعية تعتبر في حد ذاتها مؤسسة انتاجية تقوم بالتمويل والتوزيع والاستثمار. وقد حصلت على تسهيلات لبناء دور عرض في بعض المدن المصرية. ولولا الحرب العراقية ـ الايرانية لحصلت الجمعية على دفعة قوية.. انه نوع من التكامل العربي في مجال الانتاج كان في حاجة الى تطوير وتدعيم.. انا اشير اليها كتجربة ممكن دراستها .

○ **محمد سيد سعيد** : أريد أن اعلق على ما قيل بشأن دور القطاع العام في تبني سينما بديلة .. أقول : انه حتى في وجود دولة ديموقراطية ووطنية ، او حتى دولة ثورية .. فالدولة لن تحسم صراع الفنانين السينمائيين ، اعتقد ان هذا وهم ، الدولة في النهاية لن تأخذ جانباً من جوانب الصراع في حقل السينما الا الجانب الذي سوف ينتصر فعلاً . بمعنى ان السينمائيين عليهم ان يكسبوا معركتهم بالفعل قبل ان تأتي الدولة المستقبلة ، هذه مسألة ، المسألة الثانية هي في رأيي مسألة الحلول العبقرية التي يجب ان يبحث عنها السينمائيون لحل مشاكلهم ومن يريد ان يؤسس سينما مختلفة فعليه ان يبحث عن الامكانيات والاحتمالات المختلفة وكيف يمكن شق الطرق بوسائل متنوعة ، وتجربة مركز دراسات الوحدة العربية تجربة تفرض نفسها علينا كمثال يستحق الدراسة ، فهي تجربة تكاملية عربية ، وبعيدة تماما عن سيطرة السلطات الرسمية في البلاد العربية؛ وهي في الوقت نفسه مؤسسة ثقافية لها اساس اقتصادي يبحث لنفسه عن قوة ذاتية للاستمرار .. هذا ما اقصده بالحلول العبقرية .. فلنبحث مثلاً في امكانية طرح تكامل عربي سينمائي مقابل التكامل الفاسد والمعادي للتقدم . انها مهمة صعبة ، ولكن علينا أن نبدأ بها.

● **سيد سعيد** : من الواضح لدينا الآن انه ليس ثمة تجربة او نمط معين في السينما في الوطن العربي تستطيع ان تشير اليه وتقول هذا هو البديل .. فالسينما البديلة سوف تطرح نفسها بالتأكيد في مجتمع بديل . اي مغاير ، والصيغة البديلة في تصوري سواء على مستوى الانتاج أم في الشكل اي التجربة الابداعية ، ليست مسألة سهلة . ولا تتعلق فقط بالنيات او التوقف عند الوعي بضرورة التغيير ، وذلك لان السينما تختلف عن الفنون الاخرى من حيث اتساع شبكة علاقاتها . ومن ثم فان خلق الفيلم البديل مسألة نضال دؤوب وطويل لاختراق شبكة العلاقات القائمة وعبر مجابهات شرسة سوف تبديها عناصر السينما التقليدية .. وهذه المجابهة هي جزء من اشكال المجابهات على صعيد الواقع بأسره .

وفي ظروف التعقيدات التي يعيشها الوطن العربي ، وفي تصوري، على الفنان ان يستخدم كل ما هو ممكن عملياً من التجارب المطروحة والملائمة لشروط الواقع ، فالفنان لا يعمل في الشكل المطلق ، بل يعمل استجابة لضرورات الشكل السياسي . اي انعكاساً لهذا الشكل العام ، والفنان متقدم دائما ولكن تقدمه الى هذا الحد او ذاك مشروط ومحدد بشروط الوضع القائم وموقفه منه . ولدينا بالنسبة للواقع السينمائي العربي القائم القطاع العام ، والقطاع الخاص ، والتجارب الفردية في الانتاج . ثم الانتاج المشترك . وفي تصوري ان لكل منها هامشاً يمكن استثماره لصالح التراكم نحو خلق اتجاهات تغيير شاملة .

ومن الواضح اننا في مثل هذه الندوة لن نستطيع ان نلم بجميع اطراف الموضوع السينمائي العربي ، بالطبع لغياب اطراف عربية يمكن ان تثري هذه الندوة . ومن ثم لن نستطيع ان نقوم بطرح منافذ للخروج من الازمة بشكل محدد .. لكن اهم ما توصلنا اليه في تصوري انه لن يكون ثمة حل لمواجهة ما سميناه بالتكامل العربي الفاسد الا من خلال تكامل عربي صحيح ومتقدم .. ويمثل هذا

الطريق ـ اي تكتيل المهتمين والعاطفين على السينما البديلة في الوطن العربي باسره ـ تحدياً هائلاً امام الكوادر السينمائية المتقدمة من مختلف اقطار الوطن العربي ، وفي تصوري ان وجود مثل هذا التكامل التقدمي العربي في مجال السينما سوف يعد بحلول خلاقة لمشكلات هذه السينما البديلة . المهم هنا كيف نأخذ خطوة نحو هذا التكامل . وفي هذا المجال لا يسعني الا ان اهيب بمجلة « المستقبل العربي » وبمركز دراسات الوحدة العربية . باقتراح تنظيم مؤتمر عربي للتكامل السينمائي المطروح . يدعى اليه اطراف عربية من المشتغلين في مجال السينما ـ على غرار ندوة ازمة الديموقراطية ـ ذلك لبحث هذه النقطة بالذات « الطريق نحو تكامل عربي سينمائي». وانني على ثقة ان مثل هذا الاقتراح سوف يجد صداه لدى القائمين على مركز دراسات الوحدة العربية .. ومن الاطراف العربية التي يهمها هذا الأمر □

جمال حمدان

استراتيجية الاستعمار والتحرير

ط ١ (بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٣) ، ٤٣٩ ص .

مجدي زعبل

مقدمـــة

يقدم د. جمال حمدان لبحثه على انه دراسة في الجغرافيا السياسية بجانبيها التاريخي والمعاصر، ومن ثم فالدراسة تتتبع حركات بناء الامبراطوريات والتوسع الاستعماري عبر العصور عصراً بعد عصر، تحلل دوافعها ومحركاتها ، انماطها الجغرافية وصراعات القوى فيها او من حولها. ثم تستشف الدراسة من بعد، وتستنتج دروسها الجيواستراتيجية الاكثر خلوداً وبقاء . ونحن نعرض لهذا الكتاب المهم من خلال سياق يتضمن :

١ ـ رصد الخيط المحوري في هذا البناء المتسق، وهو نمو الامبراطوريات الاستعمارية المتعاقبة وانحدارها .

٢ ـ تحديد ابعاد الصراع الاستراتيجي ومكوناته التي حكمت ووجهت نمو هذه الامبراطوريات واضمحلالها .

٣ ـ ملاحظاتنا على الكتاب .

١ ـ في البدء حدد المؤلف مجموعة من معادلات الصراع بين قوى الطبيعة، التي غالباً ما تشكلت بشكل بيئتها الجغرافية .. فهو اما الصراع بين «الرمل والطين» او بين «الاستبس والغابة» او بين «الجبل والسهل» . وقد تتداخل هذه الصراعات كلها او بعضها في حالات، او تتعاقب في حالات اخرى، وكلها في النهاية صراع بين قوى بر وبر، اي صراع اشباه اكثر منه صراع اضداد. وعلى الماء كانت هناك صيغة اصيلة هي الصراع بين «البر والبحر». واذا كان صراع البر/ البر يشتعل من اجل «الموضع»، فإن صراع البحر / البر يذكيه الفوز بالموضع والموقع معاً. وقد تطلعت قوة البحر اول ما تطلعت، الى التوسع الاقليمي في الاراضي المقابلة او المجاورة، وبدأ بهذا خلق الامبراطوريات البحرية المترامية الشهيرة. وكانت اليونان اول مثل من هذا النوع حين توسعت عن دائرة العالم الايجي لتشمل غرب آسيا الصغرى واجزاء من ايطاليا وايبريا وشمال افريقيا وليبيا ومصر والشام والعراق. وبعد اليونان نجحت روما في خلق امبراطورية ارتكزت على البحر، ولكنها لم تلبث ان تغلغلت في البر حتى اصبحت الطرق الرومانية اخطر اثراً في هيكل شبكة الامبراطورية من الخطوط

البحرية. وامتد الصراع بين البر والبحر الى الاحتكاك والتصادم بقوى برية ضخمة متعمقة القاعدة، واكبر مثال على ذلك هو الصراع الذي دار سجالاً بين اثينا وفارس في حروب طروادة قروناً طويلة. وخطوة للامام، حين ننتقل الى العصور الوسطى التي تفتتحها الموجة العربية الكاسحة بانقلاب جذري في استراتيجية الصراع التاريخي، فقد خرج **عرب الاسلام** من قلب الجزيرة ليبنوا دولة لم تسبقها من قبل دولة في الامتداد والرقعة ، ولم تلحقها ، من بعد، الا امبراطوريات العصر الحديث. فمن اطراف الصين الى ابواب فرنسا ، ضمت دولة العرب شمال الهند ووسط آسيا وكل هضبة ايران الى جانب الوطن العربي بتحديده الحديث، مضافاً الى ذلك شبه جزيرة ايبريا الا قليلاً، وكادت تنتزع القسطنطينية لولا انها ارتدت في سنة ٧١٨ .

ويجادل كثير من الكتّاب الغربيين في لجاج مفهوم بأن هذه الدولة كانت «امبراطورية استعمارية»، والحقيقة ان الدولة العربية كانت امبراطورية تحريرية بكل معنى الكلمة. فهي التي حررت كل هذه المناطق من ربقة الاستعمار الروماني او الفارسي المتداعي واضطهاده الوثني وابتزازه المادي. وبعدها لم تعرف الدولة الجديدة عنصرية او حاجزاً لونياً او حاجزاً حضارياً، بل كانت وسطاً حضارياً مشاعاً للجميع. كيف امكن لهذه الدولة ان تقوم وتسبق زمانها ومكانها بقرون ؟ كيف انبثقت من قلب ميت في الصحراء؟ ولكي نستوعب هذه المعادلة الصعبة علينا ان نسلم، موضوعياً، بأن هناك حوافز وقوى ميتافيزيقية لا تستمد من الواقع المادي، بل تتخطاه . لا شك ان جذوة الحماس الديني المتقدة هي التي الهبت خيال المؤمنين حتى تحولت الى شعلة ملتهبة، وتحولوا بها الى مشعل مضيء. وكان وراء انهيار هذه **الامبراطورية**، عوامل داخلية تتمثل في ان ضخامة الدولة وفرط تراميها، كان عامل ضعف وتفكك، كما ان وجود الصحاري شكل فراغا اعاق الحركة، كما ان الدولة كانت تجنح في الاستطالة وتفرط نسبياً في العمق، مما عرضها الى التقصف والتمزق. وعوامل اخرى خارجية تتمثل في هجوم القوى الغربية عليها، متزامناً مع هجمات القوى البرية من وسط آسيا. وكانت الحروب الصليبية تعبيراً عن الفارق الحضاري والاجتماعي والمعيشي الشاسع بين الشرق العربي والغرب المسيحي، فبينما كان الاول في اوج عصره الذهبي كان الثاني في حضيض عصوره المظلمة .

كانت البداية بالامبراطورية اليونانية ثم الرومانية ثم الامبراطورية العربية، ونحن الآن امام **الامبراطورية العثمانية**. ففي الربع الاول من القرن الثالث عشر تجرثمت قوة الاتراك العثمانيين في شمال غرب الاناضول واتجه توسعهم غرباً في البلقان، وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت حدود الامبراطورية العثمانية في اوروبا قد وصلت من كرواتيا الى الدون الاسفل. وبعد البلقان، اتجهت الامبراطورية العثمانية الى الشرق العربي، واتجه الزحف الى مصر رأساً عن طريق سوريا. وفي نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بدأت الكشوف الجغرافية من البرتغال .وبها كانت الرغبة العارمة في انتزاع تجارة الشرق الثمينة من العرب والوصول الى جزر التوابل بالدوران حول اليابس، ورغبة اخرى بتطويق الاسلام وهي الرغبة التي اعطت **للاستعمار البرتغالي** نزعة كثلكية ومسحة صليبية. وفي مدى عقد واحد كان البرتغاليون قد داروا حول الكيب «دياز» ووصلوا الى الهند «جاما»، وينبغي التأكيد على ان توسع البرتغال تم على حساب العرب سواء تجارياً ام استراتيجياً. وقد كادت استراتيجية البرتغال ان تكتسح العرب من الباب الخلفي، وحاولت ان تطوقهم بكماشة فكاها هما المغرب وبحر العرب. وكان هذا ايذاناً بنهاية الدولة العربية، فبدأت

الانحدار الرهيب الذي سيجعلها بعد قليل فريسة للاستعمار العثماني. وعلى الرغم من ان القرن السادس عشر كان بلا منازع قرن سيطرة وتسيّد البرتغال واسبانيا، فإن الامبراطورية البرتغالية لم تعمر اكثر من جيل واخذت في التقلص والانكماش. ومن ناحية اخرى اهتبلت هولندا كقوة بحرية صاعدة فرصة تحطيم البرتغال على يد اسبانيا لترث دورها وتجارتها .

أ ـ الاستعمار الاسباني : كان خروج اسبانيا الى الكشف بعد التوحيد مباشرة، وكانت جزر الهند الغربية اول ما وطىء الاسبان، ومع كشف العالم الجديد كان لا بد من تنسيق السيادة بين اسبانيا والبرتغال. واذا كانت اركان الاستعمار البرتغالي هي التبشير والتجارة والاستعمار الاستراتيجي الساحلي، كانت اركان الاستعمار الاسباني هي التبشير والمعادن النفيسة والغزو والاستعمار الاستيطاني. وقد كان المنافس الاكبر لاسبانيا هو فرنسا ومثلما ضاعت امبراطورية اسبانيا في اوروبا ضاعت امبراطورية البرتغال في الشرق، وبدأ دور اسبانيا العسكري يؤول الى فرنسا مثلما آل دور البرتغال الى هولندا .

ب ـ الاستعمار الهولندي : كان القرن السابع عشر، بلا ريب، قرن هولندا حيث بدأت تنقض على المستعمرات البرتغالية (الاسبانية في وقت ما)، وقبل ان يمضي نصف قرن على الاستقلال، كانت هولندا في كل بحار العالم مسيطرة على تجارة البحار والمحيطات بالنقل البحري لكل اوروبا . ووقعت هولندا بين شقي رحى فرنسا على القارة وبريطانيا في البحر .

وكانت **فرنسا** قد استكملت وحدتها القومية في نهاية القرن الخامس عشر، لكنها لم تخرج الى البحر الا في القرن السابع عشر، وكانت سياستها موزعة بين هدفين: التوسع القاري شرقاً، وبناء قوة بحرية عظمى للتوسع عبر البحار. وعلى الرغم من ان فرنسا هي التي حطمت قوة هولندا، لكن بريطانيا هي التي ورثت دور هولندا التجاري. وفي اواخر القرن كان الفارق في القوة بين فرنسا وبريطانيا يزداد ضيقاً، الى ان كانت انتفاضة فرنسا نابليون بعد الثورة، وفيها وصلت السيادة الفرنسية في اوروبا الى قمتها، ولكن ايضاً الى نهايتها . فقد انتهى لمعان القوة الفرنسية وبريقها الشديد لتفسح فرنسا مكان الصدارة لبريطانيا. وبريطانيا التي لم تكن مهيأة لتخرج الى البحار حين الكشوف او بعدها ، حيث كانت السيادة للبرتغال واسبانيا، ثم لهولندا وفرنسا، وبقيت هي في منطقة الظل او شبه الظل. وكان كل ما تطمح اليه في هذه الفترة هو ان تحافظ على استقلالها في وجه اطماع القوى السائدة. وكانت كل خسائر هولندا وفرنسا تتحول لحساب بريطانيا مكاسب وارباحاً فإذا ما حطمت فرنسا هولندا نهائياً في اواخر القرن السابع عشر، كانت بريطانيا قد ورثت بالفعل موقع ودور هولندا، او بالاحرى موقع ودور البرتغال اي موقع ودور العرب القديم، اي دور مصر .

كانت تلك قصة الاستعمار وصراع القوى الاستعمارية الجديدة في الموجة الاولى للامبريالية في العصور الحديثة. ثمة موجة اخرى من الصراع في العصر الصناعي، كانت فرسانه الولايات المتحدة وبريطانيا ـ التي استطاعت في ظل الاستراتيجية البحرية المدرعة ان تصبح تاجر العالم الاول مثلما جعلها الانقلاب الصناعي مصنعه الاول ـ والمانيا واليابان . **والولايات المتحدة** مرت في توسعها في مراحل ثلاث : المرحلة القارية ـ مرحلة الهادي ـ مرحلة الكاريبي ، وخلال القرن التاسع عشر ظلت امريكا دولة زراعية ، حتى اذا ما كان القرن العشرون نجدنا ازاء اعظم واغنى دولة صناعية واضخم قوة حضارية حديثة. وسبب ذلك انها بدأت، حضارياً، من حيث انتهت اوروبا ، فأخذت عنها نقاط قوتها

وتخلصت من مواطن الضعف فيها. اما **اليابان** فكانت جيوبوليتيكيتها تدور حول طرد الاستعمار الاوروبي من آسيا، تحت شعار آسيا للآسيويين، لكي ترثه هي ، ولاجل هذا فقد دعت الى مبدأ «مونرو لليابان»، ولهذا الهدف دخلت اليابان الحرب مع المحور ضد الحلفاء . اما المانيا فقد ولدت عملاقة تتمتع بقاعدة ارضية ضخمة، لا تقل كثيراً عن فرنسا وتكاد تعادل ضعف بريطانيا. وكان على المانيا ان تواجه بريطانيا مباشرة ليبدأ صراع جبابرة يكرر نفسه. وكمقياس لقوة المانيا الذاتية، استطاعت ان تقف هي ومحورها في صف، والعالم بأسره في الصف الآخر، وفشلت المانيا في انتزاع السيادة العالمية من بريطانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية التي حسمت على يد الاتحاد السوفياتي . لقد حطم كل من المانيا وبريطانيا الآخر لتغتنم القوى الجديدة الصاعدة الفرصة ، وينتقل الصراع الى القوى الماموث (mammoth) «امريكا والاتحاد السوفياتي» .

يشترك الاتحاد السوفياتي مع الولايات المتحدة في ثلاث خصائص هي الاساس الشرطي لمقومات القوة في العصر الحديث : المساحة الضخمة المتصلة ، حجم السكان الكبير، الموارد الطبيعية الهائلة. كلاهما اشباه قارات جبارة، ويتجاوز كلاهما علامة المائتي مليون، والسكان في كل منهما عصبة امم كاملة. وتتشابهان ايضاً في ان كلاً منهما كان في عزلة طويلة.. فأمريكا في ظل مبدأ «مونرو» نأت بنفسها، عن عمد، عن التورط في مشاكل العالم القديم، اما الاتحاد السوفياتي، فلطالما ضربت اوروبا حوله نطاقاً صحياً(Cordon Sanitair) ايام القيصرية، فعاشت الدولة في شبه عزلة. بقيت الفروق والاختلافات الايديولوجية والاستراتيجية محوراً عميقاً للصراع والتناقض، فقد اتى الاتحاد السوفياتي بفلسفة شيوعية شاملة ضد الرأسمالية، ضد الطبقية ، ضد القومية، وعلى النقيض وقفت الولايات المتحدة كأعلى وأعتى رمز للرأسمالية الجامحة، واعتبرت هي وحليفاتها، ان الحرب على الشيوعية حرب صليبية وكفاح مقدس. وضم الاتحاد السوفياتي منذ بداية القرن التاسع عشر منافذ البلطيق، وحوّل دويلاته الى سوفيتات لا تتجزأ، بالاضافة الى قطاع ضخم من شرق بولندا ومعه دول شرق اوروبا : المانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا والمجر، ويلخص هذه الكتلة، سياسياً، حلف وارسو واقتصادياً «الكوميكون». وفي الجانب الآخر التأمت كل اوروبا الغربية تحت زعامة امريكا في كتلة مضادة، وكان الاحتواء او الاحاطة هو جوهر استراتيجية امريكا والغرب ضد الاتحاد السوفياتي، ومضمار هذه الاستراتيجية هو سلسلة متصلة من الحلقات والاحلاف العسكرية السياسية. انتهى بنا المطاف الى هذا الحد من رصد الامبراطوريات نمواً وانهياراً حتى وصلنا الى واقع الاستقطاب الثنائي بين القوتين العظميين .

٢ ـ هذا الرصد التاريخي تؤطره مجموعة من العوامل التي حكمته ووجهت مساره حيث تبلورت اعلى ازاته في قوتين تقتسمان صدارة العالم اليوم !

أ ـ ولد الاستعمار الحديث في حجر الكشوف الجغرافية ، لقد قلبت الكشوف استراتيجية العالم القديم من صميمها ، ومع اتساع ابعاد العالم اتسعت ابعاد الصراع .

ب ـ مع الانقلاب الصناعي « الثورة الصناعية » ، شهد العالم ثورة جذرية في النقل والمواصلات ، فتقلص العالم واختزلت المسافة ، واصبح العصر الصناعي مرادفاً للعصر الاستعماري . واذا كان الانقلاب التجاري هو الجد الاعلى للاستعمار الحديث فإن الانقلاب الصناعي هو ابوه المباشر .

ج ـ يعتبر منتصف القرن العشرين ـ بعد

نهاية الحرب العالمية الثانية ـ خط تقسيم جوهري وجبهة افتراق عميقة في التاريخ الحديث ، لا تقل خطراً أو مغزى عن الكشوف الجغرافية او الانقلاب الصناعي .

د ـ في النصف الثاني من هذا القرن شهد العالم عصر ذوبان الاستعمار عبر ثورة التحرير التي بدأت بالموجة الآسيوية ، تلتها قافلة الحرية العربية في الخمسينات . ومنذ ثورة يوليو / تموز « الأم » رصع الوطن العربي بنسل دافق من الثورات التحريرية تبدو كالاقمار حول الشمس . وانها مفارقة من التاريخ اشد اثارة مما سبق ، ان ما بناه الاستعمار في خمسة قرون هدمه التحرير في عقدين اثنين فبين سنتي ١٩٤٥ ، ١٩٦٥ هوت رقعة الاستعمار من ٣٥ بالمائة من مساحة العالم الى ٤ بالمائة . وتكتمل المسيرة التحررية بالقافلة الافريقية في الستينات .

هـ ـ وايضاً شهد العالم العصر النووي الذي اعلنت عن ميلاده مأساة هيروشيما ونغازاكي . ومع التوازن النووي بين المعسكرين ، اصبحت علاقة القوة بينهما علاقة « صد ورد check mate » « كش ملك » باترة محسومة ولا مفر فيها من الانصياع والصدوع بالامر والتراجع والانسحاب . وامام هذا التطور النووي المذهل تبدلت استراتيجية امريكا من الاحتكار والاحتواء في الاربعينات الى الردع الشامل في الخمسينات ، الى الرد المرن في الستينات ثم الوفاق في السبعينات .

و ـ وكانت هزيمة الولايات المتحدة في فييتنام تمثل فارقاً ضخماً في دورة حياتها الاستراتيجية .

ز ـ وفي معسكر التحرير كان لعدم الانحياز، كأول نبت للمناخ السياسي الجديد في عالم ما بعد التحرير والذرة، فعل الزناد او الشرارة، ومصر التي كانت قطباً رائداً في سياسة عدم الانحياز قادت المقاومة النضالية الثورية «في الحقبة الناصرية» لتسقط امامها سياسة الاحلاف الغربية في المنطقة، ويصبح الوطن العربي يمثل الحلقة المفقودة في استراتيجية التطويق والاحتواء .

ومثلما كانت حرب فييتنام هزيمة للعدو الامريكي واستراتيجيته، كانت هزيمة حزيران / يونيو ١٩٦٧ محاولة لتصفية الثورة الناصرية والقضاء على عدم لانحياز . كانت تلك اهم المحاور التي تمفصلت حولها حركة التبادل وصراع القوى الاستعمارية استراتيجياً .

والآن ننتقل الى القسم الثالث من العرض فنجمل بعض الملاحظات على الكتاب .

الملاحظة الاولى : يقرر المؤلف على انه يرتكز الى نظرية ماكيندر «الجغرافي السياسي الانكليزي» في معظم الحقائق والتفاصيل التاريخية الواردة في بحثه. ونظرية ماكيندر تقوم على رؤية للعالم القديم كقارة واحدة يتوسطها، اسماً وفعلاً، البحر المتوسط ودعاها الجزيرة العالمية، وهي جزيرة لها محور ارتكاز سماه الهارتلاند (Heart land)، وان شرق اوروبا هو مفتاح هذا الـ (هارتلاند). ومن ثم وصل الى معادلة شهيرة تقول : من يحكم شرق اوروبا يسيطر على الهارتلاند ، ومن يحكم الهارتلاند يسيطر على الجزيرة العالمية ، ومن يسيطر على الجزيرة العالمية يسيطر على العالم . ثم يركز على جوهر الصراع العالمي من العالم القديم حتى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، على انه صراع بين قوة البر وقوة البحر، بل يذهب المؤلف الى انها، اي نظرية ماكيندر، « بالاسقاط المستقبلي، يمكن دائماً ان تخضع للتحقيق والاختبار، فإذا ما نجحت يمكن ان تكون بوصلة للمستقبل ومؤشراً للتنبؤ الاستراتيجي»(ص ١٩٢). وهذا الكلام يحتاج الى وقفة .. فهو، **اولاً**، يعطي مساحة اوسع لفهم صراع القوى العالمية من منظور جغرافي بحت، ويقلص امامه عوامل

اخرى اشد تأثيراً من العامل الجغرافي، مثل العوامل القومية والتاريخية ودرجة التطور الحضاري والتقني للمجتمعات . وانه ، **ثانياً**، مع رؤية مبسطة لأخطر ما مر بالبشرية من حروب ونقصد بها الحرب العالمية الاولى والثانية، ولا نجد محلاً لأي تقدير لنظرية ماكيندر ، فلم يكن الصراع في اي منهما صراع قوى بر وقوى بحر، فلقد نشبت الحرب بين كتلتين ضمت كل منهما دولة او دولاً برية وبحرية وبرمائية .

وانه، **ثالثاً** ، على عكس ما ذهب اليه المؤلف، لم يكن الصراع بين فارس واليونان في العصور القديمة صراع قوى بر «الفرس» وقوى بحر «اليونان»، لأن الحروب التي دارت بينهما لم تبدأ الا بعد ان استولى الفرس على آسيا الصغرى وسيطروا على سواحل بحر ايجه، وانهم اي «الفرس» كانوا يملكون قوة بحرية ضخمة، وصاروا دولة برمائية فضلاً عن ان الاسطول الفارسي المهاجم في معركة «سلاميس» كان متفوقاً على الاسطول الفارسي . واخيراً ، وفي اطار نقد ما يسمى بصراع قوى البحر والبر لم يكن الصراع الدائر في نهاية القرن التاسع عشر بين معسكري «الاتفاق الثلاثي» و«الائتلاف الثلاثي» تعبيراً عن هذا الفهم لأن كل تكتل منهما ضم دولاً بحرية واخرى برية وبرمائية، بل انه عندما نشبت الحرب العالمية الاولى انفصلت ايطاليا عن دول «الاتفاق الثلاثي» وانضمت الى دول «الائتلاف»[١]. كل هذه الحقائق تُهمِّش الى حد كبير مقولة قوى البحر، وقوى البر. ومن هنا واذا كانت نظرية ماكيندر لم توفق في تحليل كل هذه الاحداث في الماضي، فنحن نتساءل مع د. حمدان كيف تبقى اذن «بوصلة للمستقبل ومؤشراً للتنبؤ الاستراتيجي » ؟

الملاحظة الثانية : في استعراض المؤلف لعناصر القوة الامريكية (ص ٣٧٨) ، يذكر ان الولايات المتحدة اول دولة تعرف لوناً جديداً من الفاشية هي«الفاشية المقنعة». وفي تقديري ان «الفاشية» كمبدأ وفلسفة لا يمكن ان تكون مقنعة ، وفي حالة الفاشية الامريكية بالذات لا توجد الا دلالاتها السافرة، ففي عهد كنيدي كانت هناك عملية غزو كوبا عن طريق خليج الخنازير وعملية قتل نجو ديم رئيس فيتنام الجنوبية. وفي عهد ايزنهاور كانت عملية غزو غواتيمالا والانقضاض على الثورة في الكونغو واغتيال باتريس لومبا الزعيم الوطني الكونغولي، وعملية تمزيق اندونيسيا. واما ترومان فقد ضرب اليابان بالقنابل الذرية قبل ان يبحث طلب الاستسلام الذي قدمته[٢]. وفي الستينات كان هناك حرب فييتنام وضرب الثورة العربية في مصر، وفي السبعينات كان هناك الانقضاض على شيلي وتثبيت نظام عسكري فاشستي عميل، ثم هناك اخيراً، التواطؤ الامريكي مع العدو الصهيوني في ضرب المقاومة الفلسطينية في جنوب لبنان .

الملاحظة الثالثة : ان البعد القومي في الكتاب باهت الى درجة كبيرة، والمرجح ان سيادة البعد الجغرافي في رؤية المؤلف هي السبب في ذلك. ففي حديثه عن الدولة العربية الاسلامية، تزاحمت المصطلحات الجغرافية . «لا شك ان الدولة العربية بدأت قوة بر.. «اما القطاعات البحرية الحاسمة في الكتلة العربية».. فبفضل قطاعاتها البرية العريضة... الخ ». ولم يكن هناك ما يؤكد على دور الاسلام في بلورة الشعور القومي للامة ، او حتى استعمال الواقع الجغرافي نفسه في خدمة هدف البلورة والتوحيد

---

(١) ساطع الحصري، **حول القومية العربية**، ط ٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦١)، ص ٢٣٧.

(٢) محمد حسنين هيكل، **نحن... وامريكا** (القاهرة: دار العصر الحديث، ١٩٦٧)، ص ٢٠ - ٢١.

القومي . ومن المعروف ان المنطقة العربية تمتاز او تتميز بانسيابية الارض وسهولة الانتقال عبرها ، الامر الاذي ساوى سهولة انسياب الفكرة والانتقال والتبادل التجاري والحضاري، وكلها عوامل ساهمت في عملية الانصهار القومي للامة العربية . هذا من جانب، من جانب آخر اسقط الافق القومي لثورة ٢٣ يوليو/ تموز ١٩٥٢ حين وصفها اكثر من مرة بـ «الثورةالمصرية» (ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤) . وجدير بالملاحظة ان ماكيندر نفسه في كتابه **المثل الديمقراطية وحقائقها** ، الذي نشره عام ١٩١٩ وضمّنه نظريته المعروفة تحدث في هذا الكتاب عن الجبال والمحيطات والصحاري والسهول ولم يذكر كلمة القومية الا مرة واحدة[٣].

الملاحظة الرابعة : عرّف المؤلف في (ص ١٣) الاستعمار على انه «سيطرة منظمة لجماعة على جماعة اخرى». ثم عاد وعرّف الاستعمار في (ص ٤٥) «الاستعمار هو في التحليل الاخير سيطرة حضارة راقية على حضارة متخلفة». واذا سلمنا بعدم وجود تناقض ـ جدلاً ـ بين التعريفين، واذا حاولنا ان ننسج منهما تعريفاً واحداً للاستعمار يصبح «الاستعمار في التحليل الاخير يعني سيطرة منظمة لجماعة ذات حضارة راقية على جماعة اخرى ذات حضارة متخلفة». وفي حدود هذا التعريف لا نجد ما يؤيد هذا الكلام بين سطور الكتاب، بل العكس هو الصحيح.. لقد كان الاستعمار التركي للوطن العربي اثباتاً مخالفاً لهذا التعريف، فقد كان الاتراك قوماً محاربين يفتقرون للخلفية الحضارية، في الوقت الذي كان فيه الوطن العربي في مستوى نظيره الاوروبي[٤]. وكانت المعرفة العربية تضيء ظلام اوروبا، وعلى اسسها قامت النهضة الاوروبية. ولم يكن الهكسوس قوماً ذوي حضارة، لذلك عجزوا في ان يطبعوا الحضارة النيلية بطابعهم، وانتهوا سريعاً بالتمصر[٥]. وباعتراف المؤلف لم تكن الصليبيات الاّ درساً حضارياً لاوروبا، فقد كانت احتكاكاً بين الشرق المتقدم والغرب المتخلف، وايضاً كانت موجة «الهون» من اعتى ما تعرضت له روما واكثرها تخريباً وتدميراً . وكرد فعل لهذه الموجة المخربة تحالف الفرانك والقوط والرومان ونما بينهم وعي قومي. ومن المؤكد ان نمو الوعي القومي هو قيمة حضارية بكل المقاييس. ان الاستعمار في جوهره وفي اي شكل من اشكاله، لا يمكن ان يعبر بأي درجة من الدرجات عن اي معنى حضاري .

ومهما يكن فالكتاب قيمة عظيمة للمكتبة العربية، وعذراً ان كان العرض لم يفه حقه فهو ضخم باكثر من مقياس ويحتويْ على ٤٥٠ صفحة من القطع الكبير نسجه المؤلف ـ كالعادة ـ في صياغة متألقة وبناء متسق، الامر الذي جعل العرض مهمة صعبة □

---

(٣) الحصري، **حول القومية العربية** .

(٤) عوني فرسخ، «حول التاريخ والهوية في الوطن العربي (٣)»،**المستقبل العربي**، السنة ٦،العدد ٥١ (ايار / مايو ١٩٨٣)، ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٥) محمود كامل، **الدولة العربية الكبرى** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩)، ص ٦٦.

محمد السيد سليم

التحليل السياسي الناصري :

دراسة في العقائد والسياسة الخارجية

(بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٣) ، ٣٩٥ ص .

د . عبد المنعم المشاط

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة القاهرة .

في اطار الدراسات العلمية الجادة التي يقدمها لنا **مركز دراسات الوحدة العربية** يقع هذا الكتاب الذي ألفه د . محمد السيد سليم مدرس العلوم السياسية بجامعة القاهرة ، كعلامة مميزة لاهتمامات المركز وحرصه على تقديم الجديد والجيد للقارىء العربي . وتتنوع مصادر أهمية هذا الكتاب والذي يغطي ما يناهز اربعمائة صفحة .

فمن الناحية المنهاجية يقدم المؤلف منهجاً متميزاً في دراسة النسق العقيدي لجمال عبدالناصر ، وهو ما يعرف بالنهج الاجرائي « Operational Code » والذي يمكن تعميمه على مختلف صانعي القرار في المنطقة العربية . ان أهمية هذا الموضوع تنبع ـ طبقاً لرؤية المؤلف ـ من اعتبارين أساسيين **الاول** : يتعلق بالدور السباسي التاريخي الذي لعبه جمال عبدالناصر في بناء مصر المعاصرة وتغيير مسار الاحداث في المنطقة العربية . وهكذا يصير من الضروري استخدام اسلوب التحليل العلمي الدقيق في تبيّن الاطار الصحيح للخبرة الناصرية سواء على مستوى المفاهيم السياسية او مستوى الممارسة الواقعية .

الثاني : الخلاف النظري في الادب السياسي حول دور الفرد صانع القرار في صنع السياسة العامة للدولة فبينما يرى فريق من الباحثين بان دور الفرد محدود ومن ثم فان تحليل عقائد صانع القرار لا يساعدنا كثيراً على فهم السياسات العامة ، غير ان فريقا آخر يرى ان تلك العقائد والرؤى تلعب دوراً حاسماً في صياغة السياسات والقرارات .

ويدلل انصار الرأي الاول على وجهة نظرهم بأن السياسة الخارجية هي عملية هيكلية بالأساس وبأن خصائص القيادات السياسية تلغي بعضها البعض ، وبأن الموقف السياسي يفرض على القادة السياسيين اتباع سلوكيات متشابهة بصرف النظر عن العقائد السياسية لكل منهم .

بينما يؤكد أنصار الاتجاه الثاني ان الدراسات الامبريقية تشير الى اهمية دور صانعي القرار في صياغة السياسة الخارجية خصوصاً في ظروف معيّنة وبصورة اخص في الدول النامية . ومما يزيد من أهمية هذا الكتاب أيضاً أنه يحاول إجابة سؤال مهم يدور حول دور الفرد في صنع السياسة في حالة غياب المؤسسات

السياسية المسؤولة عن هذه السياسة ومدى اتسام هذه السياسة بالرشادة والفاعلية . ومما لا شك فيه أن هذا السؤال والاجابة عنه تلقى اهتماما واسعاً بخاصة لدى الرأي العام .

ينقسم الكتاب الى **ثلاثة** اقسام ، يتناول **الاول** الاطار النظري والادوات التحليلية ، ويبدأ بمناقشة الأنساق العقيدية والسياسة الخارجية ، والاطار التحليلي للنسق العقيدي ثم ادوات التحليل المستخدمة .

ويعرض **القسم الثاني** للنسق العقيدي الناصري بدءاً بالسنوات التكوينية (١٩٥٣ـ ١٩٥٦) ومرحلة التحول الثوري (١٩٥٧ ـ ١٩٦٧) وفي سنوات النكسة (١٩٦٧ ـ ١٩٧٠) ثم يتعرض للتحليل الهيكلي للنسق العقيدي الناصري .

ويعرض **القسم الثالث** لقرارات السياسة الخارجية في الفترة الناصرية فيتناول كيفية اتخاذ القرارات ، ثم دراسة قرارات بعينها وهي قرار تأميم شركة قناة السويس عام ١٩٥٦ ، والقرار السوري عام ١٩٦١ وقرارات الأزمة العربية الاسرائيلية عام ١٩٦٧ . ويعرض المؤلف في الخاتمة بعض النتائج المهمة التي يستقيها من التحليل السابق .

يبدأ الجزء النظري بالتأكيد على أن الانسان يحتاج الى تصور معين للبيئة حتى يمكنه التعامل معها ، هذا التصور ينشأ في اطار ما يسمى بالعملية العقيدية والتي تسهم في تكوين النسق العقيدي أو النظام العقائدي للفرد belief system . ان هذا النظام العقائدي يساعد الفرد على استيعاب المعلومات ومساعدته على الاختيار واتخاذ القرار . وفي العادة يتخذ الفرد قراراته بناء على نسق المعلومات من جانب ـ اي مقدار المعلومات المتوافرة ـ فضلاً عن النسق العقائدي من جانب آخر . بيد أنه في بعض الحالات يلجأ الفرد الى اتخاذ القرار اعتماداً على النسق العقائدي وحده ، ويطلق على هذه الحالة « النسق الواحد للاختيار » . من الحالات التي يستخدم فيها النسق الواحد للاختيار ، المواقف الجديدة ، والمواقف التي تتسم بالغموض ، واخيرا مواقف القلق والاجهاد النفسي . هذه الحالات الثلاث تخلق معا الطبيعة غير اليقينية للسياسة الخارجية . فالسياسة الخارجية تتميز بعدم اليقين في حالات ثلاث : غموض البيئة الدولية ، الضغوط النفسية في البيئة الدولية وأخيرا الازمات الدولية . في هذه الحالات يعتمد صانع القرار بصفة أساسية على النسق العقائدي الذاتي في التعامل مع تلك المواقف .

ويقترح المؤلف منهجاً يعرف بالنهج الاجرائي The Operational Code لبناء النسق العقائدي لجمال عبد الناصر . ويتكون هذا النهج من قسمين من العقائد :

أ ـ عقائد فلسفية تحاول الاجابة عن اسئلة تتعلق بطبيعة الحياة السياسية واحتمالات تحقيق الاهداف وامكانات التنبؤ ، ومدى القدرة على التحكم في التطور التاريخي فضلاً عن دور المصادفة في الحياة البشرية .

ب ـ عقائد أدائية : تتعلق بالمسلك الامثل لاختيار الاهداف ، ولتحقيقها ، وحساب المخاطرة السياسية وضبطها فضلاً عن التوقيت الأمثل للسلوك السياسي .

ان تلك العقائد تؤثر في كيفية فهم القائد السياسي للمواقف ، واستعداده لاختيار بديل ما عند اتخاذ القرار . وتعود أهمية هذا النهج الى بساطته وامكانية تعميمه ، كما ان المخابرات المركزية الامريكية قد استخدمته كأداة لدراسة القادة السياسيين في الدول الاخرى .

مما لا شك فيه أن مدى الدقة والبساطة المتعلقة بهذا النهج انما تتوقف على ادوات

التحليل المستخدمة في تحليل الانساق العقائدية للقادة .

وقد اعتمد المؤلف في تحليل وبناء النسق العقيدي الناصري على الوثائق المعلنة للرئيس جمال عبدالناصر والتي بلغ مجموعها ٧٦٤ وثيقة ، اجرى عليها تحليل مضمون كمياً . وتمثل تلك الوثائق المستخدمة ٦٨ بالمائة من الوثائق الناصرية المعلنة : وتتوزع تلك الوثائق بين الخطب (٥٣٤) والخطابات (١٤) ومحاضر الجلسات (٤٦) والمقالات (١٧) والمناقشات الخاصة (٧) .

وقد تم تقسيم تلك الوثائق الى فقرات ، وحاول المؤلف اكتشاف العقائد الفلسفية والأدائية في كل فقرة من خلال المقاييس الاسمية التالية :

أ ـ العقائد الفلسفية : وتضم :

١ ـ طبيعة العالم السياسي : هل هو صراعي ام تعاوني ؟ وما هي مصادر الصراع وشروط التعاون ؟

٢ ـ طبيعة العدو السياسي : هل يتميز بطبيعة تدميرية أم انه توسعي أم مجرد عدوّ عدوانيّ أم أنه ذو طبيعة دفاعية ، توفيقية ، سلامية ..؟؟

٣ ـ خصائص النظام الدولي : وما اذا كان صراعياً أم تعاونياً ، وما هي مصادر الصراع الدولي ، وشكل النظام الدولي ومدى استقراره ، ودور الدولة في النظام الدولي ؟

٤ ـ التفاؤل السياسي : ما هو نطاق التفاؤل ، وشروطه ، والنظرة الى عنصر الوقت (الزمن) ؟

٥ ـ قابلية الحياة السياسية للتنبؤ : ما هي درجة التنبؤ في الحياة السياسية ومجالات التنبؤ ؟

٦ ـ دور القائد السياسي في الحياة السياسية ، ومدى تأثيره في العملية السياسية ، ومدى انفراده او تعاونه مع قوى سياسية اخرى .

ب ـ العقائد الأدائية : **وتمثل** :

١ ـ منهج اختيار الاهداف السياسية : هل يختار القائد اهدافاً سياسية قصوى ام أهدافاً ممكنة ؟ وما مدى التكامل أو التعارض بين الاهداف ، ومدى ثبات او تغير الاهداف ؟

٢ ـ مناهج تحقيق الأهداف السياسية . وما اذا كان يجب الاعداد الدقيق لها ، أم اتباع منهج المحاولة والخطأ .

٣ ـ الاستراتيجية السياسية : بمعنى اي نوع من الاستراتيجية ينبغي اتباعه ، هجومية ، تدميرية ، ام دفاعية .... ؟

٤ ـ المخاطرة السياسية : هل يمكن تحمّل المخاطرة ام يجب الابتعاد عنها ؟ واذا تم اتخاذ قرار بتحمل المخاطرة ، فما هي السياسات التي يمكن تفضيلها على غيرها ؟

٥ ـ التوقيت السياسي : هل يعتبر التوقيت مهماً ، أم انه لا يؤثر على طبيعة السلوك ؟

٦ ـ التكتيك السياسي : هل يتصرف القائد السياسي بسرعة أم عليه أن يؤخر سلوكه حتى يضمن النجاح ؟

٧ ـ وظيفة القوة العسكرية : هل هي الاداة الوحيدة للتعامل السياسي الدولي أم أنه يتعين تفاديها ؟ ام أنها أداة مفيدة يمكن اللجوء اليها ؟ وما هو مفهوم القوة وأسلوب استخدامها ؟

يتلو ذلك ، مرحلة تحديد ما اذا كانت الفقرات الواردة في الوثائق المشار اليها تتضمن اجابات عن تلك الاسئلة الموزعة ما بين العقائد الفلسفية والعقائد الأدائية .

وقد اجرى المؤلف عدة اختبارات احصائية للتأكد من صدق المفاهيم بين مختلف الوثائق

سواء كانت علنية ، تلقائية مجهزة سلفا ، حوارية ، لا حوارية ، ذاتية ام كتبها آخرون ، وثائق موجهة الى جمهور محلي ، ام جمهور اجنبي ، ام وثائق موجهة الى جماهير وأخرى الى مثقفين .

وقد لوحظ بعد اجراء اختبارات الصدق كافة أن عقائد النهج الاجرائي الناصري كانت متسقة وانماط المستمعين ، مما يؤكد وجود نسق عقائدي خاص للرئيس عبدالناصر .

يتناول القسم الثاني من الكتاب تحليل النسق العقائدي الناصري في ثلاث فترات تاريخية : من تموز / يوليو ١٩٥٢ ـ كانون الاول / ديسمبر ١٩٥٦ ، ومن كانون الثاني / يناير ١٩٥٧ ـ ١٩٦٧ ، وتمتد الفترة الثالثة ما بين ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠ . اعتمد المؤلف في التقسيم السابق على ازمتي ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ باعتبارهما تشكلان منعطفين حاسمين في حياة عبدالناصر السياسية .

في الفترة الاولى (١٩٥٢ ـ ١٩٥٦) وهي تمثل السنوات التكوينية للنسق العقائدي . تميزت رؤية عبدالناصر للحياة السياسية بالوضوح ؛ فقد تصور ان جوهر العملية السياسية يكمن في الصراع الاجتماعي والنضال المستمر من أجل التغيير السياسي والاجتماعي . وفي مجال السياسة الخارجية نجد انه في تلك المرحلة لم ينظر عبدالناصر الى الصراع العربي ـ الاسرائيلي كأحدى اولويات سياسته الخارجية ، فقد دارت معظم عقائده السياسية حول قضية جلاء القوات البريطانية من منطقة قناة السويس ، وقضية التعامل مع قوى المعارضة الداخلية . ومنذ عام ١٩٥٥ ، أصبح عبدالناصر ينظر الى اسرائيل والصهيونية نظرة سلبية حين رأى « ان المعركة بيننا وبين الصهيونية لم تنته بعد، بل لعلها لم تبدأ بعد ، فإن لنا ولها غدا قريباً أو غدا بعيدا ، نغسل فيه عاراً ، ونحقق امنية، ونسترد حقاً». وقد رأى عبدالناصر ان هدف الاستعمار والصهيونية معاً إنما يكمن في ازالة القومية العربية . وكانت اسرائيل ـ في النسق العقيدي الناصري ـ صنيعة وأداة للاستعمار الغربي . فقد قال عام ١٩٥٦ « حاول الاستعمار بكل وسيلة من الوسائل ان يضعف قوميتنا وان يضعف عروبتنا وان يفرق بيننا ، فخلق اسرائيل صنيعة الاستعمار » . كما رأى في العام نفسه بان « النتيجة المستخلصة من العدوان البريطاني / الفرنسي / الاسرائيلي هي : اولا : ان اسرائيل تعتبر منطقة وثوب يستخدمها الاستعمار » .

وفيما يتعلق بالنظام الدولي ، نظر عبدالناصر إليه باعتباره نظاما ثنائياً ينقسم الى « دول الستار الحديدي تحت السيطرة الشيوعية ، ودول الغرب تحت الاستعمار » فهو نظام يدور حول ظاهرة الحرب الباردة بين الشيوعية والرأسمالية . اما الصراع الدولي ، فقد رآه عبدالناصر صراعاً بين العرب من ناحية ، والاستعمار والشيوعية والصهيونية من ناحية اخرى . وان كان الصراع المركزي يدور بين العرب وبين الاستعمار الغربي .

وقد نظر عبدالناصر الى دور مصر كدور قيادي قوامه الدفاع عن المنطقة ، والسعي نحو تكامل البلدان العربية . فقد ذكر عام ١٩٥٤ انه « يجب ان تكون الهند محور اي نظام للدفاع عن آسيا والشرق الأقصى وينبغي ان تقوم مصر بالدور ذاته فيما يتعلق بالدفاع عن الشرق الاوسط » ، واضاف عام ١٩٥٥ بأن « سياستنا العربية تهدف الى جمع شمل العرب بجعلهم أمة واحدة ، بل أسرة واحدة » ، ولهذا يجب ان تؤكد مصر على استقلالها وترفض الانحياز لأي قوة اجنبية « ان مصر ستعمل على تعزيز استقلالها ، وان مصر لن تقبل ابداً أن تكون مناطق نفوذ لأية دولة أجنبية » .

وقد نظر عبد الناصر ، الذي اتسم بالتفاؤل في تلك الفترة ـ الى القائد السياسي كوسيط سياسي ، لا يستطيع أن يضبط التطور الاجتماعي ـ التاريخي ، ولكنه يستطيع ان

يتدخل للاقلال من الآثار السلبية للتطور . وهكذا فقد شبه القائد بالمرشد العام ، وبحكم المباراة ، وقد تغيرت تلك النظرة بعد عام ١٩٥٥ ، حين ادرك عبد الناصر ان دوره يتحدد كشريك في العملية السياسية والاجتماعية ، إذ يجب عليه التدخل لإنقاذ الطبقات المظلومة ، من الاستغلال والفساد والعبودية .

ومن جانب آخر ، فقد حدد عبدالناصر الاهداف السياسية في السيادة الكاملة ، والتنمية الاقتصادية ، والعدالة الاجتماعية ، وتوحيد العرب ، فضلاً عن تنفيذ قرارات الامم المتحدة المتعلقة بالقضية الفلسطينية .

لقد كان عبدالناصر هو أول حاكم مصري يؤكد على هوية مصر العربية ، في اطار الدائرة العربية ، ونظر الى الوطن العربي كمجال للأمن الوطني المصري بحيث أصبح « الوطن عندنا هو الوطن العربي قاطبة » . وكان من أهدافه بلورة نظام اقليمي عربي يتأسس على مفهوم المصلحة العربية . فقد ذكر عام ١٩٥٤ « ان مصر ستعمل على انشاء عالم عربي موحد .. نشعر ان هدفنا يجب ان يقوم على اساس انشاء العالم العربي وتوحيد اسرته ، بحيث تحتل المكان الجدير بها بين دول العالم » . كما اكّد ذلك عام ١٩٥٥ بقوله « إن سياستنا العربية تهدف الى جمع شمل العرب بجعلهم أمة واحدة بل أسرة واحدة ، لقد كان سبيلنا الى تحقيق هذا الهدف هو ان نلتزم ميثاق جامعة الدول العربية وقد كان ميثاق الضمان الجماعي تكميلا وتقويماً وتدعيماً لميثاق جامعة الدول العربية » .

أما الفترة الثانية (١٩٥٧-١٩٦٧)وهي فترة التحول الثوري ، فقد تميزت بعدم وجود قوات اجنبية على الارض المصرية ، وتمتعت فيها مصر بدور قيادي رئيسي على المستويين العربي والعالمي ، وتميزت مصر بالاستقرار الداخلي والتحول الثوري نحو الاشتراكية والتنمية الاقتصادية وبالهدوء النسبي على الحدود العربية / الاسرائيلية بخاصة بين مصر واسرائيل . كما برز عبدالناصر بعد ازمة السويس كبطل القومية العربية ، وقائد حركة التحرر العربية .

تميزت رؤية عبدالناصر للعلاقات البشرية والحياة السياسية بالطابع الهوبزي Hobbe-sian فالصراع ـ بالنسبة له ـ ظاهرة طبيعية وأساسية ودائمة وحتمية . وقد اهتم عبدالناصر بالصراع الطبقي والصراع الاقليمي . وعرّف الأول بأنه « التناقضات الطبقية التي تنشأ عن استغلال الطبقة المسيطرة للطبقات العاملة » ، اما الثاني فهو « الصراع بين العناصر الرجعية والعناصر التقدمية في العالم العربي » بالاضافة الى اشتمال هذا الصراع على اسرائيل والاستعمار كعناصر مضادة للإرادة العربية .

وقد رأى انه يمكن حلّ الصراع الطبقي بطريقين : زيادة الانتاج ، والتعاون بين الطبقات في اطار نظرة مشتركة للصالح العام للمجتمع بحيث لا تقضي طبقة على أخرى . ولكنه اضاف اداة اخرى ابتداء من عام ١٩٦١ وتتمثل في اقامة نظام اجتماعي جديد ، قوامه مجموعة من الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية كنقل السلطة الى تحالف قوى الشعب العامل ، وتذويب الفوارق بين الطبقات ، وتكافؤ الفرص ، وتطوير القوى الانتاجية والقوى السياسية الاشتراكية .

وقد ركز عبد الناصر ـ من جانب آخر ـ على أنّ الاستعمار الغربي هو العدوّ الرئيسي للأمة العربية ، وأن اسرائيل مجرد عميل استعماري « ان عدوّي وعدوّ أمتي هو الاستعمار والرجعية المتعاونة معهُ ، والقاعدة التي يتحفز منها لضرب آمالنا ، وهي اسرائيل » . لقد نظر عبدالناصر الى اسرائيل باعتبارها قاعدة للاستعمار الغربي ، وأداة للتخريب الاقليمي سواء لمحو القومية العربية والشعب الفلسطيني ، او تحويل المنطقة ما بين النيل والفرات الى وطن لليهود ، أو فرض تسوية سلمية قوامها إقرار الأمر الواقع وتحقيق الاهداف التاريخية ـ الايديولوجية

الصهيونية . ففي عام ١٩٥٩ ذكر عبدالناصر ان اسرائيل « قامت لتفصل العرب ، عرب آسيا عن عرب افريقيا ، ولتقضي على القومية العربية في فلسطين كمقدمة للقضاء على العرب وعلى قوميتهم في المنطقة الممتدة من النيل الى الفرات ، وهذا ليس حَدْساً او تخميناً او استنتاجاً ، ولكنه قيل بواسطة قادة اسرائيل ، لأنهم تكلموا عن مُلك اسرائيل الذي يمتد من النيل الى الفرات » ، وذكر في السنة نفسها « ان إقامة اسرائيل لم يكن الهدف منها ابداً هو إقامة وطن قومي لليهود ، ولكن كان هو ايضا مؤامرة بين الاستعمار وبين الصهيونية من اجل تفتيت القومية العربية والقضاء على الدول العربية » . وفيما يتعلق بالنظام الدولي ، رأى عبدالناصر أنه نظام يتسم بالصراع ، سواء كان صراعاً على مستوى قمة النظام ، او صراعاً ، ايديولوجياً او صراعاً اقتصادياً بين الشمال والجنوب ، او ما يتعلق بالأزمة التي يعانيها النظام الرأسمالي .

ومن جانب آخر ، فقد رأى عبدالناصر أن النظام الدولي نظام مركب من مجموعة من النظم الفرعية الاقليمية ذات العلاقة الوثيقة بالنظام العام .

وفيما يتعلق بدور مصر السياسي ، نجد ان النظام الاقليمي العربي كان يعتبر بمثابة المجال الرئيسي للسياسة الخارجية المصرية : فقد رأى عبدالناصر أن القومية العربية جزء اساسي من الامن القومي المصري . ونظر الى القومية العربية كمتغير لا غنى عنه لحماية الأمن المصري باعتبارها أداة دفاعية ضد المحاولات الاستعمارية للغزو ، ولحماية استقلال مصر السياسي . وفي إطار النظام العربي يمكن أن تلعب مصر دوراً قيادياً للدفاع عن العرب وتحريرهم ، فمصر يمكن أن تكون محوراً لأي نظام دفاع عن الشرق الاوسط . « الجمهورية العربية المتحدة تتحمل مسؤولياتها باعتبارها خط الدفاع الأول عن الامة العربية » .

يضاف الى ذلك ، ان مصر تضطلع في النظام العربي بدور قائد حركة التكامل العربي والتنمية العربية ، إضافة الى كونها نموذجاً اقليمياً للتنمية الاقتصادية الاشتراكية .

أما الاهداف التي حددها عبدالناصر في تلك الفترة فانها تتمثل في إقامة مجتمع ينهض على مبدأ المساواة ، بالإضافة الى إقرار السلام على الحدود المصرية الاسرائيلية ، والقضاء على النظم الرجعية العربية . وقد دعا الى ضرورة التوافق بين الاهداف الاساسية العربية ، والتأكيد على الوظيفة الجديدة كمسلك فعال لتحقيق التكامل العربي فضلاً عن التعبئة الشاملة والدفعة القومية كشرطين لتحقيق التنمية الشاملة .

ان هذه الفترة تعكس ثراء النسق العقائدي الناصري ، وتميزه بطابع راديكالي ، وإيمانه بالحتمية التاريخية في التطور في المنطقة العربية .

المرحلة الثالثة (١٩٦٧ ـ ١٩٧٠) تعكس النَّسق العقائدي في سنوات النكسة . وقد عاش عبدالناصر مرحلة قاسية من الاحساس بالمهانة وعدم تصديق ما حدث من هزيمة لصالح اسرائيل . بيد أن هذا الاحساس لم يستمر طويلا ، فقد تم اعادة بناء الجيش المصري ، والدخول في حرب الاستنزاف عام ١٩٦٩ ، ثم قبول مبادرة روجرز عام ١٩٦٩ ، وأخيراً عقد مؤتمر القمة العربي بالقاهرة لحل الازمة الفلسطينية الأردنية ١٩٧٠ .

نظر عبدالناصر الى الحياة السياسية على أنها تتسم بالصراع ، فالتناقضات الطبقية توجد في المجتمعات كافة ، كما أن الصراع بين الاستعمار من جانب ، وحركات التحرر الوطني من جانب آخر يسود داخل النظام الدولي .

وفيما يتعلق بالصراع العربي الاسرائيلي ، بدأ عبدالناصر ينظر الى اسرائيل بصفتها العدو الرئيسي والمباشر واستمر ينظر الى اسرائيل كأداة في يد المخطط الامريكي العالمي للسيطرة

على الشرق الأوسط وقلب النظم الثورية العربية ، ان تلك العلاقة بين اسرائيل والاستعمار الامريكي هي علاقة عضوية ومتعددة الابعاد ، وتعود الى المصالح الامريكية في السيطرة على المنطقة . وفي الوقت نفسه بدأ عبدالناصر يحد من انتقاداته للنظم العربية المحافظة ، وهكذا أصبح الصراع العربي ـ الاسرائيلي كعلاقة ثنائية طرفاها الاساسيان هما مصر وبقية العرب من ناحية ، واسرائيل والولايات المتحدة من جانب آخر .

وأصبحت أهداف عبدالناصر تتمثل في استعادة الأراضي العربية ، وتسوية المشكلة الفلسطينية وقد كان عبدالناصر يحاول المواءمة بين الأداة العسكرية ، والأدوات السلمية من أجل التوصل الى تحقيق هذين الهدفين .

ويمكن الاستنتاج ان فهم طبيعة العلاقة بين المنظور الناصري الصراعي والتاريخي للسياسة ، ومسلكه التعظيمي في اختيار الاهداف ، ومسلكه الحذر والتدريجي في تطبيق الاهداف ، أساس لفهم أسلوب الحساب السياسي لدى عبدالناصر بطريقة موضوعية .

في اطار النسق العقائدي الناصري ، يمكن التمييز بين خمسة أنساق عقيدية فرعية ، نسق « العدو الداخلي » ، ونسق « التنمية الاقتصادية ـ السياسية » ، النسق العقيدي « العربي » ، النسق العقيدي « العربي ـ الاسرائيلي » ، ونسق « السياسة الخارجية العامة » ، ويتميز النسق العربي ، والنسق العربي ـ الاسرائيلي بالتعقد والثراء ، والعقائد الأساسية التي تميز هذين النسقين هي تلك المتعلقة باختيار الهدف ، والمخاطرة السياسية ، والقوة العسكرية ، ففي النسق العقيدي العربي كان عبدالناصر مستعدا لقبول الاهداف الممكنة ، وبالذات فيما يتعلق بهدف تحقيق الوحدة العربية . فقد كان على استعداد لقبول هدف التعاون الاقتصادي والسياسي العربي ، بدلاً من هدف الوحدة الدستورية والذي يعني في الواقع الاعتراف بالتناقضات العربية . اما فيما يتعلق باسرائيل ، فلم يكن مستعدا إلا لقبول الهدف الأقصى وهو الاستعادة الكاملة لحقوق الشعب الفلسطيني . برغم ذلك ، فلم يقبل عبدالناصر على سياسات تحمل في طياتها طابع المخاطرة السياسية . ويتناول القسم الثالث من الكتاب قرارات السياسة الخارجية في الفترة الناصرية بهدف تَبيُّن مدى تأثير نسقه العقائدي على مضمون وأسلوب اتخاذ تلك القرارات . ويدرس المؤلف ثلاثة قرارات : قرار تأميم الشركة العالمية لقناة السويس ١٩٥٦ ، وقرار عدم التدخل العسكري في سوريا لاخماد الانفصال ١٩٦١ ، وقرارات أزمة أيار / مايو ـ حزيران / يونيو ١٩٦٧ .

وقد قدم المؤلف لهذه القرارات بدراسة مهمة حول اتخاذ القرارات السياسية الخارجية في الفترة الناصرية ، وقد تميزت عملية اتخاذ تلك القرارات بالمركزية الاقليمية والوظيفية ، وبحصرها في يد القائد ومجموعة محدودة من المساعدين ، وبضعف دور السُلطة التشريعية ، وبتزايد دور المؤسسة العسكرية ، فضلاً عن غياب خطوط اتصال فعالة بين أعضاء جهاز اتخاذ القرار ، يضاف الى ذلك ، تمتع عبدالناصر بسلطات شبه مطلقة في مجال اتخاذ قرار السياسة الخارجية .

وقد اتضح من تحليل قرار تأميم شركة قناة السويس ، ان القرار كان وارداً في تفكير عبدالناصر قبل اعلانه بفترة طويلة ، وأن تحدي بريطانيا والولايات المتحدة السافر لمشروعية نظام عبدالناصر في ١٩ يوليو (سحب العرض بالقرض لبناء السد العالي) ، كان هو الحافز الذي دفعه الى اتخاذ القرار ، وبدا القرار متوافقاً مع الحافز ومع العقائد الأساسية لعبدالناصر ، وكانت المعلومات المتاحة لعبدالناصر عن الاطراف الاخرى متسقة الى حد

كبير مع عقيدته حول امكانية قبول مخاطرة محدودة .

اما القرار الثاني ، والذي اتخذه عبدالناصر في ٥ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٦١ ، فهو يتعلق بأن يدع سوريا تختار بنفسها الطريق الذي تراه بشأن الانفصال عن دولة الوحدة . وقد كشف هذا القرار ، أن الانقلاب قد خلق موقفاً جعل من العقائد السياسية الأداة الوحيدة لاتخاذ القرار ؛ من جانب آخر ، فقد تصرف عبدالناصر بشكل يتوافق مع عقائده السياسية خصوصا ما يتعلق منها بالتعامل مع العدو ، وبمنهج تحقيق الوحدة العربية المبني على الاجماع والاختيار ، وتفادي استعمال القوة العسكرية في العلاقات العربية .

أما قرارات أزمة أيار / مايو ١٩٦٧ فهي تقود الى نتيجة مهمة تتعلق بوزن العقائد السياسية في القرار السياسي ، فبينما كانت قرارات التعبئة ، وسحب قوات الطوارىء ، والاحجام عن البدء بالضربة الأولى ، متسقة مع النسق العقائدي الناصري ، إلا أنّ قرار حصار الخليج لم يكن متسقاً تماماً مع تلك العقائد . فالضغوط الآتية من النظام العربي ، أجبرته على التخلي عن منهجه الحذر ، وقد ساعد على ذلك المعلومات الخاطئة التي تلقاها عن قدرة القوات المسلحة ، وسوء التقدير الكامن في عقائده عن استعداد اسرائيل لتحمل المخاطرة السياسية..

ويستنتج المؤلف من العرض السابق نتائج مهمة منها : أن النسق العقائدي الناصر يتأسس على طبيعة التوجه الفلسفي لعبدالناصر من جانب ، وصورته السلبية لأعدائه واستراتيجية الردع نحوهم من جانب آخر ، ان الايمان العقائدي لعبدالناصر يشكل نسقاً متميزاً وليس مجرد مجموعة عشوائية من العقائد . كما ان النسق العقائدي يتأثر بالمتغيرات البيئية والذاتية ، واتسمت قرارات السياسة الخارجية بالتركز الشديد في يد الرئيس نفسه ، وأخيراً ، فإن للعقائد السياسية للزعيم دور مهم وأساسي في رسم السياسة الخارجية واتخاذ القرارات السياسية الخارجية طالما تتسم السياسة الخارجية بعدم اليقين ، وبصعوبة التنبؤ .

ومما لا شك فيه ، أن هذا الكتاب ، وبالتحليل العلمي الدقيق الذي يحتوي عليه، يعد اسهاماً علمياً لا مراء فيه ، في تبيان هيكل وبنيان النظام العقائدي لجمال عبدالناصر ، وأنه يقدم اجابات منهجية دقيقة لبعض الأسئلة التي أثيرت في الكتابات العديدة التي حاولت تشريح عبدالناصر وفترة حكمه . خصوصاً تلك المتعلقة بالتناقض الشكلي أحياناً بين أقوال وتصريحات عبدالناصر ، وقراراته وسياساته العملية في مختلف المواقف . ويبقى لي بعض الملاحظات التي أتصور أنها يمكن أن تضيف الى أهمية هذا البحث ولا تنتقص منه :

أولاً : أحياناً يتّسم العرض بالوصف دون التحليل الدقيق للأسباب الموضوعية والعوامل الأساسية التي تدفع الى تبني سياسة دون أخرى . أو حتى في شرح السياسة التي تم الاقتناع الذهني والعقلي بها . فالحديث عن دور مركزي مصري من جانب عبدالناصر لا يمكن أن يفهم إلا اذا شرحنا القدرات أو الامكانات أو مقومات مثل هذا الدور (ص ١٥٩) .

ثانياً : استخدمت مصطلحات عديدة ومتباينة للتعبير عن المفهوم نفسه : فقد استخدم المؤلف مصطلح الأمن الوطني المصري (ص ١١٢) ، والأمن القومي المصري (ص ١٧٥) ، والأمن المصري (ص ١٧٥) للتعبير عن مفهوم واحد : لم يحدده أصلاً ، فهل يقصد بتلك المصطلحات الثلاثة معنى واحدا ؟ الأرجح أنه يقصد بها جميعا « الأمن القومي المصري » .

ثالثاً : أظن أنه من المفيد بالنسبة للمهتمين

والقـراء أن يقوم الأستـاذ المؤلف أو غيره من الباحثين العرب بدراسة مماثلة للنسق العقائدي للـرئيس السادات ومحـاولة مقـارنته بـالنسق العقائدي لعبدالناصر كيمـا يتسنى فهم التغير الـذي طرأ في تـوجهات السيـاسة الخـارجية المصـرية نحـو الأعـداء ونحـو الاصـدقـاء ، والتحالفات ، والدور القومي والسياسي لمصر .

رابعاً : لا شك ان مدلول النسق العقائدي لأي زعيم سياسي يكون اكثر وضوحاً إذا ما تم في اطـار تحليـل السلـوك السيـاسي للطبقـة أو الشريحة أو الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها أو يـرتبط بها الـزعيم السيـاسي . فـالحـركـة السياسية للفرد ترتبط بـالبيئة قـدر ارتباطهـا بالنسق العقائدي ، بل ان هذا النسق ذاته لا بد من أن يعكس تأثير البيئـة والمحيط بصورة أو بأخرى

وفي هذا الصدد ، فانّه قد يكون من المفيد في وصول هذا المنهج الى درجة التكامل المعرفي أن يتم الـربط بينه وبـين مناهـج اخرى كمنهـج التفاعلات الدولية International Interactions وهو المنهج الذي يرصد ويصف ويصور سلوك الدول . إن الجمع بين النسق العقائدي لصانع القرار وسلوك دولته الخارجي والداخلي سوف يعيننا على التنبؤ بمستقبل الحركة السياسيـة للقائد السياسي . ان أهمية هذا الكتاب تزداد بالنظر الى اعتبارين :

ـ أن المؤلف بذل جهداً كبيراً في التأكيد على حياده الأيديولوجي بـالصورة التي لم تفـرض نفسهـا على مسـار التحليل . وهكـذا تتأصـل الحجج التي يقدمها المؤلف دون انحياز فكري معين مما يرسخ المـوضوعيـة في التناول ، وفي النتائج .

ـ أن هذا الكتاب يقدم للجيل العربي الجديد نموذجاً فريداً من نماذج القيادات السيـاسية القومية ، وهو النموذج الناصري ، بخاصة إزاء قضيتي اسرائيل من جـانب ، والأمن القومي العربي من جانب . ان قراءة هذا الكتاب يمكن أن توضح لنا بجلاء الارتباط الوثيق بين شكل التعامل مع اسرائيل ، ومقدار الأمن القـومي العربي . ذلك أن الرؤية الناصرية لاسرائيـل بصفتها دولة امبريالية توسعية كان له أثر كبير في ربط الأمن المحـلي بالأمن القـومي العـربي العام . الخلاصة هي أنني أحيي هذا المجهود العلمي الراقي للدكتور محمد السيد سليم ، كما احيي كذلك **مركز دراسات الوحدة العربية** إنه بحق كتاب يجب ان يقرأ □

المؤتمر الاقليمي الثالث للمرأة في الخليج والجزيرة العربية

ابو ظبي، ٢٤ ـ ٢٧ آذار / مارس ١٩٨٤

د. حيدر ابراهيم علي

قسم الابحاث ـ كلية الآداب ـ
جامعة الامارات العربية المتحدة .

انعقد المؤتمر الاقليمي الثالث للمرأة في الخليج والجزيرة العربية تحت شعار «المرأة والعمل» في مدينة ابو ظبي بدولة الامارات العربية المتحدة في الفترة ٢٤ ـ ٢٧ آذار/ مارس ١٩٨٤ باشراف لجنة تنسيق العمل النسائي في الخليج والجزيرة العربية واستضافة الاتحاد النسائي لدولة الامارات العربية المتحدة. ويجيء المؤتمر عقب مبادرات الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية بالكويت ومن نتائجها المؤتمر الاول، نيسان/ ابريل ١٩٧٥ والمؤتمر الثاني آذار/ مارس ١٩٨١. وتأتي المؤتمرات خلال عقد التنمية للمرأة الذي أعلنته الامم المتحدة وسينتهي العام القادم .

شاركت في المؤتمر وفود الاتحادات والجمعيات النسائية في بلدان الخليج والجزيرة العربية، ودعيت بعض الاتحادات النسائية العربية والهيئات النسائية الاقليمية والدولية بصفة مراقب، كذلك الوزارات والهيئات الرسمية ذات الصلة بموضوع المرأة والعمل، بالاضافة للمهتمين بقضايا المرأة عامة من اساتذة جامعيين وباحثين وكتاب وصحافيين .

حسب برنامج المؤتمر يمكن تقسيم نشاط المؤتمر خلال انعقاده الى ثلاثة محاور هي :

اولاً: البحوث والدراسات والتعقيبات التي كلف بها بعض المختصين .

ثانياً: تقارير وفود بلدان الخليج والجزيرة العربية بتركيز على دور المرأة في العمل واستعراض بعض التشريعات والقوانين الخاصة بعمل المرأة .

ثالثاً: مناقشة مشروع النظام الاساسي للجنة تنسيق العمل النسائي في الخليج والجزيرة العربية .

خُصص اليومان الاوّلان بصورة كاملة للدراسات والنقاش ، رغم ان بعض البحوث القيت في اليوم الاخير. وفي صباح السبت ٢٤ آذار / مارس ١٩٨٤ افتتح المؤتمر رسمياً بكلمات رئيس الدولة ورئيسة المؤتمر بالانابة ورئيسة لجنة التنسيق وممثلة الامم المتحدة والامينة العامة المساعدة للاتحاد النسائي العربي العام. ثم بدأت الجلسات التي حفلت بالموضوعات والتعقيبات التالية :

السبت ٢٤ آذار/ مارس ١٩٨٤: الجلسة الاولى

- «المساهمة الاقتصادية للمرأة العربية - قياس عمل المرأة» .

اعداد: د. اميمة الدهان

تعقيب: د. موضي الحمود

- «المرأة الكويتية ودورها في مجال العمل».

اعداد: السيدة دلال الزبن

تعقيب: السيدة لطيفة الرجيب

الجلسة الثانية :

- «المرأة العاملة في الخليج - دراسة ميدانية » .

اعداد: د. سعاد الصباح

تعقيب: د. حيدر ابراهيم

- «المرأة والعمل في الخليج العربي».

اعداد: د. فوزية العطية

تعقيب: د. اسامة عبد الرحمن

الاحد ٢٥ آذار/ مارس ١٩٨٤: الجلسة الثالثة:

- «قضايا المرأة في منطقة الخليج العربي ».

اعداد: د. ابو بكر قادر

تعقيب: السيدة فاطمة حسين

- «المرأة في الخليج العربي: قراءة اولية».

اعداد: د. باقر النجار

تعقيب: د. ابراهيم عثمان

- «اثر عمل المرأة السعودية المتعلمة على التوافق في الحياة الزوجية» .

اعداد: د. ابراهيم ناصر

تعقيب: د. عباس احمد

الجلسة الرابعة:

- «المرأة وقوى التغيير في دول الخليج العربي » .

اعداد: د. بهيجة شهاب

تعقيب: د. محمد الحداد

- «عمل المرأة بين الجمود والتأثير» .

اعداد: د. سالم ساري

تعقيب : د. محمد المطوع .

كما قدمت بحوث اخرى تناولت نواحي فنية الطابع مثل «دور الاتحادات والجمعيات النسائية في تهيئة المرأة العربية للمساهمة في تنمية المجتمع» ثم «التخطيط للاحتياجات من الكفاءات الادارية النسائية في المملكة العربية السعودية»، و«دور مراكز التنمية الاجتماعية في تأهيل وتدريب المرأة في دولة الامارات العربية المتحدة» و«القوانين الخاصة بالمرأة العاملة في دول الخليج العربي».

أثار المؤتمر نقاشاً وحواراً يستحق التوقف لاسباب خاصة بالمؤتمر نفسه وباللقاءات الاخرى المشغولة بقضايا مماثلة، ومن النقاط الجديرة بالتسجيل بوجه عام وبشكل خاص ما يلي:

اولاً: كان النقد المتكرر في التعقيبات والنقاش هو ان المؤتمر تحول الى مؤتمر اكاديمي بحت وهذا ليس عيباً في حد ذاته لأنه لا بد من اطار اكاديمي علمي ومنهجي توضع فيه اشكالية المرأة والعمل في مجتمعات متخلفة ومحافظة. الخطأ كان في المطالبة بابعاد الاكاديمية عن هذا المجال والمطلوب حقيقة هو اكاديمية ملتزمة وواقعية وليست «محايدة» تنهك نفسها وراء طرق بحث ومناهج ومداخل مدرسية بعيدة عن الواقع. لذلك ظهر الامر وكأنه تناقض بين العلم

والتنظير من جهة والعمل من جهة اخرى. والحقيقة لا توجد حركة للتغيير والعمل دون نظرية او على الاقل افق واضح يوصف الواقع ويستشرف المستقبل. هذه قضية عامة تحويل العلم المحنط الى واقع وحياة ولا يتم ذلك بادانة «الاكاديمية» في عمومها .

ثانياً: ظهر في المؤتمر تيار واضح يقف ضد عمل المرأة مع تفاوت في الطرح المتطرف ويصر عامة على ربط العمل والتحرر بالانحلال وفساد الاخلاق ومخالفة الدين. والتيار تعبير عن اتجاه يسود حياة المجتمع العربي الاسلامي، ولا يرى في التراث الا الممنوعات والجانب السلبي لأي ظاهرة اجتماعية ويستغل الدين في فرض آرائه وتخويف المتخلفين حول الفروع فقط وطريقة التطبيق رغم اتفاقهم حول اساسيات الدين. وهذا التيار يتعمد عرض صورة المرأة الغربية ومشاكلها في العمل كنموذج لعمل المرأة عامة. وهذا خطأ فادح، لأن المرأة في المجتمع الغربي تعمل ضمن علاقات استغلالية لا يخرج عنها الرجل نفسه ولكنها تظهر اكثر بشاعة بالنسبة للمرأة لأنها تقوم بأدوار اجتماعية اخرى .

ومن ناحية اخرى ظهر تيار يناقش قضية المرأة وكأنها خارج السياق الاجتماعي لمجتمعنا العربي وبالتالي يمكن ان تتطور وتتقدم قفزاً على الظروف التاريخية الموضوعية التي يمر بها المجتمع العربي. لذلك نجد انه رغم تعدد المؤتمرات والندوات والكتابات عن قضية المرأة ما زال التناول قاصراً في اغلب الاحيان . ففي بعض الاحيان يتساءل المرء: اي امرأة يقصد المتحدثون او الكتّاب؟ ففي احدى الاوراق تتحدث الباحثة عن قيمة الوقت الضائع الذي تنفقه المرأة في توصيل الاطفال الى المدرسة! وكأن الريفيات والبدويات واغلب النساء يقمن بهذه المهمة!

المرأة العربية ليست واحدة، فهي تنقسم انقسام هذا المجتمع الى طبقات وفئات والى ريف وحضر وجهات جغرافية متعددة. والمرأة العربية جزء من تاريخ المجتمع العربي والتاريخ العالمي تتأثر بكل ما يدور في مجتمعها وحولها لذلك لا نجدها فقط في النصوص القديمة او الكتب الغربية .

ثالثاً : هنالك ملاحظة تتعلق بالتركيز على قضايا ومشكلات واوضاع منطقة الخليج العربي كما يظهر في السنوات الاخيرة بشكل يخشى منه الانسان العربي من ان يتحول اهتمام كل الوطن العربي الى هذا الجزء فقط. لا ننكر اهمية وخصوصية منطقة الخليج العربي ولكن لو تمعّنا في هذه الخصوصية لوجدنا انها جزء لا يتجزأ من خصوصية الوطن العربي ككل والتي افرزت مشكلات ومسائل التخلف والتجزئة نفسها باشكال ذات محتوى واحد. هذا التوجه كان يمكن ان يكون مبرراً لو ان ظاهرة اللقاءات والمؤتمرات الاقليمية عامة ومتكررة في كل انحاء الوطن العربي الاخرى من المشرق الى المغرب، لكي يكون النشاط متنوعاً ومتشعباً ثم يتكامل في النهاية ضمن اطار قومي شمولي. الخوف هنا من الاهتمام المتضخم بمنطقة ما في الوطن العربي مع الاهمال شبه الكامل لمناطق اخرى. كل الذي نتمناه ان تصب كل الجهود الفكرية او التنظيمية في الرافد العربي الكبير المرتبط بقضايا وطموحات الانسان العربي عامة .

اخيراً هذه المؤتمرات ضرورية شرط الا تكون نسخاً من مؤتمرات سابقة مماثلة وان تكون تراكمية المردود بمعنى ان تبتدىء مما انتهى اليه المؤتمر السابق وهنا تكون الفائدة أعم، والا تكون مجرد لقاءات روتينية وطقوسية فقط □

مؤتمر الديمقراطية والتعليم في مصر

القاهرة ، ٢ ـ ٥ نيسان / أبريل ١٩٨٤

عبد العزيز السباعي

- ١ -

عقد في الفترة ما بين الثاني والخامس من نيسان / ابريل عام ١٩٨٤ مؤتمر « الديموقراطية والتعليم في مصر » ، **الذي نظمته رابطة التربية الحديثة ، بالتعاون مع مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام** . وقد تمحورت المناقشات التي دارت فيه حول اشكال الفكر والممارسة التربوية في مجتمعنا . تلك الاشكال والانماط الفكرية الراهنة ، التي عجزت عن انجاز مهام بناء الانسان المصري الواعي الحر ؛ ومن ثَمَّ كان لا بد من مرحلة نقدية جديدة تأخذ مكانها في مجال التربية ، خلافا للفكر القديم الذي كّرس اهتمامه بربط التعليم بالإنتاج ، من خلال مفهوم اقتصادي ضيق ، يحقق مصلحة القلة المسيطرة في المجتمع ، مغفلاً البنية الاجتماعية وعلاقاتها ببنية المجتمع السياسية والاقتصادية . فضلاً عن أن الفكر القديم لم يتناول بالدراسة نمط العلاقات الاجتماعية في ساحة التعليم ، وتأثير هذه العلاقات في تكوين شخصية المواطن المصري وتشكيلها .

لذا أتت الدراسات التي شملها المؤتمر منبئة عن بزوغ مرحلة نقدية جديدة في الفكر التربوي المصري ؛ يطمح فيها الفكر النقدي التربوي الجديد الى تحرير الانسان من إسار القهر والاستبداد التاريخي ، وتمكينه من تشييد عالم انساني اكثر رحابة واكثر ازدهارا . ومن هنا هدفت الابحاث النقدية الجديدة في مجال التربية دراسة العلاقة بين بنية التنظيم الاجتماعي والتربوي من جهة ، وبنية المجتمع من جهة أخرى ـ وتلك النظرة مفادها دراسة بنية العلاقات الاجتماعية ومعرفة آثارها في تشكيل السمات الشخصية للانسان في المجتمع المصري بالإضافة الى دراسة المعرفة ومحتوى المناهج من حيث كونُها نتاجاً اجتماعياً يعكس البنية السياسية والاجتماعية للمجتمع المصري .

- ٢ -

وفي استعراضنا لبعض البحوث التي تناولت تلك القضايا يأتي بحث د . كمال نجيب عن (الديمقراطية والمنهج ـ دراسة للاتجاهات التربوية المعاصرة) الذي يتعرض لثلاثة اتجاهات معاصرة في ديمقراطية المنهج ، متمثلة في نظرية علم اجتماع المعرفة ونظرية رأس المال

الثقافي ، والنظرية النقدية ، تلك الاتجاهات تنظر الى التربية بوصفها إحدى آليات الحفاظ على البناء الاجتماعي في المجتمعات الطبقية . ونظراً لإغفال دراسة الدور الذي تلعبه المعرفة المدرسية في الصراع الاجتماعي وما تمخض عن ذلك من انتعاش الدعوة لمقولة الحياد الايديولوجي والطبقي للمناهج ، تُوجّه الدراسةُ انظارَ القوى الاجتماعية والسياسية المهتمة بشؤون التعليم الى حقيقة الدور الايديولوجي الذي تمارسهُ المناهج المدرسية في الصراع الاجتماعي ، بالإضافة الى دور النقد التربوي بوصفه نقداً ثقافياً وسياسياً واجتماعياً في اساسه ، والنظر الى المنهج من منظور اجتماعي واقتصادي وسياسي بحت . ومن هنا يطرح د . كمال نجيب في بحثه بدائل للتفكير تتجاوز الانماط النظرية التكنوقراطية في تحليل المعرفة المدرسية وبنائها وتقويمها ـ تتلخص تلك البدائل في ان محتوى المواد الدراسية ليس محايدا كما يعتقد رجال التربية التقليديون ، بل هو مثقل بالمعاني الاجتماعية والسياسية ، فلا مغزى للتمييز بين المعرفة المدرسية والمحتوى الايديولوجي .

كما أن التحليل الاجتماعي والسياسي للمعاني المتضمنة في المعرفة المدرسية يشير الى قيام الفئات الاجتماعية صاحبة الثروة والسّلطة بإضفاء الشرعية على وجهات نظرها ومبادئها . واكثر من ذلك ، تعمل المناهج على دعم التقسيم الاجتماعي للعمل وتعزيزه ، بحرمان الفئات المقهورة من انواع الوعي اللازمة للكشف عن طبيعة النظام الاجتماعي الطبقي .

أمّا بحث د . محمود ابو زيد ، وعنوانه : (الديمقراطية والبحث التربوي بين الانحياز والموضوعية) ، فيعالج العلاقة بين الالتزام الايديولوجي للباحث وبين موضوعية البحث التربوي . وهو يرى ان الظاهرة الاجتماعية لا تنشأ بالصدفة ، لكنّها تستند على مبدأ السببية والترابط بين عناصر الحياة مسلماً بانه لا يوجد تعارض بين الحتمية العلمية وبين إحداث عملية التغيير لأن الحتمية العلمية هي سلاح الانسان في التغيير ، ومسلّماً بان محكّ الحقيقة العلمية هو الملاحظة الموضوعية والتجربة ، مؤكدا على ضرورة الحركة والتغيير في الواقع ، ومن ثمَّ فإن القوانين التي كانت تحكم عملية التعليم والتعلم في زمن معين قد لا تتناسب مع وقت آخر .

ويحسم د . محمود أبو زيد إشكالية الموضوعية في بحثه حينما يتساءل : هل يمكن ان يسوقنا الانحياز الايديولوجي الى الموضوعية ؟ فيوضح ان البحث العلمي في إطار علم يهدف الى الكشف عن الحقيقة ، وهي غير مجردة ، بل داخل مجتمع ومرتبطة بمجموعات اجتماعية .

ومن ثم فإنّ الكشف عن الحقيقة قد يكون من شأنه الاضرار بمصالح مجموعات اجتماعية معيّنة وأن يكون ذا فائدة لمجموعات اخرى . وينتهي الى ان مسألة الانحياز الايديولوجي والموضوعية يتوقف حلها على انوع الايديولوجية التي ينحاز اليها الباحث ؛ وبالتالي لا يوجد تعارض بين الانحياز الايديولوجي والموضوعية . لذا فإنّ التذرع بالحياد الاكاديمي وموضوعية المعرفة التربوية يعني الاستسلام للأوضاع الراهنة ، في حين أنّ التربية لا تستطيع أن تؤدي مهامَّها بنجاح دون التزام ايديولوجي محدد وواضح .. وأنّ مثل هذا الالتزام هو القادر على تحديد اولوية المشكلات التي تساعد على الانطلاق ، وهنا تطرح قضية الديمقراطية باعتبارها ضرورة لوجود الدافع الى العمل ووضوح الاهداف .

وفي موضوع (الامية وفاعلية النظام السياسي) يؤكد بحث د . شبل بدران أن محو الامية كأحد نماذج التنمية التي طرحت في العديد من البلدان المتخلفة ، أتت تكريسا لنمط العلاقات الانتاجية السائد في تلك البلدان وهو

نمط العلاقات الرأسمالية حيث تحصل الطبقات الحاكمة على كل فائض القيمة لصالحها ؛ وذلك بخلاف محو الامية وفق النظرية الثورية إذ أنها بموجبها تعد حافزاً على التغيير السياسي والايديولوجي ، حيث ان المواطن الذي يعرف القراءة والكتابة هو عنصر مهم في دعم العمليات السياسية والانمائية ، وبتطور النظرية الثورية ، اكتسب مفهوم محو الامية ابعاداً ومعاني اكثر شمولاً ، كما نجد عند البرازيلي « باولو فيريرى » الذي ينطلق من فكرة أن الثقافة مؤداها أنّ الانسان هو الذي يبدع الثقافة بعمله ؛ غير أن الانسان الامي انسان مقهور ومضطهد ؛ ولكي تغدو التربية تحريرا ، لا استعباداً ، ينبغي ان تكفل للانسان القدرة على الرؤية النقدية الواعية لظروف وجوده الاجتماعي والانساني .

ويقدم د . شبل بدران رؤية أشمل لعلاقة الأمية بالقهر السياسي ، فيرى أن ضيق النظرة السائد الى مشكلة الامية ليس من أعمال المصادفة البحته ولكنه عمل إرادي حيث يعلم النظام السياسي ان وجود الامية بهذه النسب المرتفعة يُحقّق من خلاله مكاسب في تضليل وتزييف وعي الجماهير وقهرها سياسيا . ومن هنا باتت مشكلة الامية مشكلة حضارية ، وذلك يتطلب منا تحرير مفهوم الامية من اطاره الضيق ، ليصير وسيلة للاضطلاع بمهامَّ ضخمة ، من أهمها : المشاركة في القرار السياسي وصياغته والمشاركة الديمقراطية في القضايا الملحَّة المطروحة على ساحة العمل الوطني . وينطلق د . شبل بدران من فهمه لإشكالية الامية في مصر ، الى انّ حسم تلك الاشكالية رهن بحشد كل الطاقات الجماهيرية المتاحة ، وفتح الباب امام التنظيمات الجماهيرية لتقديم الاسهامات الفعالة الممكنة ، وتشجيع الجهود الذاتية والتطوعية . وذلك يتأتى في وجود مناخ ديمقراطي ونظام سياسي اكثر فعالية وقدرة على التعبير عن مصالح الجماهير ، وتقليل حدة التناقض الطبقي السائد الآن في المجتمع المصري . فضلاً عن سيادة نمط جديد من القيم يعبر عن الجهد الانساني الخلاق في المجتمع المصري .

ويكشف د . حسان محمد حسان في بحثه (موقف السلطة من النشاط السياسي للطلاب من ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠) ـ عن ارتباط تحركات الطلاب بالتغيير السياسي بحثا عن مزيد من الديمقراطية ، بينما ارتبطت تحركات العمال بالتغيير الاقتصادي بحثا عن العدالة الاجتماعية ؛ موضحا ان كثيراً من الدراسات التي تمت عن البلدان النامية ، اظهرت ان نسبة المشاركة السياسية للطلاب ، اعلى من سائر طبقات مجتمعهم ، خاصة ابناء الأسر الفقيرة والكادحة ، كما ان نسبة الراديكالية والليبرالية في أوساطهم أعلى منها في غيرها . وعلى صعيد الواقع المصري ، يبرز د . حسان الدور التاريخي للطلاب في الحركة الوطنية المصرية ، والذين كانوا اكثر القوى الشعبية تنظيماً وإدراكاً ، مما يفسر التقاء ثورة يوليو مع اهداف الحركة الوطنية الطلابية ـ إلا ان تضاؤل دور الحركة الطلابية نتج عن اختيار سلطة يوليو لأسلوب الثورة من أعلى ، والاعتماد على القوات المسلحة وحدها في الحكم ، وعدم إتاحة الفرصة للطلاب للمشاركة السياسية ومناقشة مشاكل الوطن ؛ الامر الذي فجر شرارة الوعي السياسي بينهم ،وكان بداية الممارسة السياسية . وكان لذلك ما يبرره . وعلى وجه الخصوص هزيمة ١٩٦٧ ، ومن ثَمَّ كانت مظاهرات ١٩٦٨ رداً على اخطاء وسلبيات السلطة آنذاك ، وما تلا ذلك من إحياء الصلة بين العمّال والطلبة . وظهور قيادات طلابية متحررة من قيود السلطة وفروضها ، فضلاً عن بروز البعد الوطني والقومي في الحركة الطلابية حتى آتت أكلُها اليوم على صعيد الكفاح السياسي والوطني في حومة القضية الوطنية في مصر .

ويمكن ان نجمل الاتجاهات العامة

للمؤتمر ، في التأكيد على ضرورة ان تهتم البحوث النقدية بالمجالات الاساسية الآتية والتي تعد محوراً يمكن ان ترتكن اليه النظرة النقدية الجديدة ، وهي :

- دراسة العلاقات الاجتماعية داخل المدرسة وتأثيرها في تشكيل السمات الشخصية للانسان في المجتمع المصري .

- دراسة المعرفة ومحتوى المناهج الدراسية من حيث كونها نتاجا اجتماعيا يعكس البنية السياسية والاجتماعية للمجتمع المصري .

- دراسة علاقة التفاعل القائمة بين بنية العلاقات المدرسية وما يدور خلالها من عملية تربوية من جهة ، وبين بنية العلاقات السياسية الاجتماعية في المجتمع ، من جهة أخرى .

- دراسة المشكلات التربوية باعتبارها مشكلات تربوية اجتماعية سياسية لا مشكلات تربوية منعزلة عن الواقع الاجتماعي المعاش .

إن دراسة مثل هذه المجالات سوف تعمق وتؤصِّل الفكر التربوي النقدي المناط به إحداث التغيير في بنية النظام التعليمي □